ذكرى

ابي الطيب

بعد الف عام

تأليف

عبد الوهاب عزام

١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م

مطبعة الجزيرة * بغداد

ذكرى
أبي الطيب
بعد ألف عام

تأليف

عبد الوهاب عزام

١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م

مطبعة الجزيرة * بمصر

الى أبي الطيب

أبا الطيب انقاد الزمان على هدًى — وصرتَ برغم الدهر للدهر سيدا
وأعطاك ما أمّلته من إمارةٍ — ولكن على عرش الزمان مُخلَّدا
مضت ألف عام أبلت الملك كلّه — وملكك لا يزداد إلاّ تجدّدا
طلبتُ على الغبراء قبرك مخطئاً — فألفيتُه ذكراً عليك مشيّدا
تدوّى به الآفاق شعراً وحكمة — وتجري به الازمان مجداً وسؤددا
فتربتك الغبراء، إن شئت مرقداً — وقبّتك الزرقاء، ان شئت معبدا
تنبّأتَ أن تحيا بشعرك خالداً — فصدّقت الأجيال قولاً مسدّدا
وقامت لك الأعياد في كل بقعة — فأنشِد على عرش الخلود مردّدا:

« وما الدهر إلاّ من رُواة قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا
وسار به من لا يسير مشمّراً
وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا. »

عبد الوهاب عزام

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى، وأسأله أن يهبَ لي السداد والاخلاص في الفكر والقول والعمل وان يجنبني الرياء والغرور واتباع الهوى. وهو حسبي ونعم الوكيل.

—١—

في الخريف الماضي اتفقت انا وزملائي اساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية أن نحتفل بمرور الف عام على وفاة الشاعر الكبير ابي الطيب المتنبي، وأن نلقي محاضرات في سيرته وأدبه. وتقسّمنا الموضوعات بيننا. وبدا لي حينئذ ان اكتب كتاباً عن ابي الطيب.

وبعد قليل دُعيتُ الى العمل في العراق فلبيت الدعوة — وما يغترب من يبرح القاهرة الى بغداد وانما يترك اهلا الى اهل ووطناً الى وطن — فما كان انتقالي حائلا دون ما عزمت عليه في ذكرى ابي الطيب بل رأيت من سعادة الجد ان يُقسَم لي إحياء ذكرى الشاعر العظيم في مدينة السلام. فألقيت خمس محاضرات في سيرته. وعزمت على أن أضم اليها أبحاثاً في آرائه وعلمه وأدبه

وأخرج كتاباً في بغداد أجعله ذكرى للشاعر العظيم والمدينة العظيمة ، على بعدي من المراجع المهمة في دار الكتب المصرية ومكتبة الجامعة ، وحرماني من بعض كتبي الخاصة .

قدّمت ما كتبت إلى المطبعة على أن أكتب ما بقي أثناء الطبع . فلم ألبث أن سافرت للتفتيش في مدارس العراق فغبت مدة في جنوبي العراق ثم شماليه . وعدت إلى بغداد وقد اقتربت نهاية الدراسة ، وكثرت الأعمال . فلم أستطع الفراغ للكتابة والتصحيح كما أريد. فاضطررت إلى إجمال في الفصول الأخيرة، ووقعت غلطات مطبعية في أثناء الكتاب .

—٢—

ومهما يكن فقد بذلت الجهد ، وأودعت الكتاب من تفصيل سيرة الشاعر والكشف عن جوانب مجهولة من سيرته وأدبه، ما يطوّع لي أن أقدمه للقراء راجياً أن يجدوه أهلا لذكرى أبي الطيب، ويروه أوسع وأعمق وأجدى ما كتب عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا — عام الاحتفال بمضي الف عام على وفاته والله وليّ الهدى والتيسير .

مدخل

الفصل الاول

القرن الرابع الهجرى

أبو الطيب المتنبي من شعراء القرن الرابع الهجري . نشأته آدابه وعركته حوادثه . وكان لاضطراب ذلك القرن أثر بيّن في شعره . فيجمل ان اقدّم كلمة عن الحال السياسية والادبية اذ ذاك. ولست افيض في هذا فجمهور المتأدبين يعرفون ما لا بد من معرفته منه وانما هي تذكرة امهد بها للكلام في سيرة ذلك الشاعر العظيم :

١ — الحال السياسية :

كان سلطان الامويين قائماً في البلاد الاسلامية كلها ، فلما أديل منهم للعباسيين استقلت الاندلس فلم يقم فيها للعباسيين سلطان.

وفي عهد هارون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين (١٧٠-١٩٣هـ) نشأت للعلويين دولة في المغرب الاقصى هي الدولة الادريسية

(١٧٢—٣٧٥ هـ) فخشى الرشيد أمر هذه الدولة الناجمة في اقصى الارض فأقام امارة بني الاغلب في افريقية (١٨٤ ـ ٢٩٥ هـ) .

ثم منح المأمون قائده طاهر بن الحسين ولاية خراسان سنة ٢٠٥ فنشأت لبني طاهر امارة استمرت الى سنة ٢٥٩ .

ثم كان عهد الدول الكبيرة التي استقلت بالسلطان على رغم الخلفاء وان اعترفت لهم بالخلافة : قامت الدولة الصفارية في فارس (٢٥٤ — ٢٩٦ هـ) ثم نسختها دولة السامانيين فى فارس وما وراء النهر (٢٦٩ — ٣٨٩) .

وفي مصر والشام نشأت الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢) وبعد ثلاثين سنة من انقضاء هذه الدولة استقل محمد بن طغج بمصر ولقبه الخليفة الراضي بالله العباسي بالاخشيد . وبعد قليل استولى على الشام والحجاز وكان الأمر بعد وفاة الاخشيد سنة ٣٣٤ في يد مولاه كافور الى ان انتحل الملك سنة ٣٥٥ . وفي كافور يقول ابو الطيب :

يصرّف الملك من مصر الى عدن   الى العراق فأرض الشام فالنوب

اذا أتتها الرياح النكب من بلد فما تهب بهـا الا بترتيب
ولا تجاوزها شمس اذا شرقت الا ومنه لها اذن بتغريب
يصرف الامر فيها طين خاتمه ولو تطلّس منه كل مكتوب

وبعد قليل من وفاة كافور استولى الفاطميون على مصر وقد قامت دولتهم في افريقية وما يليها الى الغرب سنة ٢٩٧ واتسع ملكها حتى استولت على مصر والحجاز ومعظم الشام. وكان في شمالي الشام وما يليه دولة بني حمدان. وسنذكرهم من بعد.

ففي النصف الاول من القرن الرابع وهو عصر المتنبي لم يكن في ايدي العباسيين الا العراق والجزيرة. ولم يكن الامر في هذه البقاع بأيدي الخلفاء بل كان السلطان للمتغلبين من القوّاد والكبراء. وحدث سنة ٣٢٤ لقب امير الامراء يلقّب به الخليفةُ الاميرَ المتغلب على دار الخلافة حتى استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ وبقي سلطانهم بها الى سنة ٤٤٧.

قال ابن الاثير في حوادث سنة ٣٢٤: « وتغلب اصحاب الاطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها

والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم .

واما باقي الاطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق ، وخوزستان في يد البريدي ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس والري واصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه وفي يد وشمكير اخي مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وافريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله ابن المهدي العلوي وهو الثاني منهم ويلقب بأمير المؤمنين، والاندلس في يد عبدالرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي » .

وكان القرن الرابع الهجري قرن ثورات وفتن ونزاع وجدال. كثر فيه الثائرون من العلويين والمتخذين الدعوة العلوية وسيلة الى المجد والسلطان وكثرت اغارات الاعراب والخوارج. وكثرت

كذلك دعاوي المتنبئين واصحاب المقالات الضالة .

وكانت الدعوة الشيعية التي اشتدت في القرن الثالث قد أدت في أواخره الى قيام الدولة الشيعية الكبيرة دولة الفاطميين فقويت بها دعوة الشيعة في المشرق وعظمت آمالهم .

وقد ذكر أبو الطيب الفاطميين في القصيدة التي مدح بها طاهر بن الحسين العلوي بالرملة سنة ٣٣٦ :

كذا الفاطميون الندى في اكفهم   اعز امّحاء من خطوط الرواجب

وذلك قبل استيلائهم على مصر والشام بنحو خمس وعشرين سنة

وقد كثرت الدعوات العلوية في ذلك العصر .

في ابن الأثير سنة ٣٠٣ : « ظهر بالجامدة رجل زعم انه علوي فقتل العامل بها ونهبها وأخذ من دار الخراج أموالا كثيرة » وفي حوادث سنة ٣١٢ : «ظهر عند الكوفة رجل ادعى انه محمد بن اسماعيل بن جعفر الخ وهو رئيس الاسماعيلية ، وجمع جمعاً عظيماً من الاعراب أهل السواد واستفحل أمره في شوال

فسير اليه جيش من بغداد فقاتلوه فظفروا به وانهزم وقتل كثير من اصحابه . »

وفي ذلك العصر ظهر اعظم الفرق افساداً : القرامطة الذين لبثوا زهاء ثلاثين سنة ينشرون الفزع في جزيرة العرب والحجاز والشام . ولا تكاد تخلو سنة في ذلك العصر من غارة لهم على بلد او قطع طريق على الحجاج وغيرهم. وقد اغاروا على مكة سنة ٣١٧هـ تحت امرة أبي طاهر وقتلوا الحجاج وأخذوا الحجر الاسود . ثم توالت الوقائع حتى اضطر الخلفاء العباسيون ان يراسلوا ابا طاهر ليقروه على البلاد التي في سلطانه ويرد الحجر الاسود ولا يتعرض للحجاج فاجاب الى مسالمة الحجاج وأبى رد الحجر .

وقد لقيت الكوفة بلدة أبي الطيب منهم أهوالا . أغاروا عليها سنة ٣١٢ ثم رجعوا سنة ٣١٥ فهزموا جند الخلافة وأسروا قائده يوسف بن أبي الساج ، وأخذوا الانبار وتوجهوا نحو بغداد ففزع أهلها ولكنهم لم يدخلوها . وكذلك توجهوا الى الكوفة سنة ٣١٦ فوجه اليهم الجند فانصرفوا عنها ولكن جماعة ممن

يرون رأيهم ظهروا في جهات من العراق ونزلوا بظاهر الكوفة وجبوا الخراج. ولم تسلم الكوفة من غاراتهم سنة ٣١٩ و ٢٣و ٢٥ .

وكان الى هذه المصائب غارات الأعراب، وظهور بعض الخوارج : في سنة ٣١٥ دخل جماعة من الأعراب الكوفة وأخربوا سورها وأخربوا الحيرة أيضاً. وسنة ٣١٨ أغار بنو نمير وبنو كلاب وعاثوا بظاهر الكوفة فخرج اليهم أمير الكوفة فأسروه [1] .

ولما رجع أبو الطيب الى وطنه بعد خروجه من مصر شهد غارة بني كلاب على بلدته واشترك في حروبهم . وكذلك سجلت كتب التاريخ حوادث لبعض الخوارج في ذلك الوقت .

وسنة ٣٢٢ قبل الواقعة التي سجن فيها أبو الطيب بسنتين ظهر بياسند من أعمال الصغانيان رجل ادعى النبوّة فقصده فوج بعد فوج ، واتبعه خلق كثير وحارب من خالفه فقتل خلقاً كثيراً

---

(١) ابن الاثير والطبرى حوادث سنة ٣١٨

ممن كذبه فكثر اتباعه (١) وفي السنة نفسها قتل في بغداد أبو جعفر الشلمغاني الذي ذهب مذهباً غالياً في التشيع والتناسخ وحلول الالهية فيه.

وكان لهذا الاضطراب في السياسة والآراء، ولهذه الثورات الكثيرة أثر بالغ في نفس أبي الطيب الثائر الطموح كما سنرى.

٢ — الآداب والعلوم

لاريب أن العلوم والآداب تنمو وتزدهر في ظلال الأمن والرخاء وفي رعاية الدول الرشيدة التي ترفع شأن العلماء والادباء وتحرضهم على الجد والاستقصاء. وتوفر لهم من أسباب العيش والكرامة ما يمكنهم من العكوف على الدرس والتأليف. فعظمة الامة السياسية. وثبات الامور فيها تستتبع اهتمام الناس بالعلوم، وكلفهم بها. ولكن نمو العلوم والآداب وازدهارها ثم ذبولها وجفافها يتقلب في أطوار مديدة بطيئة لا تساير الاطوار

(١) ابن الاثير

السياسية. فاذا نمت العلوم في امة قوية لا تؤتي ثمارها إلا بعد زمن مديد . وربما يوافق ازدهارها زمن الضعف السياسي في الدولة التي نمت في ظلالها . وكذلك أطوار ضعفها وزوالها تتم في عصور طويلة . فلا ينبغي ان تقاس حال العلوم والآداب بالاحوال السياسية ولا يجوز ان تلتمس في التاريخ مسايرة رقي العلوم وتدليها للقوة السياسية والضعف وان يكن لاضطراب السياسة اثر سيء في العلوم والآداب ولاستقرارهما اثر حسن فيهما .

وكذلك كان القرن الرابع الهجري : اضطربت فيه السياسة وكثر المتغلبون ، واضطرمت بينهم نيران الحرب ، وكثرت الثورات والاغارات ولكنه كان مع ذلك عصراً مخصباً بالعلوم والآداب فما زال العلماء والادباء منذ القرن الثاني الهجري يؤتون ثمار عقولهم ويخلدونها في الكتب ميراثاً لمن بعدهم حتى كان القرن الرابع فاذا ثروة عظيمة زاد العلماء عليها واجتهدوا في تنقدها وترتيبها . ثم كثرة الدول ادت الى تنافس الملوك في المجد العلمي فحرص كل ملك على ان يجتذب اليه العلماء والادباء ويكثر حوله

الشعراء ليذيع صيته ويخلد اسمه بما يؤلف من الكتب له ، وما ينظم من الشعر في مدحه . ويكفي لمعرفة ذلك نظرة الى الادباء والعلماء الذين التفوا حول امراء المسلمين في المشرق والمغرب .

وانظر كيف ازدحم العلماء والادباء والشعراء حول سيف الدولة على ضيق ملكه ، وقلة ثروته .

كان القرن الرابع يموج بالشعراء ولكنهم كانوا أقل ابتكاراً واصالة من شعراء القرن الثالث واذا استثنينا أبا الطيب لم نجد فيهم من يقاس ببشار وابي نواس وأبي تمام والبحتري .

وأما الكتابة فكانت في هذا القرن أوسع موضوعاً ، وأصفى اسلوباً . تناولت اغراض الشعر المألوفة من المدح والهجاء والغزل والوصف والمواعظ الخ فاتسع المجال لذوي الافكار الثاقبة ، والقلوب الفياضة في النثر خلصوا فيه من الاوزان والقوافي ولكنهم جملوه بالاسجاع فنبغ في هذا القرن ائمة الكتاب في المشرق والمغرب .

وليس يتسع المجال لتفصيل الكلام عن شعراء القرن الرابع

وكتابه فحسبي ان اذكر من شعراء المشرق الشريف الرضي وتلميذه مهيارا ، وابا فراس الحمداني ، وابن نباتة السعدي ، وابا العلاء المعري ، وابا الحسن التهامي ، والسري الرفاء ، والناشئ ، وابا الفرج الببغاء . وغير هؤلاء كثيرون ذكرهم الثعالبي في اليتيمة . ومن شعراء المغرب ابن عبد ربه وابن هانئ وابن عمار وابن خفاجة وابن اللبانة وابن زيدون. ومن الكتاب في هذا العصر ابن العميد ، وابن عباد ، والصابي ، والهمذاني ، والخوارزمي ، والبستي ، والتوحيدي ، وابن زيدون ، وابن عبدون .

ومن الادباء المؤلفين الآمدي صاحب الموازنة وابو علي القالي صاحب الآمالي وابو الفرج صاحب الاغاني والجرجاني صاحب الوساطة والثعالبي صاحب اليتيمة والصولي صاحب الاوراق.

ومن ائمة اللغة والنحو الذين توفوا في النصف الاول من القرن الرابع الزجاج والاخفش الصغير ، ومحمد بن عرفة نفطويه ، وابن مجاهد ، وابن دريد ، وابن السراج ، وابن الانباري ، والمطرز ، وابو عمر الزاهد ، وابن درستويه ، والجوهري .

وممن توفوا في النصف الثاني من هذا القرن الازهري وابن فارس ، والسيرافي ، وابن خالويه ، وابو علي الفارسي ، وابو الفتح ابن جني ، وابو الحسن الرماني .

واجمال الكلام ان القرن الرابع كان من أزهى العصور الاسلامية في كل ما تناولته الحضارة العربية الاسلامية من علم وادب .

٣ — الكوفة :

وُلد ابو الطيب بمدينة الكوفة ونشأ بها وتعلم ولست في حاجة الى الابانة عن مكانة الكوفة والبصرة في تاريخ العلوم العربية والدينية، وان هاتين المدينتين كانتا مهد هذه العلوم ولبثتا زهاء ثلاثة قرون مثابتين للعلم والادب .

وكانت الكوفة في عهد المتنبي لاتزال ذات مكانة في الادب عظيمة على اننا لا نعنى بتاريخ الكوفة وحدها في سيرة المتنبي فقد ورد بغداد واخذ عن ادبائها وناهيكم ببغداد حاضرة العلوم والآداب في ذلك العصر وسنرى عما قليل شيوخ المتنبي الذين درس عليهم وفيهم الكوفي والبغدادي .

الفصل الثاني

مراجع تاريخ أبي الطيب

تراجم أبي الطيب وأخباره كثيرة في كتب المتقدمين والمتأخرين، ولكن كثيراً منها قول معاد ينقله اللاحق عن السابق لا يُعنى فيه بنقد ولا ترتيب، وقلّ أن يذكر سنده من راو أو كتاب. فينبغي للباحث في تاريخ هذا الشاعر أن يردّ الروايات المكررة الى أصولها، ثم يقرن هذه الأصول بعضها ببعض ليعرف وجوه الوفاق والخلاف فيها. ثم يتبين الرواية الوثقى من بينها.

والمراجع التي أعدها أصولا لتاريخ أبي الطيب هي :

اولا — كتب المعاصرين وهي :

١ — شرح أبي الفتح بن جني لديوان الشاعر. وكان أبو الفتح صديقاً له. وقرأ عليه ديوانه، وسأله، وجادله في كثير من أبياته، واثبت هذا في شرحه — ولد قبل سنة ٣٣٠ وتوفي سنة ٣٩٢.

٢ — ترجمة الشاعر في كتاب ايضاح المشكل من شعر

المتنبي لأبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني الذي ألفه ليرد على ابن جني بعض شرحه لديوان أبي الطيب. وقد ادرك الاصفهاني ابا الطيب وعاصر ابن جني والف كتابه هذا لبهاء الدولة ابن بويه.

وهذه الترجمة مثبتة باختصار في الجزء الاول من خزانة الأدب للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي. ولم اقف على الايضاح نفسه.

٣ — كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (٢٩٠ — ٣٦٦ هـ). وهو كتاب نقد ليس فيه من اخبار الشاعر شيء.

٤ — ويلحق بكتب المعاصرين كتاب يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر لأبي منصور محمد بن عبد الملك الثعالبي النيسابوري (٣٥٠ — ٤٢٩ هـ). وفيه فصل مسهب في شعر أبي الطيب افتتحه واختتمه ببعض اخباره.

ثانياً — كتب الثقات من رجال القرن الخامس الهجري وهي:

١ — شرح أبي العلاء المعري لديوان الشاعر وهو الشرح المسمى «معجز احمد» وفيه تفصيل كثير من الحوادث التي قيلت فيها القصائد، وكثير منها يرجع الى الشاعر نفسه . ولا أظن القصص التي بالشرح من رواية أبي العلاء ولكنها روايات اثبتت في نسخة الديوان التي شرحها — وقد عاش المعري بين سنة ٣٦٣ و ٤٤٩ هـ

٢ — شرح علي بن احمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨، للديوان. وفيه نتف قيمة من أخبار الرجل . ويظهر أنه رواها عن شيخه أبي الفضل العروضي (احمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف) وقد روى العروضي ديوان أبي الطيب عن رواة كثيرين .

٣ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . وترجمة أبي الطيب في الجزء الرابع منه . وهي منقولة في طبقات الأدباء لابن الانباري، مع زيادة .

ثالثاً — نسخ الديوان المشتملة على اخبار الشاعر، والحوادث التي قيل فيها الشعر . ولا سيما النسخة المكتوبة سنة ٦٠١ هـ المحفوظة بدار الكتب المصرية (٥٣٠ — ادب) فيها كثير من

اخبار الشاعر، وتفصيل الحادثات التي نظمت فيها القصائد ولكنها ناقصة، وصفحاتها مختلة الترتيب . ثم النسخة (٥٤٢ ـ أدب) بدار الكتب ايضا . وتشبه النسخة الأولى نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد كتبت سنة ١٠٤٨هـ . وهي كثيرة التحريف كتبها نسّاخ جاهل لا يفرق بين النظم والنثر . وتشبه في كثير من اخبارها نسخة شرح المعري كذلك .

رابعاً — من كتب المتأخرين :

١ — معجم الادباء لياقوت الحموي ؛ وليس فيها ترجمة لابي الطيب ولكن شذرات عنه متفرقة في تراجم الادباء .

٢ — الصبح المنبي عن حيثية المتنبي للشيخ يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣هـ . وهذا ليس اصلا فيما يرويه ولكنه تضمن روايات فقدت اصولها .

الفصل الثالث

ديوان ابي الطيب

المرجع الاول لتاريخ كل شاعر ديوانه الذي سجل فيه آراءه

وعواطفه ووصف وقائع مختلفة عرضت له او لأهل عصره.

فديوان ابي الطيب اول عمدة في تاريخه، واجدر مراجعة بالبحث والتمحيص.

وكان سلفنا لا يقبلون رواية شفوية او مكتوبة الا بسند يصلها بمصدرها. فاذا سرنا على آثارهم فلا بدّ لنا باديء بدء ان نتثبت من ان هذا الشعر الذي بايدينا والذي يسمى ديوان المتنبي هو كله من كلامه، وانه يجمع كلامه جميعه الا شذرات لا يعبأ بها. ولو أن الذين يطبعون الديوان يكلفون أنفسهم أن يبينوا لنا السند الذي يصل الديوان بقائله لتيسر الامر للباحثين فان المطابع هونت الرواية وجعلت اثبات نسخة واحدة اثباتاً لآلاف النسخ ولكنهم لم يتعبوا أنفسهم فأتعبوا الباحثين.

فالبحث الاول في ديوان المتنبي هو هل هذا الديوان شعر ابي الطيب وهل هو يستوعب كلامه كله ؟

والجواب المجمل على هذين السؤالين :

اولا — قد رتّب المتنبي ديوانه بنفسه، وقرأه الناس عليه،

واملى شرحاً لبعض ابياته ، وناقشه فيه من اخذوا عنه . ففي نسخة من الديوان بدار الكتب المصرية (٥٤٢ أدب) وفي آخر شرح الواحدي المطبوع في بمباي :

قال الشيخ الامام ابو الحسن علي بن احمد المعروف بالواحدي رحمه الله تعالى :

هذا آخر ما اشتمل عليه ديوان أبي الطيب الذي رتبه بنفسه . وهو خمسة آلاف واربعمائة واربع وتسعون قافية .

وفي مقدمة نسخة بدار الكتب المصرية (ادب رقم ٥٣٠) يقول راوي الكتاب « وجميع ما فيه من تفسير معنى وشرح غريب واختلاف لغة فهو من املائه عند القراءة عليه . » وسنعود الى هذا عند كلامنا عن المتنبي اللغوي .

ثانياً - قد روى الديوان عن ابي الطيب ثقات منهم ابو الفتح بن جني الذى شرحه وناظره في كثير من ابياته . وعلي بن حمزة البصري الذي نزل المتنبي في داره حينما قدم بغداد بعد مفارقة مصر وكان ضيفه الى ان رحل . توفى بصقلية في رمضان سنة

٣٧٥ [١] ومحمد بن احمد المغربي احد ائمة الادب والشعر الذي ألّف كتابين في فضائل المتنبي ورذائله . والقاضي المحاملي (محمد بن احمد بن القاسم) الذي سمع الديوان من ابي الطيب ببغداد .

وفي النسخة (٥٣٠) « وحدّثني ابو الحسن بن سعيد راوية المتنبي بحلب » فهذا راوية آخر .

وقد روى العكبري عن ابي الفضل العروضي قوله في الرد على ابن جني في تفسير بيت من قصيدة المتنبي في مدح ابن العميد :

اذا ما استحسن الماء يعرض نفسه كرعن بسبت في اناء من الورد

« ما اصنع برجل ادعى انه قرأ على المتنبي ثم يروي هذه الرواية، ويفسر هذا التفسير. وقد صحت روايتنا عن جماعة منهم محمد بن العباس الخوارزمي ، وأبو محمد بن القاسم الجرمي ، وأبو الحسن الرخجي وابو بكر الشعراني وعدة من الرواة يطول ذكرهم الخ » [٢] هؤلاء الرواة المعاصرون للشاعر ، وقد استمرت الرواية بعدهم . قال العكبري في مقدمة شرحه ، وهو من رجال

(١) معجم الادباء لياقوت جزء ٥ ص ٢٠٢ وايضاح المشكل .

(٢) العكبري جزء ١ ص ٢٧٦ .

. القرن السادس ، ولد سنة ٥٣٨ وتوفى سنة ٦١٦ هـ .

« وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الامام ابي الحزم مكي بن ريان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة . وقرأته بالديار المصرية على الشيخ أبي محمد عبد المنعم بن صباح التيمي النحوي » اهـ

فديوان ابي الطيب اخذ بالرواية من ايام الشاعر الى زمان العكبري على الاقل ، وعندنا ما يدل على روايات بعد هذا التاريخ .

وكانت نسخه قد انتشرت في الآفاق ، وبلغت حد التواتر او كادت .

ثالثاً — لدينا نسخ عليها سماعات موصولة بالمتنبي وهي توافق سائر النسخ في القصائد كلها ، ومعظم القطع الصغيرة كالنسخة (رقم ٥٣٠ أدب) التي بدار الكتب المصرية عليها سماعات لبعض الوزراء والكبراء المصريين في القرن السابع والثامن بسند متصل الى المتنبي . ونسخة حبيب الرحمن الشرواني الحيدر آبادي التي وصفها صديقنا العلامة الشيخ عبد العزيز الحسيني الراجكوتي استاذ الادب العربى بجامعة علي كره في رسالة

« زيادات شعر المتنبي » المطبوعة في مصر .

رابعاً — لدينا شروح الثقات مثل ابن جني والمعري والواحدي والعكبري والشروح قبل ان يقع التغيير في متونها وعندنا نسخ كثيرة من ديوان المتنبي كتبت في أزمنة مختلفة وبلاد متباعدة . وهي متفقة في جملتها على ما تحتوي من شعر أبي الطيب ولاسيما القصائد وقد قارنت شرح الواحدي وشرح المعري ، وثلاث نسخ مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية احداها كتبت سنة ٦٠١ ونسخة مخطوطة في مكتبة الاوقاف ببغداد فلم أجد بينها خلافاً في القصائد ومعظم القطع الصغيرة ، ولا خلافاً في ترتيب الشعر إلا يسيراً .

ثم ليس شعر أبي الطيب بالشعر الخامل الذي تسهل الزيادة عليه والنقص منه فقد شغل الناس منذ نظمه أبو الطيب الى يومنا هذا . قال الواحدي : « وانما دعاني الى تصنيف هذا الكتاب مع خمول الادب ، وانقراض زمانه اجتماع أهل العصر قاطبة على هذا الديوان ، وشغفهم بحفظه وروايته ، والوقوف على معانيه

وانقطاعهم عن جميع أشعار العرب جاهليها واسلاميها الى هذا الشعر ، واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم، وخطبهم ومقاماتهم حتى كأن الاشعار كلها فقدت . »[1] فليس من ريب في ان الشعر الذي في نسخ الدواوين السائرة شعر المتنبي .

وهنا نجيب السؤال الثانى :

هل الديوان يتضمن شعر المتنبي كله ؟

قال عبدالله بن عبدالرحمن الاصفهاني في كتابه ايضاح المشكل من شعر المتنبي « أخبرنى أبو الفتح عثمان بن جني ان أبا الطيب أسقط من شعره الكثير . وبقى ماتداوله الناس »[2] .

وفي نسخة دار الكتب (رقم ٥٣٠ أدب) في عنوان القصيدة التي قالها في السجن : « وقد امتنع عن عمل الشعر بمصر فسأله جماعة من اهل الادب بها اثبات بعض ما كان اسقطه من شعره رغبة فيه فأجابهم الى ذلك فمما أثبته قوله في صباه وقد وشى به قوم الى السلطان الخ » وفي بعض النسخ قبل القطعة :

---

(١) آخر المخطوط ٥٤٢ أدب — دار الكتب المصرية .
(٢) خزانة الادب ص ٣٨٣ جزء ١ .

وشادن روح من يهواه في يده الخ » وهذه القطعة شذ بعضها »

وقال ابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون : « له اشعار لم تدخل في ديوانه » . ومهما يقل فاغلب الظن ان الذي اسقط المتنبي من شعره قطع صغيرة لم يعن بها الشاعر لسخف معناها او ركاكة لفظها . واسنا نصدق ان ابا الطيب الذي حرص على اثبات قطع صغيرة ما بين بيتين واربعة ليس لها قيمة في الادب كبيرة يرضى ان يحذف شيئاً من قصائده انما حذف المتنبي ابياتاً ارتجلها ثمّ لم يحرص على ان تنسب اليه . ولكن الناس لكلفهم بشعر المتنبي التقطوا كثيراً مما اسقط وجمعوه وألحقوه ببعض نسخ الديوان . وقد أفرد صديقنا الميمني لهذه القطع تأليفاً سماه زيادات شعر المتنبي وجعل كل ما لم يَرْوِهِ العكبري من هذه الزيادات. ولكن كثيراً منها مثبت في نسخ الديوان ولا سيما النسخة (٥٣٠ أدب) المحفوظة بدار الكتب المصرية .

وبعد فمهما دقّقَ الباحث لايسعه الارتياب في ان هذا الشعر السائر بين الناس باسم ديوان المتنبي هو شعر المتنبي الذي يمثّل

افكاره وعواطفه وتاريخه وان ما شذّ عن الديوان يمكن الاغضاء عنه عند البحث في سيرة الرجل وشعره .

ترتيب ديوان المتنبي :

ديوان أبي الطيب قسمان : الاول شعره في صباه الى ان مدح الامير الحسن بن عبد الله بن طغج بالرملة سنة ٣٣٦ وذلكم زهاء اثنين وعشرين عاماً . والثاني ما نظمه من هذا التاريخ الى ان قتل ٣٥٤ وذلكم ثمانية عشر عاماً .

فأما القسم الثاني فقد نظمه بعد ان نبه امره ، ومدح به جماعة من الكبراء والامراء والملوك . ومعالم هذا القسم واضحة وتاريخه معروف حتى لا يجد القارئ المحقق قصيدة من هذا القسم خالية من التاريخ بل بعض القصائد مؤرّخ بالسنة والشهر واليوم والساعة : وكثير منها لها مقدمات طويلة تبين عن الحالة التي نظمت فيها وذلكم ما لا تجده في ديوان شاعر من كبار شعرائنا واحسب هذا كله من املاء المتنبي على رواة ديوانه .

واما القسم الاول فقد نظمه المتنبي وهو خامل حين كان كما

يقول الثعالبي يمدح الغريب والقريب ويصطاد ما بين الكركي والعندليب . والممدوحون في هذا القسم خاملون الا ثلاثة أو اربعة ذكروا قليلا في كتب التاريخ .

وقد قارنت شرح المعري وشرح الواحدي وثلاث نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية ونسخة في مكتبة الاوقاف ببغداد فوجدتها كلها متفقة على ترتيب القصائد الا خلافاً يسيراً في بعض قصائد من شعره الاول الذي نظمه في العراق وفي اول عهده بالشام . وبين النسخ خلاف في ترتيب القطع الصغيرة . ويتم الاتفاق بين النسخ على ترتيب القصائد والقطع كلا بعد القصيدة التي مدح بها محمد بن زريق الطرسوسي :

هذي برزت لنا فهجت رسيساً ثم انثنيت وماشفيت نسيسا

والذي قبل هذه القصيدة في الديوان يعدل جزءاً من أحد عشر جزءاً من شعره كله .

وكدت أعتقد كما اعتقد غيري أن القسم الاول من ديوان المتنبي مرتب على التاريخ حتى عرفت بعد بحث طويل ان

القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد الرومي نظمتا سنة ٣٢٩ يعرف ذلك من ولايه هذا الامير على حلب في هذه السنة، ومن ذكر هزيمة ابن يزداذ في احدى القصيدتين وكانت هزيمته في ذلك الوقت ايضاً . وهاتان القصيدتان في الديوان مقدمتان على قصائد بدر بن عمار التي نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ وأظن مدح مساور كان بعد مدح بدر. ثم بين قصيدتي مساور ومدائح ابن عمار قصائد كثيرة لا يظن ان المتنبي نظمها بين مدحي هذين الاميرين . فهذا أضعف ثقتي بالترتيب في الديوان : قسمه الاول ، ومنعني أن اعتمد عليه في تاريخ الشاعر وان ظننت ان الاصل في ترتيب الديوان كله الترتيب التاريخي . فأدع الاعتماد على ترتيب الديوان في القسم الاول الى أن اجد من الادلة التاريخية ما يكفي للثقة بترتيب قصائده كلها على التاريخ .

الباب الاول

نسب أبي الطيب

الفصل الاول

قبيلته

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبار الجعفي الكندي الكوفي . أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي (١) .

ويقول بعض المؤلفين : أحمد بن محمد الخ . .

جعفي ، الذي ينسب اليه المتنبي هو جعفي بن سعد العشيرة من مذحج من كهلان من قحطان . وكندة ، التي ينسب اليها المتنبي هي محلة في الكوفة . قال في ايضاح المشكل : « حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف بيت من بين روّاء ونسّاج » . ولا ينبغي ان

---

(١) الخطيب وابن خلكان .

نعول على قوله من بين رواء ونساج فقد روى لنا الخطيب أن المتنبي كان جاراً لاشراف من العلويين كما يأتي .

وقد ظنّ بعض الناس ان ابا الطيب من كندة القبيلة فقالوا بديء الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس في البدء والمتنبي والرمادي الشاعر في الختم . وكانا متعاصرين . وروي ان ابا فراس قال لابي الطيب في مجلس سيف الدولة «يادعيّ كندة »

وروى الخطيب البغدادي عن ابن الحسن محمد بن يحيي العلوي الزيدي قال : كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة وكان يعرف أبوه بعبدان السقاء يسقى لنا ولاهل المحلة.. وكان عبدان والد المتنبي يذكر انه من جعفي . وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها. وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات وروى على ابن المحسن التنوخي عن ابيه انه حدّث المتنبي بالاهواز وهو راجع من فارس عن ابي الحسن (العلوي) فقال : تربي وصديقي وجاري بالكوفة واطراه ووصفه . قال التنوخي : واجتمعت بعد موت المتنبي بسنتين بالقاضي ابي

الحسن بن ام شيبان الهاشمي الكوفي وجرى ذكر المتنبي فقال : كنت اعرف اباه بالكوفة شيخاً يسمى عبدان يستقي على بعير له وكان جعفياً صحيح النسب .

وقال العكبري : اما ابو الطيب فيقال انه جعفي ولم احققه .

ولسنا نجد في شعر المتنبي ذكر نسبه . وقد قال في قصيدة يمدح بها علي بن ابراهيم التنوخي :

أمنسيّ السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

قال الواحدي : « هذه اماكن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا يسكنون بهذه المحال » . وقد روي البيت امنسي الكناس الخ .. وقال العكبري في شرحه : الكناس محلة بالكوفة وكذا حضرموت وكندة محلة غربي الكوفة ، والسبيع سوق بالكوفة ومحلة كبيرة . وكل هذه المواضع سميت باسماء من سكنها .

فليس في ذكر هذه الاسماء ابانة عن نسب لشاعرنا وقد حرص المتنبي على ألا يذكر نسبه في شعره فما ذكر اباه ولا جده

ولا احداً من آبائه ولا صرّح باسم قبيلة ولا عشيرة .

وروى الخطيب عن علي بن المحسن التنوخي عن ابيه قال :

« وسألت المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به وقال : انا رجل اتبط القبائل واطوي البوادي وحدي . ومتى انتسبت لم آمن ان يأخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين القبيلة التي انتسب اليها . ومادمت غير منتسب الى احد فانا اسلم على جميعهم ويخافون لساني » .

وفي شعر الرجل نفسه ما يدل على انه كان يكتم نسبه .

ويقول في القصيدة التي مدح بها ابا العشائر بن حمدان والتي اولها:

لا تحسبوا ربعكم ولا طلله   اول ميت فرقكم قتله

يقول :

انا ابن من بعضه يفوق ابا   الباحث والنجل بعض من نجله

وانما يذكر الجدود لهم   من نفروه وانفدوا حيله

فخراً لعضب اروح مشتمله   وسمهري اروح معتقله

وليفخر الفخر اذ غدوت به   مرتدياً خيره ومنتعله

انا الذي بيّنَ الاله له الاقدار   والمرء حيثما جعله

جوهرة تفرح الكرام بها — وغصة لا تسيغها السفله

ان الكذاب الذي اكاد به — اهون عندي من الذي نقله

فلا مبال ولا مداج ولا — وانٍ ولا عاجز ولا تكله.. الخ.

وظاهر من هذا الشعر ان قوماً تكلموا في نسبه وازدروه، فلم يجبهم بذكر نسبه بل قال : ان له آباءً عظاماً ولكنه ليس في حاجة الى ان يستنجد نسبه وهو قادر على ان يغلب خصومه وحده .

وكذلك فَخَرَ ابو الطيب بقومه وآبائه في مواضع اخرى من شعره دون ان يذكر اسم رجل او عشيرة او قبيلة .

قال في احدى قصائد الصبا :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي — وبنفسي فخرت لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضاد — وعوذ الجاني وغوث الطريد

وقال في قصيدة الحمّى بمصر :

ارى الاجداد تغلبها كثيراً — على الاولاد اخلاق اللئام

ولست بقانع من كل فضل — بان اعزى الى جد همام

وقال في رثاء جدته لأمه :

ولولم تكوني بنت اكرم والد　　لكان اباك الضخم كونك لي أمّا

وانى لمن قوم كأنّ نفوسهم　　بها انف ان تسكن اللحم والعظما

وليس في هذا تصريح بنسب ولكن بعض شعره يدل على عصبية يمانية فاكثر ممدوحيه في ايامه الاولى من قبائل يمانية : مدح شجاع بن محمد الازدي ، وعلي بن احمد الطائى ، وشجاع بن محمد الطائى ، وعبيدالله بن يحيي البحتري ، واخاه ابا عبادة ، ومدح التنوخيين في اللاذقية ومنهم علي بن ابراهيم التنوخي الذي قال فيه :

أمنسي السكون وحضرموتا　　ووالدتى وكندة والسبيعا

وقال على لسان بعض التنوخيين يفضل اليمن على خندف :

قضاعة تعلم اني الفتى　　الذي ادخرت لصروف الزمان

ومجدي يدل بنى خندف　　على ان كل كريم يمانى

ويقول في مدح عبيدالله بن يحيي البحتري :

كفى بانك من قحطان في شرف　　وان فخرت فكل من مواليكا

وفي مدح ابى عبادة بن يحيى البحتري :

قدكنت احسب ان المجد من مضر   حتى تبحتر فهو اليوم من ادد

وقال للحسين بن اسحق التنوخي ، وقد هجاه بعض الناس ونسب الهجاء الى المتنبي :

ابت لك ذمي نخوة يمنية   ونفس بها في مأزق ابداً ترمي

فهذه الابيات كلها قد يفهم منها تعصب لليمنية وولع بمدحهم، ولكنا نجد ابا الطيب يمدح ابا الحسين علي بن أحمد المرّي في جبل جُرش ، بالقصيدة الثائرة التي اولها :

لا افتخار إلا لمن لايضام   مدرك او محارب لا ينام

فيقول :

كتبت في صحائف المجد بسم   ثم قيس وبعد قيس السلام

انما مرّة بن عوف بن سعد   جمرات لا تشتهيها النعام

فكيف يقول هكذا رجل ذو عصبية قحطانية . كان بين ابي الطيب وابي الحسين هذا مودة وهما في طبرية ولكن الشاعر لم يمدح صاحبه الاّ بعد ان فارق طبرية . هل لنا ان نفسر هذا

بأن الشاعر اراد ان يعتذر عن تأخره في مدح صديقه هذا وينفي عن نفسه تهمة تقديم القحطانيين عليه ، ونستدل بما يقوله في القصيدة نفسها اعتذاراً عن التأخر :

قد لعمري اقصرت عنك وللوفد ازدحام وللعطايا ازدحام
خفت إن صرت في يمينك أن تأخذني في هباتك الاقوام
ومن الرشد لم أزُرْكَ على القرب على البعد يعرف الالمام
ومن الخير بطء سيبك عني اسرع السحب في المسير الجهام

يمكن ان يقال هذا ولكننا اذا رجعنا الى الحقائق وتطلبنا الادلة القاطعة لم نجد في شعر ابي الطيب ما يدلنا دلالة صريحة على ان الرجل يمانٍ او مضري ولا ما ينبيءُ بعشيرة او قبيلة .

فان كان ابو الطيب كتم نسبه اشفاقاً مما عسى ان يكون بين قومه وبين القبائل من عداوة فالنسب الذي يخفيه صاحبه فيخفى ليس بنسب نابه . ثم قد انبأنا الرواة انه جعفي وانه نسب الى كندة احدى محلات الكوفة اذ ولد بها حتى ظنّ انه كندي النسب . وهذا دليل آخر على خمول نسب شاعرنا . ثم اختلاف

المؤرخين في تسمية اجداده دليل ثالث .

ومهما يكن فلا ريب ان شاعرنا كان عربيا قحا فلا يعيبه ان كان من بيت فقير وكفاه ان كان كما قال القائل:

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما
وصيرته ملكا هماما

الفصل الثاني

أسرة أبي الطيب

يتفق ثقات المؤلفين على ان ابا الطيب هو احمد بن الحسين ثم يختلفون فيمن بعد هذا فيقول بعضهم الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، ويقول آخرون ابن مرّة بن عبد الجبار .

وقد قدّمت ما رواه الخطيب عن محمد بن يحي العلوي ؟ والقاضي ابن أم شيبان الهاشمي ان ابا المتنبي كان يسمى عبدان السقاء .

ويظهر كذلك من أبيات رواها الثعالبي في اليتيمة وياقوت

في معجم الادباء وابن خلكان أن ابا المتنبي كان سقاء : فقدهجاه ابن لنكك البصري حينما سمع بقدومه بغداد راجعاً من مصر ووقوع شعراء بغداد فيه فقال ابياتاً منها :

لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقاء تزدحم

وقال شاعر آخر :

ايّ فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا

ويخبرنا صاحب اليتيمة ان والد المتنبي « سافر به الى الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردّده في القبائل ومخايله نواطق الحسنى عنه، وضوامن النجح فيه حتى توفي ابوه وقد ترعرع ابو الطيب وشعرَ وبرعَ » .

وسواء أصحّ ما يقوله الثعالبي عن سفر والده الى الشام ام لم يصح فما ذكر المتنبي والده بكلمة ولا رثاه حين مات كما رثى ابو العلاء المعرّي اباه وامه رثاء بليغاً. وهذا يشهد بما اتفقت عليه الروايات من ان والد ابي الطيب لم يكن رجلا نابه الشأن .

ولا نعرف شيئاً عن والدة المتنبي ولعلها ماتت في حداثته قبل سفره الى الشام ولكننا نعرف عن جدته لامه ما رواه الخطيب عن محمد بن يحي العلوى انها كانت همدانية صحيحة النسب وكانت من صلحاء النساء الكوفيات، واظنها التي عناها حين قال:

أمنسيّ السكون وحضرموتاً ووالدتي وكندة والسبيعا

فقد رثاها من بَعْدُ وسماها امه. وقد رُوي في الصبح المنبي وفي نسخة الشرواني: ان ابا الطيب قال في الاعتقال:

بيدي أيها الامير الاريب لا لشيءٍ الا لأني غريب
ولأمّ لها اذا ذكرتني دمُ قلب بدمع عين مشوب

فان صحّ هذا فليس دليلا على ان امه كانت حية اذ ذاك. فانه يسمي جدته أُماً كما تقدّم. وجدّة المتنبي تفرّدت من بين اسرته برثاء ابان فيه الشاعر عن اجلالها وحبه اياها، ووصفها احسن الصفات.

واخبرنا كما اخبرنا الرواة انها ماتت فرحاً بكتاب جاءها منه بعد طول غيبة ايأستها، يقول الشاعر في اول هذه القصيدة التي

مزج فيها الحزن بالثورة على الزمان واهله :

ألا لا أرى الاحداث مدحاً ولا ذماً فما بطشها جهلا ولا كفها حلما
الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أُبدى ويكرى كما أُرمى
لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن الى الكأس التي شربت بها واهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيتُ عليها خيفة في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
ولو قتل الهجر المحبين كلهم مضى بلد باق اجدت له صرما
عرفتُ الليالي قبل ما فعلتْ بنا فلما دهتني لم تزدني بها علما
منافعُها ما ضرّ في نفع غيرها تغذّي وتروي ان تجوع وان تظما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي فمتّ بها غما
حرام على قلبي السرور فانني اعدّ الذي ماتت به بعدها سما
تعجب من لفظي وخطي كما نما ترى بحروف السطر أغربة عصما
وتلثمه حتى اصار مداده محاجر عينيها وانيابها سحما

الى ان يقول :

وما انسدّت الدنيا عليّ لضيقها ولكن طرفاً لا اراك به اعمى

فوا اسفاه الا أكب مقبّلاً لرأسك والصدر اللذي ملئا حزما

والا الاقي روحك الطيب الذي كأنّ ذكي المسك كان له جسما

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي اما. الخ

فقد اعلمنا شاعرنا انه ترك في الكوفة بيتاً يحن اليه ، وقلباً يعطف عليه ، وان له جدّة صالحة مؤثرة على نفسها احبته واحبها وحزنت لفراقه وحزن لفراقها وسنرى اثر هذا في سيرته من بعد.

الباب الثانى

سيرة أبي الطيب

الفصل الاول

من مولده الى ذهابه الى الشام

وُلِد أحمد بن الحسين في محلة كندة، احدى محلات الكوفة سنة ثلاث وثلثمائة من الهجرة. قال ابو القاسم الاصفهاني في ايضاح المشكل [1] : « حدثني ابن النجار ببغداد ان مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف من بين « رواء ونساج » ولا ينبغي ان نثق بقوله : « من بين رواء ونساج » . فقد روى الخطيب البغدادي ان ابا الطيب كان جاراً لبعض الاشراف العلويين .

(١) ايضاح المشكل من شعر المتنبي لابي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني ألفه لبهاء الدولة بن بويه . (خزانة الادب جزء ١ ص ٣٨٢ فما بعدها . ط القاهرة).

وقد أجمع من رووا اخبار المتنبي على انه ولد في هذا المكان وهذا التاريخ .

ولا نعرف من نشأته الا نتفاً قليلة، روى صاحب الايضاح انه « اختلف الى كتاب فيه اولاد اشراف العلويين فكان يتعلم دروس العربية شعراً ولغة واعراباً » وكان يختلف الى الوراقين ليفيد من كتبهم وقد لفت الناس اليه بذكائه وحفظه . روى الخطيب عن التنوخي عن ابي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي : أنه نشأ محباً للعلم والادب وانه تعلم القراءة والكتابة ولزم الادباء والعلماء .

قال : « واكثر ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم . فأخبرني وراق كان يجلس اليه، يوماً قال لي : ما رأيت احفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط . فقلت له كيف ؟ فقال : كان اليوم عندي وقد احضر رجل كتاباً من كتب الاصمعي (سماه الوراق وأنسيه ابو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه . قال فأخذ ينظر فيه طويلا فقال له الرجل : يا هذا اريد بيعه وقد قطعتني عن

ذلك . فان كنت تريد حفظه في هـذه المدة فبعيد فقال له : إن كنت حفظته فمالي عليك : قال اهب لك الـكتاب. قال فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلوه الى آخره ثم استلبه فجعله في كمه وقام. فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن . فقـال : ما الى ذلك سبيل . قد وهبته لي. قال : فمنعناه منه وقلنا له: انت شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه . »

وقد روى الخطيب وغيره [١] عن محمد بن يحيي العلوي ايضاً انه قال عن ابي الطيب : « وصحب الاعراب في البادية فجاءنا بعد سنين بدوياً قحاً » .

ولسنا ندري متى ذهب احمد الى البادية، ولا كم أقام بها والعلوي يحدثنـا انه اقام سنين . وقد روى ابن الاثير وغيره ان القرامطة اغاروا على الـكوفة سنة اثني عشرة وثلثمائة . فلعل ابا الطيب خرج الى البادية مع اهله حينئذ . وقد اغار القرامطة على

---

(١) طبقات الادباء لابن الانباري والصبح المنبي للبديعي .

الكوفة كرّة اخرى سنة خمس عشرة وثلثمائة وهزموا جيش الخلافة واسروا اميره يوسف بن ابي الساج فيحتمل ان المتنبي فارق الكوفة في هذه السنة ايضاً وقد بقيت ذكرى هذه الوقعة في نفس ابي الطيب فحدّث بها الحسن بن عبيد الله بن طغج في الرملة سنة ست وثلاثين وثلثمائة . ووصف ما كان من القتال فهال ذلك بعض الجلساء فقال ابو الطيب لابن طغج :

أباعث كل مكرمة طموح ... وفارس كل سلهبة سبوح
وطاعن كل نجلاء غموس ... وعاصي كل عذال نصيح
سقاني الله قبل الموت يوماً ... دم الاعداء من جوف الجروح

ويرى (بلاشير) كاتب مقالة المتنبي في دائرة المعارف الاسلامية ان ابا الطيب ترك الكوفة الى البادية أواخر سنة ٣١٢ وانه اقام سنتين في بادية السماوة. ولست ادري كيف جزم بهذا وكيف قدّر المدة بسنتين واحسب هذا التقدير من انه قرأ « سنين » سنتين في الخبر الذي رواه الخطيب وتبعه فيه صاحب الصبح المنبي.

ويرى الكاتب كذلك انه ترك الكوفة الى بغداد سنة ٣١٦ .

ولا احسب دليله في هذا الاستنتاج من اغارة القرامطة على الكوفة تلك السنة .

المتنبي في بغداد :

روى البديعي في الصبح المنبي [1] ان ابا الطيب حدث بهذا الحديث :

« وردت في صباي من الكوفة الى بغداد فاخذت خمسة دراهم بجانب منديلي وخرجت ... الخ » .

ولسنا نعرف متى ذهب ابو الطيب الى بغداد على التحقيق وقد روى مؤلف النجوم الزاهرة في حوادث سنة تسع عشرة وثلثمائة: ان القرامطة اغاروا على الكوفة في هذه السنة فمرّ اهلها الى بغداد فلعلّ صاحبنا ذهب الى بغداد اذ ذاك ، ولعله ذهب اليها اكثر من مرة قبل ذهابه اليها في طريقه الى الشام .

كيف طلب أبو الطيب الادب :

عرفنا ان ابا الطيب تعلم في كتاب بالكوفة ولزم الوراقين

---

(١) ص ٥١ ط دمشق .

يقرأ في كتبهم ، وصحب الاعراب حيناً فسمع اللغة وافاد ما كان يفيده علماؤها من الرحلة الى البادية.. وقال الخطيب في تاريخ بغداد: « وطلب الادب وعلم العربية ونظر في ايام الناس وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ فيه الغاية التي فاق (فيها) اهل عصره، وعلا شعراء وقته » .

وقال الثعالبي في اليتيمة : « ذكرت الرواة انه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلثمائة وان اباه سافر به الى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ويسلمه الى المكاتب ، ويردّده في القبائل ، ومخايله نواطق الحسنى عنه ، وضوامن النجح فيه حتى توفي ابوه وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع » .

نأخذ من هذه الرواية ان اباه كان يسلمه الى المكاتب ويردده في القبائل واما قول الثعالبي ان ذلك كان في الشام فأحسبه وهماً .

وبعد فهل كان درس ابي الطيب اللغة والادب في المكاتب وبين اهل البادية فحسب؟ لا تدلنا الروايتان السالفتان على اكثر

من هذا ، ولم اجد في كتب المتقدمين غيره . ولكن وجدت في مقدمة نسخة من الديوان مكتوبة بخط مغربي وفي ورقة ملحقة بنسخة اخرى مكتوبة ، وكلتاهما في دار الكتب المصرية — وجدت في هاتين النسختين رواية واحدة فيها ذكر شيوخ المتنبي الذين اخذ عنهم اللغة والادب . وهي :

« اجمعت الرواة على ان المتنبي ولد بالكوفة لسنة ثلاث وثلثمائة في كندة ، وانه من اوسطهم حسباً ، وبها نشأ وتأدّب ولما اشتدّ ساعده هاجر الى العلماء . ولقي اصحاب المبرد ابي العباس محمد بن يزيد فقرأ على اكابرهم منهم ابو اسحاق الزجاج وابو بكر ابن السرّاج وابو الحسن الاخفش .

ولقي اصحاب ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب فقرأ على :

أبي موسى (الحامض) وابي عمر الزاهد وأبي نصر .

ولقي اصحاب ابي سعيد السكري فقرأ على نفطويه ، وابن درستويه .

ثم لقي خاتم الادباء وبقية النجباء عالم عصره ابا بكر بن محمد

ابن دريد فقرأ عليه ولزمه وافى بعده اكابر اصحابه منهم:

أبو علي الفارسي ، وابو القاسم عمر بن سيف البغدادي وابو عمران موسى فبرع في الادب .

ولم يكن في وقته من الشعراء من يدانيه في علمه ولا يجاريه في ادبه .

واذا رجعنا الى ما نعرف من تاريخ هؤلاء الادباء فأبو الطيب قد أدركهم جميعاً ولكن بعضهم مات قبل ان يبلغ شاعرنا السن التي تمكنه من التلقي عنهم فأصحاب المبرد الذين ذكروا في هذه الرواية ماتوا وصاحبنا صغير ، مات الزجاج سنة ٣١١ ، والاخفش سنة ٣١٥ ، وابن السراج سنة ٣١٦ .

وأبو موسى الحامض من اصحاب ثعلب مات سنة ٣٠٥ .

ومن عدا هؤلاء وهم بقية اصحاب ثعلب واصحاب السكري وابن دريد واصحابه قد عاشوا الى الزمن الذي تمكن فيه ابو الطيب من التعمق في درس اللغة والادب . وابن دريد اسبقهم وفاة توفي سنة ٣٢١ وابو الطيب اذ ذاك ابن ثماني عشرة. ثم ذكر

نفطويه وابن درستويه في اصحاب السكري ، وذكر الفارسي في اصحاب ابن دريد خطأ .

فهذه الرواية عن شيوخ المتنبي تحتمل الصدق في جملتها لا في تفصيلها وقد جعلت الرواية اخذه عن ابن دريد بعد اخذه عن اصحاب المبرد وثعلب والسكري . فان صحّ هذا فقد لقي شاعرنا ابن دريد في آخر حياته . وسنرى انه رحل الى الشام في السنة التي مات فيها ابن دريد. وأما الفارسيّ فقد لقيه في شيراز. وجائز ان يكون لقيه قبل هذا . وسنعود الى هذا عند الكلام على معرفة أبي الطيب باللغة .

الفصل الثاني

متى رحل ابو الطيب الى الشام

لا بدّ لنا بادئ بدء ان نبين جهد الطاقة السنة التي رحل فيها شاعرنا الى الشام ليتسنى لنا ان نتعرّف شعره الذي انشأه في صباه بالعراق ، وان نتبين سيرته اول عهده بالشام ، ونؤرّخ بعض حادثاتها .

يرى كاتب مقال المتنبي في دائرة المعارف الاسلامية ان ابا الطيب ذهب الى بغداد سنة ٣١٦ ثم رحل الى الشام ولا يدلنا على حجته في هذا . واحسبه استنبط هذا من أن ابا الطيب نظم قصيدة في الشام قال فيها :

لأتركنّ وجوه الخيل ساهمة والحرب اقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها حتى كأنّ بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالي فهي كالحة كأنما الصاب مذرور على اللجم
بكل منصلت مازال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

فقد ظنّ الكاتب أن في هذه الابيات اشارة الى ما فعله أبو طاهر القرمطي في مكة سنة ست عشرة أو سبع عشرة وثلثمائة اذ قتل الحجاج في الحرم واخذ الحجر الاسود .

ولست أجد في هذا حجة للكاتب فان صحّ أن في الابيات اشارة الى هذه الوقعة فقد يشير الشاعر الى وقعة بعد سنين من وقوعها . وليس بعيداً ان يكون أبو الطيب سمع بوقعة أبي طاهر

وهو بالعراق ثم أشار اليها في ابيات نظمها في الشام .

على أن الابيات ليس فيها اشارة واضحة الى ابي طاهر القرمطي وأصحابه . وجائز أنه أراد وصف أنصاره بالفتك والجرأة كما وصف فتيانه بعد خروجه من مصر في القصيدة الميمية التي رثى بها فاتكا :

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا بما رضيت رضى الأيسار بالزلم

في الجاهلية الا ان أنفسهم من طيبهن به في الاشهر الحرم

يريد أنهم لا يعرفون التحليل والتحريم كأنهم في عصر الجاهلية . بل روى العكبري عن ابن القطاع أن الشيخ في هذه الابيات هو السيف ، وان الشيخ والعجوز من اسمائه ، واستشهد بقول أبي المقدام البصري :

ربّ شيخ رأيت في كفّ شيخ يضرب المُعْلِمين والابطالا

قال وسمى السيف شيخاً لقدمه لانهم يمدحون السيوف بالقدم . اهـ ..

وأرى ان هذا ليس بعيداً من اساليب ابي الطيب فقد

وصف السيوف في القصيدة الميمية التي اولها : « لا افتخار الا لمن لا يضام » بقوله :

وعوار لوامع دينها الحلّ ولكن زيّها الاحرام

فقد وصف السيوف بنحو ما وصف به الشيخ في قوله : « شيخ يرى الصلوات .. الخ » .

وأنا ارجّح ان شاعرنا سافر الى الشام سنة إحدى وعشرين وثلثمائة . وثبت هذا فيما يلي :

١ — قال أبو العلاء المعرّي في رسالة الغفران « والذين رووا ديوان أبي الطيب يحكون انه ولد سنة ثلثمائة وثلاث، وكان طلوعه الى الشام سنة احدى وعشرين فاقام فيه برهة ثم عاد الى العراق، ولم تطل مدته هناك ، والدليل على صحة هذا الخبر ان مدائحه في صباه انما هي في اهل الشام الا قوله : « كفى أراني ويك لومك ألوما ... » الخ .

٢ — وفي ديوان شاعرنا بين القصائد السيفية قصيدة اولها :

ذكر الصبي ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل يوم حمامي

وفي شرح ابن جني والمعرّي والواحدي والنسخة (٥٣٠ — ادب) ان ابا الطيب اجتاز براس عين سنة ٣٢١ وقد أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس من بني اسد وبني ضبه ورياح من بني تميم ، ولم ينشده اياها ، فلما لقيه بأنطاكية دخلت في جملة مدائحه .

ولي بحث في أن هذه القصيدة من مدائح سيف الدولة ارجئه الى الكلام عن المتنبي وسيف الدولة، واما هنا فحسبي ان اقول ان الشاعر مرّ برأس العين سنة احدى وعشرين وثلثمائة، ورأس العين مدينة في الجزيرة الفراتيه بين حران ونصيبين ، فأكبر الظن ان ابا الطيب مرّ بهذه المدينة في طريقه الى الشام ومن اجل ذلك كانت اول البلاد الشامية التي مدح فيها منبج .

ما نظم من الشعر في صباه :

إن كان أبو الطيب كما بينا، برح العراق الى الشام سنة احدى وعشرين وثلثمائة فقد كانت سِنُّه إذ ذاك ثماني عشرة سنة. فما القصائد التي نظمها منذ قرض الشعر الى ان بلغ هذه السن ؟

لما بلغ الواحدي في شرحه القصيدة التي مطلعها :

أحيا وايسر ما قاسيت ما قتلا   والبين جار على ضعفي وما عدلا

كتب : « في الشامية » يعني القصائد الشامية ومعنى هـذا ان هذه القصيدة وما يليها الى الـكافوريات نظمت في الشام وان القصائد والقطع التي قبل هذه القصيدة نظمت في العراق. وهي:

قصيدتان يمدح باحداهما محمد بن عبيدالله العلوي المشطب ، وبالاخرى رجلا اسمه ابو الفضل اراد ان يستكشفه عن مذهبه وفيها غلوّ في المدح وشيء من عقيدة الحلول .

وقطعتان فيها خمسة ابيات في الغزل .

وثلاثة ابيات في هجاء رجل اسمه القاضي الذهبي .

وقطعة في رجلين قتلا جرذاً ، وابرزاه للناس يعجبان من كبره . يقول فيها :

لقـد أصبح الجرذ المستغير   اسير المنايا صريع العطب

رماه الكناني والعامري   وتلاه للوجـه فعـل العرب

كلا الرجلين اتلى قتلـه   فأيهما غـل حر السلب ؟

وأيهما كان من خلفه فان به عضة في الذنب

وهي قطعة تدلّ على سخرية هذا الفلا. الثائر من همة رجلين قتلا جرذاً .

ثم ثلاث قطع هي فاتحة شعره الثائر الذي سنرى كثيراً منه بعد :

قيل له وهو في المكتب ما أحسن هذه الوفرة فقال :

لا تحسن الوفرة حتى تُرى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلّها من كل وافي السبال

والقطعة الثانية اولّها :

محبي قيامي ما لذلكم النصل بريئاً من الجرحى سليماً من القتل

والثالثة يقول فيها :

الى أي حين انت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم ؟
والا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتلاق الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى القتل في الهيجا جنى النحل في الفم

وقد تقدّم قول المعرّي أن مدائح ابي الطيب في صباه كلها في اهل الشام الا القصيدة « كفى اراني، ويك، لومك ألوماالخ» وينبغي ان يضاف اليها القصيدة الاخرى التي مدح بها العلوي المشطب فهي ايضاً مما نظمه قبل سفره الى الشام كما يؤخذ من ترتيب شرح الواحدي . ودليل آخر ان ابا الطيب قال في هذه القصيدة :

يا ليت بي ضربة اتيح لها كما اتيحت له محمدها
اثر فيها وفي الحديد وما اثر في وجهه مهندها

قال العكبري: « كان محمد بن عبيدالله هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة، وهو شاب دون العشرين سنة، فقتل منهم جماعة وجرح في وجهه فكسته الضربة حسناً . فتمنى ابو الطيب مثل ضربته. فهذا سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا» . وبيِّنٌ من هذا أن الممدوح عراقي فقد كان مدحه في العراق . وفي دائرة المعارف الاسلامية ان ابا الطيب مدح هذا العلوي في بغداد ولست ادري بمَ استدل الكاتب على هذا .

عاش أبو الطيب في العراق ثمانية عشر عاماً أمضى شطراً منها في البادية وقد حنّ الى موطن صباه قليلا في شعره ، وذكر انه لم يوافقه . يقول في احدى قصائد سيف الدولة :

تذكرت ما بين العذيب وبارق   مجر عوالينا ومجري السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم   بفضلة ما قد كسّروا في المفارق
وليلا توسدنا الثوية تحته   كأنّ ثراها عنبر في المرافق

ثم يقول :

وما بلد الانسان غير الموافق   ولا أهله الأدنون غير الاصادق

ويقول في قصيدة مدح بها سعيد بن عبيد الله الانطاكي :

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني   فلا اعاتبه صفحاً واهوانا
وهكذا كنت في اهلي وفي وطني   ان النفيس غريب حيثما كانا
محسد الفضل مكذوب على اثري   ألقى الكمي ويلقاني اذا حانا

فهذا كلام يشف عن ان بلده قد نبا به .

ويقول الثعالبي ان ابا المتنبي سافر به الى الشام فان صحّ هذا فلا ندري لماذا سافر أبوه وان كان الشاب سافر وحده فقد نبا به

العراق ورأى همته اكبر من جاهه، وآماله أعظم من ثروته فرأى أن بلاداً لا يعرف بها اوسع مضطرباً ، وافسح مرتزقاً ، واسمع لشعره ، واقرب ما يطمح اليه من سؤدد . وهو يقول في رثاء جدّته ، وقد رجع الى العراق :

طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني
وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما

فأصبحت استسقي الغمام لقبرها
وقد كنت استسقي الوغى والقنا الصما

ومعنى هذا أنه ترك جدّته في طلب حظها . وانما تركها في الشام . وسنبين هذا من بعد .

الفصل الثالث

الشام في عهد ابي الطيب

— ١ —

وَلّى الخليفة العباسي المقتدر بالله محمد بن طغج على الرملة سنة ست عشرة وثلثمائة ثم اضاف اليه دمشق بعد سنتين .

وكانت حلب اذ ذاك يتداولها ولاة يُرسَلون من بغداد .

ثم وَلّى محمد بن طغج مصر الى ما في ولايته من الشام سنة احدى وعشرين ثم عزل عنها .

وفي عهد الخليفة الراضي بالله (٣٢٢ — ٣٢٩) عظم أمر ابن طغج فأعيدت ولايته على مصر سنة ثلاث وعشرين وامتدّ سلطانه على الشام كلها .

— ٢ —

وخلع ابن طغج طاعة الخليفة الراضي فأرسل اليه محمد رائق فاستولى على الشام سنة ٣٢٨ وولى محمد بن يزداذ الشهرزوري حلب ثم دمشق .

وانتهى تنازع ابن رائق وابن طغج على الشام الى استقرار ابن رائق في حلب ودمشق ، واستقرار الاخشيد في الرملة وما يليها الى مصر على أن يؤدّي عن الرملة في كل سنة مائة واربعين ألف دينار .

ثم سيّر الاخشيد جيشاً يقوده كافور وفيه مساور بن محمد

الرومي فهزّم ابن يزداذ نائب ابن رائق واستولى على حلب. وَقُتِلَ ابن رائق بالموصل بايدي بني حمدان سنة ثلاثين وثلثمائة فاستقرّ سلطان الاخشيد على الشام كلها .

وبقيت الشام للاخشيد الى ان جاء سيف الدولة فاستولى على حلب سنة ثلاث وثلاثين . وكانت وقائع انتهت باستقرار سيف الدولة في حلب والاخشيديين في دمشق .

— ٣ —

فالشام كانت في عهد ابي الطيب مقسمة بين الاخشيد وابن رائق ، ثم بين الاخشيد وسيف الدولة كانت دمشق وما يليها الى الجنوب في يد الاخشيديين الا سنتين خرجت فيها دمشق من سلطانهم الى سلطان ابن رائق والا فترة قصيرة استولى فيها سيف الدولة عليها بعد موت الاخشيد .

وكانت حلب وما يليها في ايدي ولاة الخلفاء ثم الاخشيد ثم ابن رائق فالاخشيد فسيف الدولة .

— ٤ —

وقد مدح أبو الطيب من رجال هذه الوقائع مساور بن محمد

الرومي والحسن بن عبيد الله بن طغج وهو ابن أخي الاخشيد، وطاهراً العلوي، فأما مساور فقد مدحه بقصيدتين الاولى مطلعها:

جللا كما بي فليك التبريح   أغذاء ذا الرشأ الاغنّ الشيح

والثانية:

أمساور أم قرن شمس هـذا   أم ليث غاب يقدم الاستاذا

وذكر في هذه القصيدة ما فعل الممدوح بابن يزداذ نائب ابن رائق.

وسيأتي الكلام في مدح الحسن بن طغج وطاهر العلوي:

وذكر أبو الطيب من رجال هذه الحادثات ابن يزداذ اذ قال في مدح مساور:

هبك ابن يزداذ حطمت وصحبه   أترى الورى أضحوا بني يزداذا

سدّت عليه المشرفية طرقه   فانصاع لا حلباً ولا بغداذا

طلب الامارة في الثغور ونشؤه   ما بين كرخايا الى كلواذا

وكذلك ذكر الاستاذ كافوراً الاخشيدي في القصيدة الذالية التي مدح بها مساوراً:

أمساور أم قرن شمس هـذا أم ليث غاب يقـدم الاستاذا

فالاستاذ هو كافور .

وسيأتي الكلام في صلة الشاعر بني حمدان ثم كافور .

الفصل الرابع

أبو الطيب في الشام

٣٢١ — ٣٣٦

تنبؤه — اجمال سيرته في هذه المدة

سار أبو الطيب الى الشام من طريق الجزيرة فمرّ برأس عين وانتهى الى منبج وهنالك أقام يمدح جماعة من رؤساء العرب .واول قصائده الشامية في الديوان يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابي المنبجي وكان لبني كلاب جاه في نواحي حلب . وقد تولاها احمد ابن سعيد الكلابي نيابة عن الاخشيد سنة ٣٢٤ وفي ولايته قدم بنو كلاب من نجد فأغاروا على بعض البلاد الشامية . وفي هـذه القصيدة يقول :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا　　والبين جار على ضعفي وما عدلا

* * *

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت　　لها المنايا الى أرواحنا سُبُلا

* * *

يجنّ شوقاً فلولا ان رائحة　　تزوره من رياح الشرق ماعقلا

ويقول في السفر :

كم مهمه قذف قلب الدليل به　　قلب المحب قضاني بعدما مطلا

عقدت بالنجم طرفي في مفاوزه　　وحرّ وجهي بحر الشمس اذ أفلا

أوطأت صم حصاها خف يعملة　　تغشمرت بي اليك السهل والجبلا

لو كنت حشو قميصي فوق نمرقها　　سمعت للجن في غيطانها زجلا

حتى وصلت بنفس مات اكثرها　　وليتني عشت منها بالذي فضلا

والظاهر ان هذا السفر الذي وصفه سفره من العراق الى الشام ثم مدح جماعة في منبج وطرابلس وغيرهما من الشام الشمالية.

١ — تغيرُ الى الطيب

قبل أن نجمل الكلام عن سيرته في الشام الى سنة ست

وثلاثين وثلثمائة نعمد الى تمحيص وقعة كان لها اثر بليغ في حياة أبي الطيب وفي صوغ سيرته في كتب الادب. اعني ادعاء ابي الطيب النبوّه . فنضع للبحث هذين السؤالين : هل ادّعى ابو الطيب النبوه ؟ وان لم يكن ادّعاها فلماذا لقّب بالمتنبي ؟

واجمال الاجابه عن هذين السؤالين فيما يلي :

١ — لا مرية أن ابا الطيب سجن بالشام في شبابه . يتفق على هذا شعر ابي الطيب ورواة سيرته كلهم .

يقول شاعرنا في هذا مخاطباً والي حلب :

أمالك رقي ومن شأنه   هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء   والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء   وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال   فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل   فها أنا في محفل من قرود

٢ — واما الجناية التي سجن من اجلها فيخالف فيها شاعرنا رواة سيرته ويختلف فيها الرواة فيما بينهم :

في تاريخ الخطيب البغدادي روايتان هما اصل لمعظم الروايات التي كتبت عنه :

الاولى: ان ابا الطيب « لما خرج الى كلب واقام فيهم ادّعى انه علوي حسني ثم ادّعى بعد ذلك النبوة. ثم عاد يدعي انه علوي الى ان اشتهر عليه بالشام بالكذب في الدعويين ،وحبس دهراً طويلا وأشرف على القتل ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة واطلق. »

والثانية : « أخبرنا التنوخي حدّثني أبي قال حدّثني أبو علي ابن أبي حامد قال سمعت خلقاً بحلب يحكون ، وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك، أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج اليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وأسره ، وشرد من كان اجتمع اليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل وحبسه في السجن حبساً طويلا . فاعتل وكاد أن يتلف حتى سئل في أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة اشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ، ورجوعه الى الاسلام ، وانه تائب منه ولا يعاود مثله، واطلقه».

ويقول المعري في رسالة الغفران : وحدّثني الثقة عنه حديثاً

معناه أنه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه : « ها هنا ناقة صعبة . فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل » . وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة، وأنه ورد الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم .

وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية وان بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الاقلام فجرحته جرحاً مفرطاً، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها في يومك ، وعد له أياماً وليالي . وان ذلك الكاتب قبل منه فبرئ الجرح. فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم الاعتقادات ويقولون هو كمحيي الاموات .

وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح

ثم انصرف . فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد انك ستجد ذلك الكلب قد مات . فلما عاد الرجل ألفى الامر على ما ذكر.

ولا يمتنع أن يكون أعدّ له شيئاً من الطعام مسموماً والقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل .

وفي الصبح المنبي للشيخ يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣ وهو أجمع الكتب لاخبار المتنبي ، رواية طويلة عن رجل اسمه أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل خلاصتها :

ان أبا الطيب قدم اللاذقية سنة نيف وعشرين وثلثمائة وهو لا عذار له وله وفرة الى شحمتي أذنه فأكرمه معاذ ثم قال له : والله انك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير. فقال ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل. ثم تلا عليه جملة من قرآنه وهو مائة وأربع عشرة عبرة ، ثم أراه معجزة فمنع المطر عن بقعة وقف فيها فأصاب المطر ما حولها ولم تصبها قطرة . فبايعه معاذ وعمت بيعته كل مدينة في الشام . ثم عرف معاذ من بعد أن هذه حيلة صغيرة تسمى صدحة المطر تعلمها أبو الطيب من عرب اليمن.

ثم قال البديعي بعد هذا : انه لما شاع ذكر أبي الطيب وخرج بأرض سلمية من عمل حمص في بني عدي قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين وأمر النجار ان يجعل في رجليه وعنقه قرمتان من خشب الصفصاف فقال :

زعم المقيم بكوتكين بأنه   من آل هاشم بن عبد مناف
فأجبته مذ صرت من ابنائهم   صارت قيودهم من الصفصاف

وكتب الى الوالي من الحبس :

بيدي أيها الامير الاريب   لا لشيء إلا لأني غريب
أو لام لها إذا ذكرتني   دم قلب بدمع عين يذوب
إن اكن قبل ان رأيتك اخطأت   فاني على يديك أتوب
عائب عابني لديك ومنه   خلقت في ذوي العيوب العيوب

تلكم الروايات التي تنسب إلى أبي الطيب إدعاء النبوة . وينبغي ان نبدأ برواية الصبح المنبي فهي واهية لا تحتمل شدة النقد . وهي متضمنة أموراً غير معقولة . يدعي معاذ أنه رآها وذلك كان في إيفاء روايته ، ثم هي متناقضة فقد آمن بمعجزة

المتني وبايعه ثم وصفها بانها «أصغر حيلة تعلمها من بعض العرب» ثم ادّعى أن بيعته عمت كل مدينة في الشام » ولم يروِ هذا احد من الثقات .

ثم في ديوان ابي الطيب ما يكذب هذا . فيه قطعة عنوانها: « وعذله ابو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي على ما كان قد شاهده من تهوّره فقال :

أبا عبد الاله معاذُ إني　　خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم ما طلبي وإنا　　نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه　　ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان اليّ شخصاً　　لخضّب شعر مفرقه حسامي
وما بلغت مشيئتها الليالي　　ولا سارت وفى يدها زمامى
إذا امتلأت عيون الخيل مني　　فويل في التيقظ والمنام

فترى أنه ليس في هذه القطعة إلا المخاطرة ومصاولة الاحداث فيما يطمح اليه من السؤدد . وليس فيها ذكر النبوة والمعجزة ولا ما يقرب منها.

وأما رواية الخطيب الثانية التي تذكر إدعاءه النبوة وتلاوته على الناس قرآناً فقد سمعها ابو علي بن حامد من خلق بحلب. ورواية « الخلق » هذه رواية ضعيفة لا يعتمد عليها. والرواية الاولى يضعفها قول الراوي ان ابا الطيب ادّعى انه علوي .. الخ

فدعوى النبوة فيها مسبوقة وملحوقة بدعوى العلوية وكأنها مقحمة في الرواية.

ولو لم تعارض هذه الروايات روايات اخرى هي اجدر بالثقة لكان فيها مظنة للباحث ولكن عندنا روايتين لرجلين من الثقات هما ابو منصور الثعالبي وابو الفتح بن جني.

فأما الثعالبي وهو ممن عاصروا ابا الطيب فيقول:

«وبلغ من كبر نفسه وبعد همته انه دعا قوماً من رائشي نبله على الحداثة من سنّه، والغضاضة من عدده وحين كاد يتم امر دعوته تأدي خبره إلى والي البلدة، ورفع اليه ما همّ به من الخروج. فأمر بحبسه وتقييده». ثم قال الثعالبي بعد ان روى ابياتاً من القصيدة التي نظمها في السجن. «ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شرذمة

بقوة ادبه وحسن كلامه » .

فالرواية التي ارتضاها الثعالبي انه اراد ان يخرج على السلطان .
واما رواية التنبؤ فذيّل بها الكلام قائلا ويحكى الخ .. ففي عهد الثعالبي وهو من معاصري ابي الطيب كانت رواية التنبؤ فرية تحكى في الجملة ولم يكن الرواة ايدوها بالمعجزات والقرآن .

ويدل على ان المعاصرين لم يكونوا على بينة من ذلك ما رواه الخطيب عن التنوخي : « فأما انا فسألته بالاهواز سنة ٣٥٤ عند اجتيازه بها الى فارس في حديث طويل جرى بيننا ، عن معنى المتنبي لاني اردت ان اسمع منه هل تنبأ ام لا فأجابني بجواب مغالط لي وهو ان قال: هذا شيء كان في الحداثة ... فهذا التنبؤ الذي صدقه المتأخرون لم يتبينه المعاصرون . ثم ابن الاثير وغيره رووا أخبار المتنبئين ولم يذكر احدهم دعوى ابي الطيب .

وفي شرح ابن جني في عنوان قصيدة الحبس .

« وكان قوم قد وشوا به الى السلطان في صباه وتكذبوا عليه وقالوا له قد انقاد له خلق كثير من العرب . وقد عزم على

اخذ بلدك حتى اوحشوه منه فاعتقله وضيّق عليه فكتب اليه يمدحه » .

وقريب من هذا في شرح الواحدي والعكبري وفي كل نسخ الديوان التى اطلعت عليها .

ويقول ابن جنى في شرح البيت :

أنا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

بهذا البيت لقّب المتنبي .

وإجماع هذه الروايات على ان الرجل دعا الناس الى امر وسجن فيه . ثم تختلف الروايات في انها دعوة الى نبوة او غيرها وفي انها كانت في السماوة الخ .

ولا بد ان نرجع الى ديوان الشاعر نفسه لنرى ماذا قال في القصيدة التى كتبها في السجن يستعطف الوالي لنتبين كنه هذه التهمة . قال :

تعجّل فيّ وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود
وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود

فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأنّ بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى اردت ودعوى فعلت بشأوٍ بعيد

فأبو الطيب يقول ، وهو في مقام الاستعطاف والاستغفار لا الانكار والمعارضة : إني اتهمت بالعدوان على العالمين ، بل اتهموني بأني اردت ذلك وما قالوا اني فعلت . وما عرض للتنبؤ ينكره او يستغفر منه . ولو أنه اتهم به لما اغفله فى قصيدته .

ثم هذا « العدوان على العالمين » الذي سجن وهو يتهيأ له يغلب ان يكون خروجاً على السلطان ، ويغلب ان يكون مقروناً بدعوى من الدعاوي الشائعة فى ذلك العصر ، وتفسرها رواية الخطيب أنه ادعى أنه علوي . وليس بعيداً أن يكون أبو الطيب كتم نسبه فى صباه لتتسنى له هذه الدعوى .

ولم يكن تحدث الرجل بالثورة وقتل الامراء واغتصاب الملك أمراً خفياً وقد ملأ به شعره وجعله كالنسيب فى قصائد المدح . وبعد فلماذا سمي المتنبي ؟

هذا السؤال فى رأيي ، هو الذي أوحى الى كثير من الناس

قصة التنبؤ أرادوا ان يفسروا هذا اللقب وتفسيره يسير فالمتنبي في اللغة من يدّعي أنه نبي . وكثيراً ما نرى الناس يخلقون قصة لتفسير اسم مدينة أو قبيلة . فلم تكن قصة المتنبيّ إلا من هذا القبيل والرجل كثير الاعداء والحساد كما قال . ويسّر لهم هذا الافتراء أن الرجل دعا الناس دعوة ، وقال كلاماً فسجن وشاع أمره فجعلوا هذا السجن من اجل التنبؤ وذاعت الرواية على مرّ الزمان .

وجواب السؤال في قول ابن جني في شرح الديوان ، وفيما رواه عنه الثعالبي في اليتيمة . يقول ابن جني في شرح البيت :

أنا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

« بهذا البيت سمي المتنبي » . وقال الثعالبي : « وحكى أبو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت ابا الطيب يقول إنما لقبت بالمتنبي لقولي : انا في امة تداركها لله .. الخ .

وفي القصيدة نفسها بيت آخر :

ما مقامي بارض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

فقد شبه نفسه بالانبياء مرتين في قصيدة واحدة فلقّبه بعض حساده « المتنبي » فذاعت، ثم وضعت القصة، واحتاجت النبوة إلى قرآن فرووا له قرآناً.

ويدل ما رواه ياقوت عن الناشئ الشاعر انه لم يلقب بالمتنبي وقت سجنه ولا في السنة التي سجن فيها. قال :

وحدّث الخالع قال حدّثني أبو الحسين الناشئ قال : كنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ وأنا املي شعري في المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عني . وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم . وهو بعد لم يعرف ولم يلقب بالمتنبي .

وكان أبو الطيب ينكر التنبؤ حين يفتريه عليه اعداؤه .

روى الخطيب عن ابي علي بن حامد : « وكان المتنبي إذا شوغب في مجلس سيف الدولة ، ونحن إذ ذاك بحلب ، نذكر له هذا القرآن وامثاله مما كان يحكى عنه فينكره ويجحده ».

وقال له ابن خالويه النحوي يوماً في مجلس سيف الدولة :

«لولا أن الآخر جاهل لما رضي ان يدعى المتنبي لان متنبي معناه

كاذب . ومن رضي ان يدعى بالكذب فهو جاهل » فقال له : اناء لست ارضى ان ادعى بهذا ، وانما يدعوني به من يريد الغض مني ولست اقدر على الامتناع .

فلو أن الامر كان معروفاً ما استطاع ابو الطيب المكابرة فيه.

متى سجن أبو الطيب :

ليس في نسخ الديوان وشروحه ولا في كتب الادب والتاريخ ما يبين السنة التي سجن فيها الشاعر ولكن بيتاً واحداً في قصيدة السجن يمهد لنا السبيل الى ذلك .

يقول في مدح الوالي الذي أرسل اليه القصيدة وهو في سجنه :

رمى حلباً بنواصي الخيول ... وسمر يرقن دماً في الصعيد
وبيض مسافرة ما يقمن ... لا في الرقاب ولا في الغمود
يقدن الفناء غداة اللقاء ... الى كل جيش كثير العديد
فولى باشياعه الخرشني ... كشاء أحس زئير الاسود
يرون من الذعر صوت الرياح ... صهيل الجياد وخفق البنود

قل الواحدي والعكبري : الخرشني نسبه إلى خرشنة وهي من بلادالروم وتبعها الشرّاح الآخرون حتى المتأخرون كاليازجي والبرقوقي . والذي يبحث في تاريخ الدولة العباسية في تلك السنين يرى اسم بدر الخرشني مذكوراً في وقائعها مكرراً . كان من قوّاد الدولة واستعمله الراضي على الشرطة سنة ٣٢٢ ، وجعله حاجب الحجاب سنة ٣٢٩ وقلده طريق الفرات سنة ٣٣٠ فسار إلى الاخشيد مستأمنا فولاه دمشق فلبث بها قليلا ومات .

فهل الخرشني الذي ذكره ابو الطيب هو بدر الخرشني ؟

في كتاب تاريخ حلب لمحمد راغب الطباخ عن زبدة الحلب ان الراضي بالله خاف على بدرالخرشني من الحجرية ان يفتكوا به فقلده حلب واعمالها سنة اربع وعشرين وثلثمائة فسار إليها واخرج عنها واليها طريف بن عبد الله السبكري . واقام بها مدة يسيرة ثم رجع الى بغداد وتولى طريف حلب مرّة اخرى » .

فالظاهر ان الخرشني الذي ذكره ابو الطيب هو بدر الخرشني . وان الشاعر اشار بهذا إلى استيلاء الاخشيد على حلب

سنة ٣٥٤ . ولا يمنع هذا الرأي ان الخرشني ذهب إلى بغداد وترك حلباً لطريف السبكري فلعلّ طريفاً كان نائباً عنه . وكان لبدر مكانة كبيرة في دار الخلافة حينذاك . ولم يكن بين رجوع الخرشني الى بغداد واستيلاء الاخشيد زمن طويل .

وقد تقدم ان الخرشني ذهب الى الاخشيد مستأمنا . فهذا الاستئمان يدل على عداوة بينهما .

ويؤيد ما ذهبت اليه في هذه المسألة قول ابي العلاء المعري في شرح ديوان ابي الطيب « الخرشني والي حلب » ويؤيده ايضاً رواية ذكرها الخطيب البغدادي وغيره ان الذي سجن الشاعر لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية .

يؤخذ من هذا ان سجن ابي الطيب كان بعد استيلاء الاخشيديين على الشام ، وخروج بدر الخرشني من حلب بمدة يسيرة .

فأكبر الظن ان ابا الطيب سجن سنة اربع وعشرين او خمس وعشرين وثلثمائة .

٢ — اجمال سيرته في الشام :

لبث ابو الطيب بالشام خمس عشرة سنة لا يستقر في بلد يقصد الممدوحين فيخيبون رجاءه ، فيثور ثم تضطره الحاجة الى المدح . مدح اثنين وثلاثين رجلاً باربع واربعين قصيدة وانبه ممدوحيه في ذلك العهد التنوخيون باللاذقية ، وبدر بن عمار الاسدي نائب ابن رائق في طبرية ، ومساور بن محمد الرومي والي حلب . وقد صحب التنوخيين وابن عمار زمناً كما يتبين من شعره . واكثر البلاد نصيباً من مدائحه : منبج وانطاكية ، واللاذقية ، وطبرية ، وقد مدح ايضاً في طرابلس ، وطرسوس ، وجبل جرش ودمشق والرملة . ورثى محمد بن اسحاق التنوخي باربع قصائد قصيرة ، ونظم في الهجاء قصيدة وقطعتين .

ونظم خمس قصائد لنفسه يعرب عن مطامعه ويفخر ويهدد وتلك احسن القصائد ابانة عن آماله وآلامه .

وكان في اكثر قصائد المدح يفخر بنفسه ويشكو زمانه ويذم اهله ويتوعدهم .

فأما المدح فلم يجز عليه إلا بالعطاء النزر على كثرة ما بالغ واحتفل . يقول في مدح علي بن ابراهيم التنوخي :

أشرت ابا الحسين بمدح قوم نزلت بهم فسرت بغير زاد

وروى ياقوت في معجم الادباء عن علي بن حمزة راوية المتنبي انه لما مدح محمد بن زريق الطرسوسي بقصيدته :

هذي برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

وصله عليها بعشرة دراهم فقيل له ان شعره حسن فقال ما ادري احسن هو ام قبيح ولكن ازيده لقولك عشرة دراهم فكانت صلته عليها عشرين درهماً . (ياقوت جزء ٥ ص ٢٠٤)

وروى الثعالبي ان علي بن منصور الحاجب الذي مدحه بقصيدته:

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

اعطاه ديناراً فسميت القصيدة الدينارية .

وابو الطيب يشكو الزمان في هذه القصيدة ثم يقول :

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان اليّ منها تائبا

ويقول الاصفهاني في إيضاح المشكل : « اخبرني ابو الحسن

الطرائفي ببغداد وكان لقي المتنبي دفعات في حالتي عسره ويسره ان المتنبي قد مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم »

ولا ريب أن كبار الممدوحين أعطوه عطاء ملائماً . يقول في مدح الحسين بن علي الهمذاني .

مدحت أباه قبله فشفى يدى — من العدم من تشفى به الاعين الرمد
حباني بأثمان السوابق دونها — مخافة سيرى . انها للنوى جند
وشهوة عود ان جود يمينه — ثناء ثناء . والجواد بها فرد
فلا زلت ألقي الحاسدين بمثلها — وفي يدهم غيظ وفي يدي الرفد
وعندي قباطيّ الهمام وماله — وعندهم مما ظفرت به الجحد

ويقول في مدح علي بن ابراهيم التنوخي :

من بعد ما صيغ من مواهبه — لمن أحب الشنوف والخدم

ولما مدح علي بن أحمد المري حمله على فرس (النسخة ٥٣٠ أدب) ولما نزل على علي بن عسكر ببعلبك خلع عليه وحمله .

وفي طول مقامه عند بدر بن عمار ، ومدحه بخمس قصائد من جيد شعره دليل على انه نال منه ما ارضاه .

ثورة نفسه في هذا العهد :

وكان أبو الطيب في هذا العهد يلهج بالمجد والسؤدد والغلبة والملك، ويذكر ان له مطالب جساماً، ويرى نفسه أحق بالسؤدد ممن سادوا .

فمن ذلك قوله في صباه :

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى　　تساوى المحايي عنده والمقاتل

وقوله في شعر الصبا ايضاً :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر　　فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة　　والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها　　حتى كأن بها ضرباً من اللمم
قد كلمتها العوالي فهي كالحة　　كأنما الصاب مذرور على اللجم
بكل منصلت ما زال منتظري　　حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة　　ويستحل دم الحجاج في الحرم.. الخ

ولما لامه معاذ بن اسماعيل اللاذقي على تهوره قال :

أبا عبد الاله معاذ إني　　خفي عنك في الهيجا مقامي

ذكرت جسيم ما طلبي وإنا　　نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه　　ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان إليّ شخصاً　　لخضّب شعر مفرقه حسامي

وعرض عليه الشراب فقال :

ألذّ من المدام الخندريس　　وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالي　　واقحامي خميساً في خميس
فموتي في الوغى عيش لأنّي　　رأيت العيش في ارب النفوس

ويقول :

لأحبتي ان يملأوا　　بالصافيات الاكوبا
وعليهم ان يبذلوا　　وعليّ ألاّ اشربا
حتى تكون الباترا　　ت المسمعات فأشربا

ويقول في القصيدة التي رثى فيها جدته :

يقولون لي ما انت؟ في كل بلدة　　وماتبتغي؟ما ابتغي جلّ ان يسمى

ويسمي ما يطلبه حقاً له :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ　　كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا قليل إذا عُدوّا كثير إذا شدوا

ويتعجل هذا المطلب احياناً فيقول :

لله حال ارجّيهـــا وتخلفني واقتضي كونها دهري ويمطلني

ويلوم نفسه على التواني :

إلى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي
وشَغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

واما وسيلته الى آماله فالحرب والفتك وقتل الرؤساء .

وقد جعل هجّيراه التغني بالطعن والضرب وكرّره في قصائد المدح وقصائد اخرى اعرب فيها عن آماله وآلامه .

عذله ابو سعيد المجيمري على تركه لقاء الامراء فقال :

ابا ســعيد جنّب العتابا فربّ رأي اخطأ الصوابا
فانهم قد اكثروا الحجّابا واوقفوا لردّنا البوّابا
وان حدّ الصارم القرضابا والذابلات السمر والعرابا
ترفع فيما بيننا الحجابا

ويقول في آخر قصيدة مدح :

أذاقني زمني بلوى شرقت بها ... لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا
وان عمرت جعلت الحرب والدة ... والسمهريّ اخا والمشرفيّ ابا
بكل اشعث يلقى الموت مبتسما ... حتى كأن له في قتله اربا
قحّ يكاد صهيل الخيل يقذفه ... عن سرجه مرحاً بالغزو اوطربا
فالموت أعذرلي، والصبر أجمل بي ... والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

وقد بلغ من كلفه بهذا الضرب من القول انه جعله في اول قصائد المدح كالنسيب عند الشعراء الآخرين فهو يقول في مطلع القصيدة التي مدح بها علي بن ابراهيم التنوخي :

احاد ام سداس في احاد ... لييلتنا المنوطة بالتناد
كأنّ بنات نعش في دجاها ... خرائد سافرات في حداد
افكر في معاقرة المنايا ... وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطي عزمي ... بسفك دم الحواضر والبوادي

وفي مطلع قصيدة اخرى مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي :

فؤاد ما تسلّيه المدام ... وعمر مثل ما يهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار ... وإن كانت لهم جثث ضخام

وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وقد بلغ ولعه بهذا الكلام وقلة مبالاته بالناس ان توعد بقتل الممدوحين في قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله الخصيبي :

مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم قصائداً من اناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمرة إذا تنوشدن لم يدخلن في اذن

بل يغلبه الوهم فيذكر انه حارب وقتل ولسنا ندري متى فعل:

ومطالب فيها الهلاك اتيتها ثبت الجنان كأنني لم آتها
ومقانب بمقانب غادرتها اقوات وحش كنّ من اقواتها

وكان هذا الرجل الثائر الطامح الى الملك فقيراً لا يقدر على العيش الرغد ، وقد ردّد شكواه في شعره . يقول في إحدى قصائد الصبا :

اين فضلي إذا قنعت من الدهر بعيش معجّل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقلّ عنه قعودي
لمْ الليالي التي اخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم

ويقول في القصيدة التي مدح بها علي بن منصور الحاجب

فأعطاه عليها ديناراً :

اظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت عليّ مصائبا

وحبيت من خوض الركاب باسود من دارش فغدوت امشي راكبا

ويقول في قصيدة اخرى :

ولما قلت الابل امتطينا الى ابن ابي سليمان الخطوبا

فهذا ينبئ انه كان عاجزاً عن راحلة يركبها الى الممدوحين .

وكان كما يقول الثعالبي «يجشم نفسه اسفاراً ابعد من آماله .

لا يستقر ببلد، ولا يسكن الى احد»

برتني السرى بري المدى فرددنني

اخف على المركوب من نفسي جرمي

الفت ترحلي وجعلت ارضي قتودي والغريري الجلالا

اوان في بيوت البدو رحلي وآونة على قتد البعير

كأني من الوجناء في ظهر موجة رمت بي بحاراً ما لهن سواحل

يخيّل لي ان البلاد مسامعي واني فيها ما تقول العواذل

وكان من بعد همته، وسعيه واخفاقه، ساخطة على الزمان واهله حتى حسب الدهر حرباً عليه، والناس كلهم عدوّ له . يقول في قصيدة انشأها بعد فراق بدر بن عمار يهجو في آخرها ابن كروس:

فقل في حاجة لم اقصد منها   على شغفي بها شروى نقير
ونفس لا تجيب الى خسيس   وعين لا تدار على نظير
وكفّ لا تنازع من اتاني   ينازعني سوى شرفي وخيري
وقلة ناصر جوزيت عني   بشرّ منك يا شر الدهور
عدوي كل شيء فيك حتى   لخلت الاكم موغرة الصدور

ويقول مخاطباً الاسد :

ورائي وقدامي عداة كثيرة   احاذر من لص ومنك ومنهم

ويقول :

وانما نحن في جيل سواسية   شرّ على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق   تخطي اذا جئت في استفهامها بمن
لا اقتري بلداً الا على غرر   ولا امرّ بخلق غير مضطغن

ويغلو في تحقير الناس فيقول :

اذم الى هذا الزمان اهيله فأعلمهم فدم واحزمهم وغد
واكرمهم كلب وابصرهم عم واسهدهم فهد واشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدوا له ما من صداقته بد

ولا ريب ان في هذا الشعر ما يبين عن غروره وزهوه، واعجابه بنفسه وقد صرّح بذلك في مواضع من شعره. يقول في قصيدة من قصائد الصبا :

انا كن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
انا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وهنا يسأل الباحث أ كان ابو الطيب يفكر فى الحرب والتغلب كما ينطق شعره ام هي نفثات رجل عاجز مزهو يعزى نفسه بالقول حين فاته الفعل ؟

احسب ابا الطيب كان يفكر فى الثورة والغلبة ولا يجد وسائلها فيرتقب ان تتاح له . وبرهان هذا انه همّ بالثورة اول عهده بالشام وحبس ، وانه اعرب عن عزمه على الحرب بعد ان

ذهبت عنه نشوة الصبا ، وكفّ عن الكلام الثائر الذي قدمت بعضه سنين كثيرة . يقول بعد خروجه من مصر في قصيدة يرثي فيها فاتكا :

مازلت اضحك ابلي كلما نظرت ... الى من اختضبت اخفافها بدم

اسيرها بين اصنام اشاهدها ... ولا اشاهد فيها عفة الصنم

حتى رجعت واقلامي قوائل لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم

اكتب بنا ابداً بعد الكتاب به ... فانما نحن للأسياف كالخدم

اسمعتني ودوائي ما اشرت به ... فان عصيت فدائي قلة الفهم

من اقتضى بسوى الهندي حاجته ... اجاب كل سؤال عن هلٍ بلم

توهم القوم ان العجز قرّبنا ... وفي التقرب ما يدعو إلى التهم

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة ... بين الانام ولو كانوا ذوي رحم

فلا زيارة الا ان تزورهم ... ايد نشأن مع المصقولة الخذم

من كل قاضية بالموت شفرته ... ما بين منتقَم منه ومنتقِم

وقال بعد في مدح دلّير بن لشكروز :

محبّ كنى بالبيض عن مرهفاته ... وبالحسن في اجسامهن عن الصقل

وبالسمر عن سمر القنا غير انني جناها احبّاي واطرافها رسلي

ثم يقول في مدح ابن العميد :

إن لم تغثني خيله وسلاحه فمتى اقود الى الاعادي عسكرا .

فالرجل الذي جن بذكر الحرب والضرب في شبابه ويعود اليه بعد ان جاوز الخمسين فما احسبه الا طوى نفسه على هوى مطله به الزمان ثم قتله دونه .

وفي قصيدة الصبا الدالية التي قدمت ابياتاً منها ، والتي لقب من اجلها المتنبي . يقول :

ما مقامي بارض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود

مفرشي صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد

لأمة فاضة اضاة دلاص أحكمت نسجها يدا داود

فان صدقنا أنه كان يلبس درعاً . وليس ما يصدنا عن تصديقه ، فلبس هذا الشاب الدرع في غير حرب دليل على ما تمكن في نفسه من حب الحرب وآلاتها ، وما توسوس به نفسه من خوض غمراتها .

الفصل الخامس

اتصاله بابن طغج

تلكم حال أبي الطيب منذ قدم الشام الى سنة ست وثلاثين وثلثمائة . وكان على سوء حاله وسخطه على الدهر ، ينبه ذكره ويسير شعره ، حتى رغب في مدائحه الامراء فدعاه الامير الحسن ابن عبيد الله بن طغج الى الرملة ليمدحه ، والحسن هذا ابن أخي الاخشيد محمد بن طغج . ثم اتصل بأبي العشائر بن حمدان فمهد له السبيل الى مجده وسعادته الى سيف الدولة علي بن حمدان .

فأما لقاؤه ابن طغج فقد رُوي في شرح المعري : « حدث ابو عمر عبدالعزيز بن الحسن السلمي بحضرة ابي الطيب قال حدثني محمد بن القاسم المعروف بالصوفي قال : أرسلني الامير أبو محمد الى ابي الطيب ومعي مركوب يركبه . فصمدت اليه في دار كان نزلها فسلمت عليه وعرفته رسالة الامير وانه منتظر له فامتنع عليّ وقال: اعلم انه يطلب شعراً وما قلت شيئاً. فقلت: مانفترق.

فقال لي : اقعد إذاً .ثم دخل الى بيت في الحجرة وردّ الباب عليه فلبث فيه مقدار كتب القصيدة ثم خرج اليّ وهي في يده مكتوبة لم تجفّ . فقلت انشدنيها فامتنع وقال ستسمعها . ثم ركب وسرنا فدخلت على الامير أبي محمد وعين الامير الى البـاب منتظراً لورودنا . فسألنا عن خبر الابطاء فأخبرته فسلم عليه ورفعه أرفع مجلس . وأنشده ابو الطيب :

أنا لائمي ان كنت وقت اللوائم　　علمت بمـا بي بين تلك المعـالم

وفي النسخة (٥٣٠) ان هذا كان في شعبان سنة ست وثلاثين وثلثمائة .

وهذا أول مدح أُسنيَتْ عليه جائزة ابي الطيب. قال صاحب الايضاح : أخبرني ابو الحسن الطرائفي قال سمعت المتنبي يقول: أول شعر قلته وابيضّت أيامي بعده قولي :

انا لائمي ان كنت وقت اللوائم .. الخ . فاني اعطيت بهـا بدمشق مائة دينار .

ويؤخذ من الديوان ان شاعرنا أقام برهة عند ابن طغج. وفي

الديوان غير هذه القصيدة ارجوزة قصيرة وثلاث وعشرون قطعة قصيرة اكثرها بيتان ، ولكن التحقيق يدل على ان قطعتين منها قيلتا بعد عشر سنين من هذا التاريخ حين مر أبو الطيب بالرملة قاصداً مصر وهما قوله :

ترك من حيك كالهجاء لنفسي   وقليل لك المديح الكثير
غير اني تركت مقتضب الشعر   لأمر مثلي به معذور
وسجاياك مادحاتك لا لفظي   وجود على كلامي يُغير
فسقى الله من أحب بكفيك   واسقاك أيهذا الأمير

وقوله :

ماذا الوداع وداع الوامق الكمد   هذا الوداع وداع الروح للجسد
اذا السحاب زفته الريح مرتفعاً   فلا عدا الرملة البيضاء من بلد
ويا فراق الأمير الرحب منزله   ان انت فارقتنا يوماً فلا تعد

طاهر بن الحسين :

وكذلك مدح ابو الطيب في الرملة ابا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي . وفي شرح المعرّي والنسخة (٥٣٠)

ونسخة الاوقاف ببغداد عن محمد بن قاسم الصوفي : ان الامير لم يزل يسأل ابا الطيب في كل ليـلة من شهر رمضان اذا اجتمعنا عنده للافطار ان يخص أبا القاسـم طاهراً بقصيدة من شعره يمدحه فيها . وذكر انه يشتهي ذلك . ولم يزل أبو الطيب يمتنع ويقول ما قصدت غير الامير ، ولا امدح سواه فقال الامير أبو محمد قدكنت عزمت ان اسألك قصيدة اخرى تعملها فيّ فاجعلها في ابي القاسم وضمن عنه مئات من الدنانير فأجاب . قال محمد بن القاسم : فمضيت انا والمـطلبي برسـالة طاهر لوعد ابي الطيب فركب معنا ابو الطيب حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من اهل بيته أشراف ، فلما أقبل ابو الطيب نزل ابو القاسم طاهر من سريره وتلقاه بعيداً من مكانه مسلما عليه . ثم اخذ بيده فأجلسه في المرتبـة التي كان فيها . وجلس بين يديه فتحدّث معه طويلا . ثم انشده فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة .

وحدّثني ابو علي بن القاسم الكاتب قال : كنت حاضراً هذا المجلس وهو كما حدّثك به عبد العزيز . ثم قال :اعلم اني مارأيت

ولا سمعت في خبر ان شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب فاني رأيت طاهراً تلقاه واجلسه في مجلسه وجلس بين يديه .

والقصيدة التي مدح بها طاهراً :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب

وردّوا رقادي فهو لحظ الحبائب .. الخ

الفصل السادس

بنو حمدان

— ١ —

لما ضعف سلطان العباسيين ، وغلب على امرهم قواد الجند تطلعت القبائل العربية الضاربة في اطراف العراق الى الملك فنشأ في القرنين الرابع والخامس أربع دول عربية مدّت سلطانها على الجزيرة الفراتية وما يليها ، وعلى قسم من العراق والشام .

وهم : —

١ — بنو حمدان التغلبيون وكانت دار ملكهم الموصل وحلب (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) .

٢ — وبنو مرداس الكلابيون وكانت دار ملكهم حلب (٤١٤ — ٤٧٢) .

٣ — وبنو المسيّب العقيليون (٣٨٦ — ٤٨٩) .

٤ — وبنو مزيد الاسديون وكانت دار ملكهم الحلة (٤٠٣ — ٥٤٥) .

وقد أنجبت هذه الدول امراء ازدان بهم تاريخ الاسلام والعرب . منهم سيف الدولة الحمداني ، وابنه سعد الدولة ، وسيف الدولة المزيدي ، وابنه نور الدولة .

وإنما يعنينا من هذه الدول دولة الحمدانيين :

— ٢ —

حمدان الذي تنسب اليه العشيرة ، احد رؤساء بنى تغلب . وهو كما يتبين من شعر المتنبى ، ابن حمدون بن الحارث بن لقمان ابن راشد :

فأنت أبو الهيجا ابن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدون، وحمدون حارث وحارث لقمان ، ولقمان راشد

وكان حمدان نازلا في جوار الموصل . وكان له يد في سياسة تلك الجهة منذ سنة ستين ومائتين هـ . وتسنى له الاستيلاء على قلعة ماردين سنة أربع وسبعين ثم اخرجه منها الخليفة المعتضد بالله سنة إحدى وثمانين .

ثم توددالحسين بن حمدان الى الخلافة وأعان على هزيمة بعض الخوارج فقربه الخليفة المقتدر ، وولاه واخوته ولايات في اوائل القرن الرابع .

ولي حسين قم وكاشان .

واخوه ابو العلاء نهاوند .

واخوه ابو الهيجاء الموصل .

وكان لأبي الهيجاء تصرف في سياسة الدولة العباسية . وفي عهده عظم سلطان الحمدانيين . ولاه المقتدر الموصل والجزيرة سنة ٣٠٢ ، وحارب القرامطة سنة ٣١٥ وأنقذ بغداد منهم إذ

قطع جسر الانبار .

— ٣ —

وورث ابا الهيجاء ابنه الحسن سنة ٣١٧ ، وكان له ولأخيه علي بلاء حسن في تأييد الخلفاء حتى لقبه الخليفة المتقي سنة ٣٣٠ بناصر الدولة ، ولقب أخاه علياً سيف الدولة . وبعد قتل ابن رائق سنة ٣٣٠ صار ناصر الدولة امير الامراء في بغداد ثلاثة عشر شهراً.

واستمر لناصر الدولة واولاده الملك في الموصل وديار ربيعة ومضر الى سنة ٣٨٠ .

وأما عليّ سيف الدولة فقد ملك واسطاً وما حولها زمناً . ثم اقتطع لنفسه بسيفه مملكة من الاخشيديين في شمالي الشام وما يتصل به . روى أنه طلب من اخيه ناصر الدولة ولاية فقال له : أمامك الشام ومافيه أحد يمنعك فسار الى حلب فاستولى عليها.

استولى على حلب وحمص سنة ٣٣٣ . وكان بينه وبين جيوش الاخشيديين وقائع . ثم استولى على دمشق والرملة بعد

موت الاخشيد ولكنه غلب عليها . وانتهى الامر إلى الصلح على أن تكون حلب لسيف الدولة ودمشق للاخشيد ، وتزوج سيف الدولة بنت الاخشيد :

واستمر الملك لسيف الدولة وذريته إلى سنة ٣٩٤ ثم أديل للفاطميين .

— ٤ —

سيف الدولة والروم

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد أن يكون القفول

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل ؟

كانت الثغور الرومية مثار حروب وغارات منذ فتح المسلمون الشام والعراق . وقد تصدّى بنو حمدان لحرب الروم حين قام ملكهم في الجزيرة . فكان للحسين بن حمدان معهم أحداث ، وكان لسيف الدولة وقائع قبل ان يملك حلب .

فلما استقرّ الفتى العربي في العواصم كان عليه أن يثبت ملكه على الزلازل ، ويقر عرشه على ظبي السيوف . وقد وقف في

الاسلام والعروبة عشرين عاماً شجى في حلق الدولة الرومانية الشرقية لم تخمد نار الحرب بينهما سنة واحدة .

وكانت له في الروم نكايات . وانتصر عليهم مرات . وقد اوغل سنة ٣٢٩ في بلادهم حتى كان على سبعة ايام من القسطنطينية

وقد مني البطل المجاهد بهزائم افظعها ما وقع سنة ٣٥١ إذ قاد نقفور (Nicephorus) مائتي ألف الى أبواب حلب. واستولى على المدينة إلا القلعة وأخرب الروم حلب وقتلوا وأسروا ألفاً ومائتين ألحموهم السيف. ونهبوا دار سيف الدولة خارج المدينة وأخربوها. وفي هذه السنة اسر الامير الشاعر ابو فراس في منبج .

وأصاب سيف الدولة فالج في يده ورجله سنة ٣٥٢ ولكن ذلك لم يقعده عن حرب الروم ولم يعجزه عن الانتصار عليهم في السنة التالية .

وكان الامير التغلبي بطلا في انتصاره وهزيمته ، وضاء في عافيته وبلائه .

وكانت القبائل العربية النازلة في مملكته تزيد همومه وتثقل

اعباءه بالثورة بين الحين والحين فيحاربهم .

توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ بحلب ونقل الى ميافارقين فدفن في مقبرة امه خارج المدينة . وكان قد جمع ما تراكم عليه من عجاج الحرب فصنع منه لبنة وأوصى أن توضع تحت رأسه في قبره .

— ٥ —

سيف الدولة والعلماء والادباء

قال الثعالبي في اليتيمة : « وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الرحال ، وموسم الادباء ، وحلبة الشعراء . ويقال انه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر . وانما السلطان سوق يجلب اليها ما نفق لديها » .

كثر الشعراء حول سيف الدولة ينالون جوائزه ، ويشيدون بذكره . ومنهم غير أبي فراس وأبي الطيب ، أبو العباس النامي وعلي بن عبد الله الناشئ ، والسري الرفاء ، وأبو الفرج الببغاء ، وأبو الفرج الوأواء ، وابو الفتح كشاجم ، وابو نصر بن نباتة ،

وابو العباس الصفري ، وابن كوجك وابن دينار . والخالديان ، وأبو حصين الرقي ، وابو القاسم الشيظمي ، وابو ذر استاذ سيف الدولة .

وقد اختار ابو الحسن الشمشاطي وابو محمد الفياض الكاتب من مدائح سيف الدولة عشرة آلاف بيت [١] .

وممن صحبه من الادباء عبد الله بن خالويه وابو علي الفارسي وابو الطيب اللغوي والقاضي التنوخي وابن نصر البازيار ، والشمشاطي والفياض . وأهدى اليه أبو الفرج الاصفهاني كتاب الاغاني فأعطاه ألف دينار [٢] .

وممن أقام عند سيف الدولة ابو عبدالله بن مقلة أخو الوزير علي بن مقلة . وكان أبو عبد الله كأخيه حسن الخط فكتب لسيف الدولة خمسة آلاف ورقة . قال ياقوت في معجم الادباء : « كان ابو عبد الله منقطعاً الى بني حمدان سنين كثيرة ، يقومون

---

(١) اليتيمة : سيف الدولة . (٢) اليتيمة : سيف الدولة ومعجم الادباء في تراجم هؤلاء الادباء .

بامره احسن القيام . وكان ينزل في دار قوراء حسنة. وفيها فرش تشا كلهاومجلس دست . ولهشيء للنسخ. وحوض فيه محابر واقلام فيقوم ويتمشى في الدار إذا ضاق صدره ثم يعود فيجلس في بعض تلك المجالس وينسخ ما يخف عليه ثم ينهض ويطوف على جوانب البستان ثم يجلس في مجلس آخر وينسخ أوراقاً أخرى على هـذا فاجتمع في خزائنهم من خطه ما لا يحصى . »

وكذلك لجأ إلى سيف الدولة ابو نصر الفارابي الفيلسوف وعاش في كنفه .

وكان سخاؤه ينال من بعد عنه من اهل العلم والادب . روى الثعالبي في اليتيمة ان رسولا لسيف الدولة سأل ابا اسحق الصابي ببغداد شيئاً من شعره .

فأرسل إليه ثلاثة ابيات فلما عاد الرسول الى بغداد زاره الصابي فأرسل اليه كيساً مختوماً بخاتم سيف الدولة عليه اسم الصابي وفيه ثلثمائة دينار. ونجد في ديوان أبي الطيب أبياتاً أجاب بها شاعراً اسمه ابن المنجّم من بغداد بعث الى سيف الدولة ابياتاً

يمدحه بها ، واؤل انه رآه في المنام . وفي النجوم الزاهرة [١] أنه لما اصاب ابا الحسن الكرخي الفالج كتب اصحابه الى سيف الدولة لمده بمال فأرسل اليهم عشرة آلاف درهم جاءت بعد وفاة إبي الحسن فتصدقوا بها .

وروى الثعالبي أن اعرابيا رث الهيئة تقدم الى سيف الدولة والشعراء ينشدونه فأنشده :

أنت علي وهـذه حلب	قد نفد الزاد وانتهى الطلب
بهـذه تفخر البلاد وبالأمير	تزهى على الورى العـرب
وعبدك الدهر قد اضر بنا	اليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة أحسنت، ولله انت. وامر له بمائتي دينار. وكثير امثال هذا في كتب التاريخ والادب .

وكان الامير أديبا شاعراً له شعر يدل على طبع شاعر ، ونقد يدل على ذوق سليم .

(١) حوادث سنة ٣٤٠ .

الفصل السابع

أبو الطيب وبنو حمدان

— ١ —

أبو العشائر (الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان)

سار أبو الطيب سنة ست وثلاثين من الرملة الى أنطاكية فمر ببعلبك وفيها علي بن عسكر فخلع عليه وحمله وسأله ان يقيم عنده فمدحه باربعة ابيات ورحل إلى انطاكية فمدح أبا العشائر بالقصيدة :

أتراها لكثرة العشاق   تحسب الدمع خلقة فى المآقي

ثم مدحه في ثلاث قطع وأنشأ في انطاكية ارجوزة حينما غشى الثلج الارض وتعذر المرعى على حجرته الجهامة ومهره الطخرور :

ما للمروج الخضر والحدائق   يشكو خلاها كثرة العوائق

ثم أغار على انطاكية يانس المؤنسي قائد الإخشيديين

وفجئ ابا العشائر فقاتل عن نفسه حتى خرج الى حلب . وفي هذه الغارة قتل الطخرور وأمه فقال ابو الطيب الابيات التي اولها :

اذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في امر حقير كطعم الموت في امر عظيم
ستبكي شجوها فرسي ومهري صفائح دمعها ماء الجسوم

ثم رجع ابو العشائر الى انطاكية وكان ابو الطيب قد رجع الى الرملة فلما سمع بعودته خرج يقصده . فلما كان بطرابلس اراده اسحاق بن كيغلغ على مدحه فكان بينهما ما رواه المعرّي في شرحه : « ومرّ بطرابلس وبها اسحق بن الاعور بن ابراهيم بن كيغلغ . وكان جاهلا ، وكان يجالس ثلاثة من بني حيدرة . وكان بين ابي الطيب وبين ابيهم عداوة قديمة. فقالوا له ما نحب ان يجاوزك ولا يمتدحك وإنما يترك مدحك استصغاراً لك. وجعلوا يغرونه به . فراسله وسأله ان يمدحه . واحتج ابو الطيب بيمين الاّ يمدح احداً الى مدة . فعاقه عن طريقه ينتظر قضاء تلك المدة . وأخذ عليه الطرق وضبطها . ومات الثلاثة الذين كانوا

يغرونه به في مدة اربعين يوماً. فقال ابو الطيب يهجوه بطرابلس. قال ولو فارقته قبل قولها لم اقلها أنفة من اللفظ بما فيها . قال : واملاها على من يثق به . فلما ذاب الثلج وجفّ عن لبنان خرج كأنه يسير فرسه. وسار الى دمشق واتبعه ابن كيغلغ خيلا ورجلا فأعجزهم ثم ظهرت القصيدة . »

وهي قصيدة جمع فيها ابو الطيب بين التحليق الى اوج الحكمة والاسفاف الى حضيض الاقذاع والافحاش .

ثم سار إلى انطاكية فلقي ابا العشائر . ومدحه بقصيدتين وثماني قطع .

— ٢ —

أبو الطيب وسيف الدولة

أ — كان ابو العشائر بن حمدان والياً على انطاكية من قبل سيف الدولة . فلما قدم الامير انطاكية سنة ٣٣٧ قدّم ابو العشائر اليه ابا الطيب، واثنى عليه. قال صاحب الصبح المنبي : « واشترط المتنبي على سيف الدولة اول اتصاله به انه اذا انشده مديحه لا

ينشده إلا وهو قاعد ، وانه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه فنسب الى الجنون . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط » .

فأما اشتراط المتنبي ما اشترط فجدير بنفسه الابية ، فقد ألف ان يتخذ الممدوحين اصدقاء لا سادة ، واشفق على نفسه ان تسام الهوان ، وان تكلف ما يكلفه الآخرون في لقاء الملوك . ولم يكن صعباً على سيف الدولة ان يجيبه الى ما اشترط فالعربي بطبعه ابعد الناس عن ان يرضى العبودية لنفسه او لغيره .

ب — وجد ابو الطيب في علي بن حمدان الامير العربي الذي ينشده . ورأى سيف الدولة في احمد بن الحسين فتى ابياً اهلاً لصداقته ، وشاعراً مجيداً جديراً بتخليد مآثره . وكان لا بدّ لبطولة سيف الدولة من شاعر كأبي الطيب ، يشيد بها ويسجل مفاخرها . وقد اراد الله سبحانه لهما هذه الصحابة فولدا في سنة واحدة . لقد كانا بطلين يتعاونان بل شاعرين يتباريان :

شاعر اللفظ خدنه شاعر المجد كلانا ربّ المعاني الدقاق

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه فانك معطيه واني ناظم

ان هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لي والحمد لك

ج — صحب ابو الطيب سيف الدولة ثماني سنوات نظم فيها ١٥١٢ بيتاً في ٣٨ قصيدة و ٣١ قطعة .

ومن هذا اربع عشرة قصيدة في وصف وقائعه مع الروم واربع في وقائعه مع القبائل العربية وخمس عشرة في المدح دون وصف الوقائع ، وخمس في الرثاء ومن القطع اثنتان في حوادث الروم ، وغيرها في مقاصد مختلفة .

ويضاف الى هذه القصائد القصيدة التي اولها :

ذكر الصبى ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل يوم حمامي

نظمها سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ثم ألحقها بمدائح سيف الدولة وهي ٣٣ بيتاً .

تتفق نسخ الديوان ، واقوال الشارحين على ان هذه القصيدة قيلت في سيف الدولة سنة ٣٢١ ويرى القارئ فيها ما يصده عن تصديق هذا . يجد الشاعر يقول لممدوحه :

صلى الاله عليك غير مودع   وسقى ثرى ابويك صوب غمام

ونحن نعلم ان ام سيف الدولة ماتت سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ورثاها ابو الطيب وهو في صحبة ابنها . فكيف قال سنة احدى وعشرين : « وسقى ثرى ابويك صوب غمام » .

ثم في القصيدة هذا البيت :

ياسيف دولة هاشم من رام ان   يلقى منالك رام غير مرام

وعلي بن حمدان لم يلقب « سيف الدولة » قبل سنة ٣٣٠ .

يجوز ان يقال ان هذا البيت منحول كما قال بعض الشراح، او ان ابا الطيب زاده حين ألحق القصيدة بمدائح سيف الدولة بعد . ويجوز ان يقال في « ثرى ابويك » انه اراد اباه وجده او اباه وعمه . وقد توفى ابوه سنة ٣١٧ . ومهما يقل ففي النفس شيء من ان يكون ابو الطيب انشأ هذه القصيدة في مدح سيف الدولة سنة ٣٢١ .

وسيأتي انه مدحه بقصيدتين وعزاه عن اخته بأخرى بعد ان رجع الى العراق .

وقصائد الحروب كلها ، وهي ثماني عشرة قصيدة في واحد وسبعين وسبعمائة بيت ، يبلغ فيها ابو الطيب الغاية التي ليس بعدها متقدّم لشاعر او ناثر . وليس هذا موضع الكلام في شعره ولكني اقول ان هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي لا نظير له في الالياذة ولا الشاهنامه واحسبه منقطع النظير في الانياذ الرومانية ، والمهابهرتا والراميانا الهنديتين . وهي اروع شعر حماسي في اللغة العربية .

ويختلف قصائده في حرب الروم عن قصائده في حرب القبائل العربية . يتبين في الاولى نقمة الشاعر على الروم وفرحه بانتصار المسلمين عليهم .

ويتبين في القصائد التي وصف فيها حرب قبائل العرب بني كلاب وبني قشير والعجلان وكعب ، عطف الشاعر عليهم والشفاعة لهم ، والاعتذار عنهم ، واضطراب نفسه بين الاشادة بانتصار الامير ، وحزنه على ما اصاب هذه القبائل .

يقول في بني كلاب :

فقاتل عن حريمهم وفروا ندى كفيك والنسب القراب
وحفظك فيهم سلفي معد وانهم العشائر والصحاب

ترفق ايها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عقاب

فان هابوا بجرمهم علياً فقد يرجو علياً من يهاب
وإن يك سيف دولة غير قيس فمنه جلو دقيس والثياب
وتحت ربابه نبتوا واثّوا وفي ايامه كثروا وطابوا
وتحت لوائه ضربوا الاعادي وذل لهم من العرب الصعاب.. الخ

ويعتذر عن بني كعب ومن عصى معهم بانهم لم يألفوا الطاعة والخضوع :

وفيك إذا جنى الجاني اناة تظنّ كرامة وهي احتقار
واخذ للحواضر والبوادي يضبط لم تُعوّده نزار
تشمّمه شميم الوحش إنساً وتنكرها فيعروها نفار
وما انقادت لغيرك في زمان فتدري ما المقادة والصغار
فقرّحت المقاود ذفريها وصعّر خدها هذا العذار

إلى ان يقول :

إذا لم يُرع سيدهم عليهم　　فمن يُرعى عليهم او يغار
تفرّقهم واياه السجايا　　ويجمعهم واياه النجار

ويقول :

بنو كعب وما اثرت فيهم　　يد لم يُدمها الا السوار
بها من قطعه ألم ونقص　　وفيها من جلالته افتخار
لهم حق بشركك في نزار　　وأدنى الشرك في اصل جوار
لعلّ بنيهم لبنيك جند　　فأول قرّح الخيل المهار

د — ولم يأل سيف الدولة في بر شاعره . وأغداق النعمة عليه وا كرامه ، واعظامه . يؤخذ من رواية في الصبح المنبي أنه كان يعطيه ثلاثة آلاف دينار كل سنة ويدل الديوان أنه كان يعطيه عطايا اخرى في مقامات مختلفة .

فالقطعة :

موضع الخيل من نداك طفيف　　ولو ان الجياد فيها ألوف . الخ

قالها حين سأله سيف الدولة عن صفة فرس يرسله اليه .

والقطعة :

اخترت دهماءتين يا مطر ومن له في الفضائل الخيرَ. الخ

قالها حين خيّره في حجرتين احداهما دهماء والاخرى كميت.

والقطعة :

فعلتْ بنا فعل السماء بارضه خلعُ الامير وحقه لم تقضه. الخ

قالها حين انفذ اليه خلعاً .

والقطعة التي اولها :

أيا رامياً يصمي فؤاد مرامه تربّي عداه ريشها لسهامه

قالها حين خرج الى أقطاع أقطعه اياه الامير في معرّة النعمان.

وكذلك نرى في شروح الديوان ذكر الخلع والهدايا التي منحها الامير شاعره حين اصطلحا بعد أن تنافرا وأنشده القصيدة:

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم!

وروى الثعالبي أن سيف الدولة عاب على المتنبي بيتين من قصيدته : على قدر أهل العزم تأتي العزائم .

فردّ المتنبي رداً أعجب الامير فأمر له بخمسين ديناراً من

دنانير الصلات . وهي دنانير ضربها للهبات عليها اسمه وصورته ، في كل واحد عشرة مثاقيل. فالخمسون منها خمسمائة[1] وفي الايضاح أن سيف الدولة أمر بحساب ما أعطى لأبي الطيب فكان ٣٥ ألف دينار في أربع سنين .

وشعر أبي الطيب ينطق بالغبطة والشكر . يقول :

ناديت مجدك في شعري وقد صدرا يا غير منتحل في غير منتحل
بالشرق والغرب أقوام نحبهم فطالعاهم وكونا أبلغ الرسل
وعرفاهم بأني في مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخول

ويقول :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وأنعلت افراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا
إذا سأل الانسان أيامه الغنى وكنت على بعد جعلنك موعدا

ويقول :

أسير إلى اقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه
وما مطر تذيه من البيض والقنا وروم العبدى هاطلات غمامه
فتى يهب الاقليم بالمال والقرى ومن فيه من فرسانه وكرامه

---

(١) اليتيمة : سيف الدولة .

ويجعل ما خُوّلتُه من نواله   جزاء لما خُوّلتُه من كلامه

وقد سكن ابو الطيب إلى صحبة الامير الكريم ، ومايشهد معه من مشاهد الحرب والمجد فترك الشكوى ، وكفّ عن حديث الثورة والقتل الذي طفح به شعره الاول إلا قليلا نادراً:

ولقد ذخرت لكل ارض ساعة   تستجفل الضرغام عن اشباله

تلقي الوجوهُ بها الوجوه وبينها   ضرب يجول الموتُ في اجواله

وقوله :

أهمّ بشيءٍ والليالي كأنها   تطاردني عن كونه واطارد

وحيد من الخلان في كل بلدة   إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وكان يصحب سيف الدولة في اكثر حروبه فيصفها شاهداً:

واني لتعدو بي عطاياك في الوغى   فلا أنا مذموم ولا انت نادم

على كل طيار اليها برجله   اذا وقعت في مسمعيه الغماغم

ويقول :

وإن كنت سيف الدولة العضبَ فيهم

فدعنا نكن قبل الضراب القنا اللدنا

فنحن الأُلى لا نأتلي لك نصرة	وانت الذي لو أنه وحده اغنى

يقيك الردى من يبتغي عندك العلا	ومن قال لا ارضى من العيش بالادنى

وقال وقد أرسل اليه الامير يسأله اجازة ابيات :

اتاني رسولك مستعجلا	فلباه شعري الذي أذخر

ولو كان يوم وغى قاتماً	للبّاه سيفي والاشقر

الفصل الثامن

فراق سيف الدولة

فارق أبو الطيب صديقه بعد أن لبث في كنفه ثماني حجج .

أنشده أول قصيدة مدحه بها :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه	بان تُسعدا والدمع اشفاه ساجمه

في جمادي الاولى سنة ٣٣٧ وأنشده آخر قصيدة :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم	ماذا يزيدك في اقدامك القسمُ

سنة ٣٤٥

لماذا ترك صاحبه الذي اخلص له الود ، وتوجّه بتاج الخلود ؟

اذا رجعنا الى ديوان أبي الطيب، وكتب الادب نجد اموراً تحدث في الحين بعد الحين تنغص على الشاعر الابيّ عيشه، وتكدر صفوه، ونجد الشاعر يشكو ما يلقى، ويهدد بالفراق أحياناً.

وفى هذه السطور إجمال الكلام فى هذا الصدد :

١ — كان حول سيف الدولة شعراء كسفت شمس ابي الطيب نجومهم، واخمدت نباهته ذكرهم فكانوا يحسدونه ولا يألون فى ذمّه والتسميع به وافساد ما بينه وبين صاحبه. وكانت كبرياء أبي الطيب وفخره بشعره وتعاليه عليهم وايثار الامير اياه تزيد حسدهم وغيظهم. وكان غير الشعراء يحسدون الشاعر الابي على مكانته، وينقمون عليه تعاليه وتعاظمه. انظر الى قوله :

وما انا إلا سمهريّ حملته | فزيّن معروضاً وراع مسدداً
وما الدهر الا من رواة قصائدي | اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا
وسار به من لا يسير مشمّراً | وغنّى به من لا يغنّى مغرّدا
أجزني اذا أنشدتَ شعراً فانما | بشعري اتاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فانني | انا الصائح المحكيّ والآخر الصدى

انظر كيف يكون وقع هذا على شعراء سيف الدولة ، وقد جعلهم اصداء له . وسأل الامير ان يجيزه هو اذا هم أنشدوه فلا جرم جهدوا أن يوقعوا بينه وبين الامير . ومما قاله المتنبي فى هذا :

انا السابق الهادي الى ما اقوله　　إذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يريبني　　اصول ولا للقائليه اصول
أعادى على ما يوجب الحب للفتى　　واهدأ والأفكار فى تجول
سوى وجع الحساد داو فانه　　اذا حل فى قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد فى مودة　　وإن كنت تبديها له وتنيل

وقوله :

وللحساد عذر ان يشحوا　　على نظري اليه وان يذوبوا
فاني قد وصلت الى مكان　　عليه تحسد الحدق القلوب

وقوله :

ازل حسد الحساد عني بكبتهم　　فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
إذا شد زندي حسن رأيك ، فيهم　　ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا

وقوله :

أفي كل يوم تحت ضِبني شويعر ... ضعيف يقاويني قصير يطاول

لساني بنطقي صامت عنه عادل ... وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل

واتعب من ناداك من لا تجيبه ... واغيظ من عاداك من لا تشاكل

وما التيه طبي فيهم غير انني ... بغيض إليّ الجاهل المتعاقل

واكبر تيهي أنني بك واثق ... واكثر مالي انني لك آمل

لعلّ لسيف الدولة القرم هبّةً ... يعيش بها حقٌ ويهلك باطل

٢ — وكان سيف الدولة مغرماً بشعر ابي الطيب ، يود ان يسمع كل حين قصيدة فى مدحه . وكان الشاعر ينظم كل سنة اربع قصائد او خمساً غير القطع . فكان الامير يغضب عليه ومن ادلة هذا فى الديوان انا نجد قصيدة انشدت فى جمادي الآخرة سنة ٣٤٢ وَاخرى انشدت يوم الاضحى من هذه السنة . وَفي الفترة بين القصيدتين وهي زهاء خمسة اشهر نظم ابو الطيب سبعاً ما بين قطع وقصائد قصيرة يعتذر فى اثنتين منها عن تأخير مدحه . يقول فى قطعة :

وما كان ترك الشعر الا لأنه تقصر عن وصف الامير المدائح

ويقول في قصيدة نظمها وقد تنكر له سيف الدولة لتأخره عن مدحه :

كفرت مكارمك الباهرات إن كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر الا القليلَ همٌّ حمى النوم الا غرارا
وما أنا أُسقمت جسمي به ولا انا اضرمت في القلب نارا
فلا تُلزِمَنّي صروفَ الزمان اليّ اساء وايايَ ضارا
وعندي لك الشرّد السائرات لا يختصصن من الارض دارا
قواف اذا سِرن عن مِقولي وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

ثم القصة الآتية التي قال فيها : « واحرّ قلباه » . وهذه القصيدة بين قصيدتين الاولى في المحرم سنة ٣٤١ والثانية في شعبان من السنة .

فهذا يدل على مقدار شغف الامير بمدائح شاعره وتأخر الشاعر عن مسايرة هذا الشغف .

وفي الصبح المنبي ان ابا فراس قال لسيف الدولة:

« ان هذا المتشدق كثير الادلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد . ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

أوقعت هذه الاسباب نفرة بين الامير وشاعره . وكان من ذلك قصتان :

ا — القصة التي قال فيها القصيدة المعروفة :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وفي شرح ابن جني وغيره قبل هذه القصيدة :

« كان سيف الدوله إذا تأخر عن مدحه شق عليه واكثر أذاه . واحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب فلا يجيب ابو الطيب احداً عن شيء فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة . ويتمادى أبو الطيب على ترك قول الشعر ، ويلحّ سيف الدول فيما كان يفعله الى ان زاد الامر وكثر عليه . فقال هذه القصيدة » .

وفي هذه القصيدة يقول :

يا أعـدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وانت الخصم والحكم
أعيـذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ويفتخر بشعره وشجاعته ثم يقول :

كم تطلبون لنـا عيباً فيعجزكم ويكـره الله ما تأتون والـكـرم
ما ابعد العيب والنقصان عن شيمي انا الثريا وذان الشيب والهرم

ولما أنشد القصيدة اضطرب المجلس وقال ابو الفرج السامري احد كبار كتاب الامير دعني اسعى في دمه فرخص له في ذلك .

وفي ذلك يقول ابو الطيب :

أسامريّ ضحكة كل راء فطنت وكنت اغبى الاغبياء
صغرت عن المديح فقلت أهجى كأنك ما صغرت عن الهجاء
وما فكرت قبلك في محال ولا جربت سيفي في هباء

وكاد ابو الطيب يهلك في هذه القصة .

في النسخة (١٥٣٠ أدب) وشرح المعري وبعض نسخ الواحدي أنه لما انشد القصيدة الميميـة وانصرف وقف له رجال

في طريقه . فلما رآهم أمكن يده من قائم سيفه وحمل فخرقهم ولم يصنعوا شيئاً وأن ابا العشائر ارسل جماعة من غلمانه فوقفوا له في طريقه . فلما مرّ بهم ضرب واحد منهم بيده الى عنان فرسه فسلّ ابو الطيب سيفه فخلاّه الرجل . وتقدم الى قنطرة امامه فعبرها واجترّهم الى الصحراء . ورمى أحد الغلمان الفرس بسهم فأصابه في نحره فانتزعه ابو الطيب ثم كرّ عليهم فضرب احدهم فقطع قوسه واصاب ذراعه . ومضى عنهم فسمع احدهم يقول : نحن غلمان ابي العشائر . فلذلك قال :

ومنتسب عندي الى من أحبّه ... وللنبل حولي من يديه حفيف

فهيّج من شوقي وما من مذلة ... حننت ولكن الكريم ألوف

وكل وداد لا يدوم على الاذى ... دوام ودادي للحسين ضعيف

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فافعاله اللائي سررن ألوف

ونفسي لَهُ . نفسي الفداء لنفسه ... ولكن بعض المالكين عنيف

فان كان يبغي قتلها يك قاتلا ... بكفيه فالقتل الشريف شريف

ثم عاد ابو الطيب الى المدينة مستخفياً فأقام عند بعض

اصدقائه وراسل سيف الدولة وأنكر الامير أنه امر بما وقع للشاعر . وكتب ابو الطيب الابيات :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا
فداه الورى أمضى السيوف مضاربا
ومالي اذا ما اشتقت ابصرت دونه
تنائف لا اشتاقها وسباسبا .. الخ .

ودخل الشاعر دار الامير بعد تسعة عشر يوماً فتلقاه الغلمان وادخلوه إلى خزانة الالبسة فخلع عليه وَطُيِّبَ ودخل على الامير فرحب به وسأله عن حاله وهو مستحي . فقال له رأيت الموت عندك احب من الحياة عند غيرك فقال بل يطيل الله بقاءك . ثم ركب ابو الطيب وركب معه جماعة كثيرة وأتبعه الامير هدايا فقال القصيدة :

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والابل

ب — والقصة الثانية رواها البديعي في الصبح المنبي. قال :

« قال عبد المحسن عليّ بن كوجك ان أباه حدثه ، قال

كنت بحضرة سيف الدولة وابو الطيب اللغوي وابو عبد الله بن خالويه النحوي وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع ابي الطيب اللغوي، والمتنبي ساكت . فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا ابا الطيب ؟ فتكلم فيها بما قوى حجة ابي الطيب اللغوي ، وضعّف قول ابن خالويه فأخرج من كمه مفتاحاً حديداً ليلكم به المتنبي فقال له المتنبي اسكت ويحك فانك أعجمي واصلك خوزي فمالك وللعربية ؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبي لذلك إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا. فكان ذلك احد اسباب فراقه»[1] .

وقد هدّد ابو الطيب بالفراق تصريحاً وتعريضاً . قال في القصيدة : « واحر قلباه » :

أرى النوى تقتضيني كل مرحلة   لا تستقلّ بها الوخّادة الرُسُم

لئن تركن ضُمَيراً عن ميامننا   ليحدثنّ لمن ودعتُهم ندم

اذا ترحلت عن قوم وقدقدروا   ألا تفارقهم فالراحلون هم

---

(١) ص ٤٥ ط دمشق .

شرّ البلاد بلاد لا أنيس بها   وشرّ ما يكسب الانسان مايصم

وقال في القصيدة « دروع لملك الروم هذي الرسائل » :

اخا الجود اعط الناس ما انت مالك   ولا تعطينّ الناس ما انا قائل

وبعد هذا البيت ابيات قدمتها في هذا الفصل :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر   ضعيف يقاويني قصير يطاول. الخ

وفي الصبح المنبي ان ابا الفتح بن جني قال : « كنت قرأت ديوان المتنبي عليه حتى وصلت الى قوله » :

أغالب فيك الشوق والشوق اغلب

واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

فلما انتهيت الى قوله :

الا الله ذي الدنيا مناخاً لراكب   فكل بعيد الهمّ فيها معذب الخ

قلت يعز عليّ ان يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة . فقال حذرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحذر . ألست القائل فيه :

اخا الجود أعط الناس ما انت مالك   ولا تعطينّ الناس ما انا قائل

فهو الذي اعطاني لكافور بسوء تدبيره، وقلة تمييزه . »[١]

وقد صرّح بعد فراق سيف الدولة بما كان في نفسه . قال في اول قصيدة مدح بها كافوراً :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى   وقد كان غدّاراً فكن انت وافيا
وأعلم أن البين يُشكيك بعده   فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموع العين غُدرٌ بربها   اذا كنّ إثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الاذى
فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

فهو يتهم بني حمدان بالغدر والاذى . ويقول في قصيدة اخرى يمدح كافوراً :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم   الى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته   ولا يمن على آثار موهوب
ولا يروع بمغدور به احداً   ولا يفزع موفوراً بمنكوب

وهذا تعريض بسيف الدولة يصفه بالمنّ والغدر ايضاً .

(١) ص ٥٣ .

وكذلك قال حينما سمع أنه نُعِيَ عند سيف الدولة :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللبن
وإن بليت بودّ مثل ودكم فانني بفراق مثله قمنُ

وأدل من هذا على ما كان في نفسه ما قاله في القصيدة التي ارسلها من العراق الى سيف الدولة جواباً لدعوته اياه الى حلب، بعد ان أهدى اليه سيف الدولة وأعتبه ، وبعد ان مدحه هو بقصيدتين . قال في القصيدة البائية :

فهمت الكتاب أبرّ الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب
وطوعاً له وابتهاجاً به وان قصّر الفعل عما يجب
وما عاقني غير قول الوشاة وان الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه وينصرني قلبه والحسب

وقال في آخر القصيدة :

وليتك تجزي ببغض وحب
فلو كنت تجزي به نلتُ منك اضعف حظ بأقوى سبب

ضاق ابو الطيب بالمُقام عند سيف الدولة لهذه الاسباب ، ولسبب آخر ينبغي الأ يغفل عنه الباحث. ذلك ان الشاعر الطموح الذي يقول :

ولكن قلباً بين جنبيّ ما له مدى ينتهي بي في مُراد احدّه

بلغ درجة عالية عند بني حمدان فسمت نفسه الى درجة أعلى منها ولم يكن فارق سريرته حب المجد والسلطان والتطلع الى الغلبة والتملك فذهب يلتمس مُنيته في اقطار الارض وأمل ان يجد في مصر وسيلة الى غايته . فعزم ان يرحل اليها .

وقد أنشد سيف الدولة قصيدته الاخيرة :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم

وهو على نية الرحيل . في شرح المعري . « قال ابن جنى قلت لابي الطيب وقت قراءتي هذه القصيدة عليه انه ليس في جميع شعرك اعلى كلاماً من هذه القصيدة فاعترف بذلك وقال كانت وداعاً » .

الفصل التاسع

من حلب الى الفسطاط

قال صاحب الايضاح : « فلما انتهت مدته عند سيف الدولة استأذنه في المسير الى اقطاعه فأذن له وامتد باسطاً عنانه الى دمشق :[1]

وفي شرح المعري : فأجمع رأيه على الرحيل من حلب فلم يجد بلداً يأوى اليه أولى من دمشق. لان حمص من عمل سيف الدولة.

وقال في الصبح المنبي : « ولما عزم ابو الطيب على الرحيل من حلب وذلك في سنة ست وأربعين وثلثمائة لم يجد بلداً اقرب اليه من دمشق لان حمص كانت من بلاد سيف الدولة » .

يتبين من هاتين الروايتين ان ابا الطيب لم يعلم سيف الدولة بعزمه على الرحيل ، بل أوهمه انه سائر الى اقطاعه بمعرة النعمان فعائد اليه ، وانه لم يستطع النزول بحمص اذ كانت في ولاية سيف الدولة . فهل يؤخذ من هذا ان الشاعر اوجس خيفة من الامير

---

(١) الخزانة ج ١ ص ٣٨٤.

ان يخبره برحيله ، وان سيف الدولة ما كان ليأذن له بالرحيل لو استأذنه . فأما الاذن فأكبر الظن ان الامير ما كان يرضى به . واما الخوف فالظاهر ان الشاعر قد احسّه وخاف ان ينتهز حساده الفرصة فيغروا الامير به . ومما يؤيد هذا قول ابي الطيب في قصيدة كافورية بعد التعريض بغدر سيف الدولة ومنّه في الابيات التي تقدمت في هذ الفصل :

وجدت انفع مال كنت اذخره ... مافي السوابق من جري وتقريب
لما رأين صروف الدهر تغدربي ... وفين لي ووفت صم الانابيب
فُتن المهالك حتى قال قائلها ... ماذا لقينا من الجرد السراحيب

فهذه المهالك التي فاتتها خيله هي ما خشيه من بني حمدان .

سار ابو الطيب من حلب الى دمشق فانتقل من مملكة سيف الدولة الى مملكة كافور الاخشيدي .

وفي شرح المعري انه كان بدمشق يهودي يعرف بابن ملك من قبل كافور الاخشيدي فالتمس من ابي الطيب ان يمدحه فثقل عليه فغضب وكتب الى كافور ان ابا الطيب في دمشق فكتب

كافور الى ابن ملك يطلب مسير الشاعر الى مصر فأجابه ان ابا الطيب قال : لم اقصد العبد . وان دخلت مصر فما قصدي الاّ ابن سيده .

وفقه هذه الرواية ان ابن ملك رأى ابا الطيب شاعر سيف الدولة ترك صاحبه مغاضباً وقدم الى مملكة الاخشيديين فكتب الى كافور ينبئه . ولا اصدّق ان ابن ملك كتب الى كافور ان ابا الطيب قال لم اقصد العبد الخ . فما كان الشاعر ليقول هذا وهو يعلم انه ليس في البلاد التي أمّها الا سلطان كافور ، وما كان ابن ملك ليجترئ على ان يفتري سب كافور على لسان ابي الطيب .

وأحسب الشاعر عزم على مصر وهو في حلب ، وتلبث بدمشق ريثما يبلغ كافوراً قدومه فيدعوه فيذهب الى مصر مطلوباً لا طالباً .

تقول الرواية بعد هذا :

« ونبت دمشق بأبي الطيب فسار منها الى الرملة فحمل

اليه اميرها الحسن بن عبيد الله بن طغج (وهو الذي مدحه المتنبي من قبل) هدايا ، وخلع عليه وحمله على فرس جواد بمركب ثقيل وقلده سيفاً محلى وسأله المدح فاعتذر اليه بالابيات الرائية . وهي ترك مدحيك كالهجاء لنفسي . وقد تقدم ذكرها قبل هذا » اه

وهذه الابيات الرائية مثبتة في ديوان ابي الطيب مع الشعر الذي مدح به ابن طغج سنة ٣٣٦ . والحق انه انشأها حين سار الى الرملة في طريقه الى مصر سنة ٣٤٦ . وهي :

ترك مدحيك كالهجاء لنفسي   وقليل لك المديح الكثير
غير اني تركت مقتضب الشعر   لأمر مثلي به معذور
وسجاياك مادحاتك لا لفظي   وجودٌ على كلامي يُغير
فسقى الله من أحبّ بكفيك   وأسقاك أيهذا الأمير

وفي الديوان ابيات أخرى قالها يودع ابن طغج حين عزم على المسير الى مصر وهي :

ماذا الوداع وداعَ الوامق الكمد   هذا الوداع وداع الروح للجسد
اذا السحاب زفته الريح مرتفعاً   فلا عدا الرملة البيضاء من بلد

ويا فراق الامير الرحب منزله إن انت فارقتنا يوماً فلا تعد

وأرى ان امتناع ابي الطيب عن مدح ابن طغج ، وهو أول من اغدق عليه العطاء وجذب بضبعه ، يدلنا على انه خرج من دمشق قاصداً كافوراً . فقد اشفق ان يمدح احداً قبل كافور فيغضبه ، ولولا هذا ما ضن بمدحه على ابن طغج وهو ابن عم انوجور ملك مصر إذ ذاك .

تستمر رواية شرح المعري في قصص رحلة ابي الطيب فتقول : « واتصل به ان كافوراً يقول أترونه يبلغ الرملة ولا يبلغ الينا؟ وأنه واجد عليه ، ثم كتب كافور من مصر الى أبي الطيب يستدعيه الى حضرته فلم يمكنه الا المسير اليه » .

تريد هذه الرواية ان تصور ابا الطيب كارهاً المسير الى كافور مضطراً اليه فلذلك قال الراوي ان كافوراً كتب اليه مرتين وانه « لم يمكنه الا المسير اليه » . ومرمى هذه الرواية وروايات اخرى تبرير ذهاب الشاعر الكبير الى كافور ومدحه بالقصائد الغراء ثم هجائه من بعد أقبح هجاء . وقد ادعى بعض الادباء ان مدح ابي

للطيب كافوراً كان هجاء في باطنه .

الفصل العاشر

كافور الاخشيدى

— ١ —

كان طفج بن جف الفرغاني والياً من ولاة الدولة العباسية . وقد سخط عليه الخليفة وهو والي الشام فسجنه حتى مات في السجن .

ثم تقرب ابنه محمد الى الخلفاء فولاه الخليفة المقتدر بالله دمشق سنة ٣١٨ ثم ضم اليه الخليفة الراضي بالله مصر سنة ٣٢٣ ثم لقبه الاخشيد . واستتب الامر في مصر له ولذريته الى ان دخلها الفاطميون سنة ٣٥٨ . واما الشام فقد تنازعها الاخشيد وابن رائق ثم سيف الدولة كما تقدم . واستمر سلطان الاخشيد على دمشق وما يليها الى مصر ، الى ان توفى بدمشق سنة ٣٣٤

— ٢ —

وكان للاخشيد مولى اسود اسمه كافور بن عبد الله . قال

صاحب النجوم الزاهرة نقلا عن الذهبي : « اشتراه سيده محمد الاخشيد بثمانية عشر ديناراً من بعض رؤساء مصر واعتقه ثم رقّاه حتى جعله من كبار القواد لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير » . صار كافور قائداً فقاد الجيوش لحرب ابن رائق ثم سيف الدولة في الشام . وقد ذكره ابو الطيب في القصيدة التي مدح بها مساور بن محمد :

أمساور أم قرن شمس هذا أم ليث غاب يقدم الاستاذا

ولما توفى الاخشيد اخذ كافور البيعة لابنه أنوجور وعاد به الى مصر . وروى صاحب النجوم الزاهرة انه لما مات الاخشيد اضطربت الديار المصرية فخرج كافور بابني الاخشيد الى الخليفة المطيع لله ليُقر انوجور على ملك ابيه .

وظن سيف الدولة ان موت الاخشيد ييسر له الاستيلاء على دمشق فاستولى عليها وتقدم الى الرملة . فسار اليه كافور فهزمه واخرجه من دمشق ومن حلب ثم اصطلحا على ان تكون حلب لسيف الدولة ودمشق لابن الاخشيد .

وصار الامر كله لكافور حتى ضاق انوجور باستبداده وأراد الخروج الى الرملة فاعلمت امه كافورا فمنعه الخروج .

ثم توفى انوجور سنة ٣٤٩ فاجتهد كافور ان يبقي الامر في بني الاخشيد فتوجه الى بغداد ونال من الخليفة المطيع تولية علي ابن الاخشيد مكان اخيه .

— ٣ —

ومات علي سنة ٣٥٥ وبقيت مصر اياماً بغير امير والامر في يد كافور حتى اتفق اعيان مصر على تأميره فنال السلطان الاسمي الى السلطان الفعلي حتى توفى سنة ٣٥٦ وعمره ٦٥ سنة بعد ان حكم مصر وقسما من الشام ٢٢ سنة . وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز وبعض الثغور الرومية . وحمل تابوته الى بيت المقدس فدفن به وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفرداً
بالصحصح المرت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد
كانت اسود الشرى تخشاك في الكتب

— ٤ —

كان كافور قويا شجاعا داهية حازما استطاع ان يرضي العباسيين والفاطميين معاً . كان يذعن بالطاعة لبني العباس ويهادي المعز ويتودد اليه .

وروى صاحب النجوم الزاهرة عن القفطي ان المعز « كان قد عزم على تجهيز عسكر الى مصر فسألته امه تأخير ذلك لتحج خفية فأجابها وحجت . فلما وصلت الى مصر احس بها كافور الاخشيدي الاستاذ فحضر اليها وخدمها وحمل اليها هدايا وبعث في خدمتها اجناداً . فلما رجعت من حجها منعت ولدها من غزو بلاده . فلما توفي كافور بعث المعز جيوشه فاخذوا مصر »

وان يكن تودد كافور الى المعز أخر سيره الى مصر فحزم كافور وقوته كان لهما نصيب في هذا التأخير . وكانت شيعة المعز في مصر يكتبون اليه «اذا زال الحجر الاسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها. » يريدون كافورا . فقد رأوه في قوته وحزمه حجرا في سبيل المعز الى مصر.

قال الذهبي « وكان كافور خبيراً بالسياسة فطنا ذكياً جيد العقل داهية »(١) وكثيرا ما مدح ابو الطيب كافورا بالشجاعة والحزم :

وما كنت ممن ادرك الملك بالمنى
ولكن بايام يشبن النواصيا

وكان له بصر بالعربية والادب . ومما يذكر هنا ما رواه ياقوت ان الفضل بن العباس دخل على كافور فقال ادام الله ايام سيدنا . فخفض الايام فتبسم كافور الى ابي اسحاق النجيرمي فقال ابو اسحاق :

لاغرو ان لحن الداعي لسيدنا   وغص من هيبة بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابته   بين البليغ وبين القول بالحصر
فان يكن خفض الايام عن دهش
من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلت في هذا لسيدنا   والفال نأثره عن سيد البشر

(١) النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٦ ، ١٠٦

بأن ايامه خفض بلا نَصب وان دولته صفو بلا كدر

قال فأمر له بثلاثمائة دينار ولابن عباس بمثلها[١]. ولما انشده ابو الطيب القصيدة التي ذكر فيها قتل شبيب الخارجي وقال فيها :

وقد قتل الاقران حتى قتلته بأضعف قرن في اذل مكان

ادرك كافور ان هذا تهوين من ظفره بعدوه فقال لا والله بل بأشد قرن في اعز مكان . ويروى ان ابا الطيب لما قال في قصيدة الحمى :

ولما صار ود الناس خِبا جزيت على ابتسام بابتسام

لم يبتسم له كافور كما عوّده من قبل .

وكانت تقرأ عنده كل ليلة السير واخبار الامويين والعباسيين وكذلك كان كافور محبا للعلماء والادباء ويقرب الشعراء ويجيزهم وممن كان في صحبته ابو اسحاق ابراهيم بن عبد الله النجيرمي النحوي صاحب الزجاج .

(١) معجم الادباء ج ١ ص ٢٧٨

وممن مدحه من الشعراء غير ابي الطيب ، الناشئ ، وكذلك مدح وزيره ابن الفرات .

وكان دينا متواضعا قال الذهبي « وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول اللهم لا تسلط عليّ مخلوقا (١) . وبعث الى ابي بكر الرملي المعروف بابن النابلسي مالا فرده وقال للرسول قل لكافور قال الله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين » فالاستعانة بالله وكفى . فرد كافور الرسول بالمال وقال قل له « له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى » فاين ذكر كافور هنا ؟ الملك والمال لله (٢)

وكان يرسل كل ليلة عيد وقر بغل دراهم في صرر باسماء من ارسلت اليهم من العلماء والزهاد والفقراء .

وكان كذلك سخيا كثير الهبات والخلع . قال ابو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي : ما رأيت اكرم من كافور

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ (٢) ص ١٠٦

كنت اسايره يوماً وهو في موكب خفيف يريد التنزه ، وبين يديه عدة جنائب بمراكب ذهب وفضة ، وخلفه بغال المراكب فسقطت مقرعته من يده ولم يرها ركابيته . فنزلت عن دابتي واخذتها عن الارض ودفعتها اليه . فقال ايها الشريف « اعوذ بالله من بلوغ الغاية . ما ظننت ان الزمان يبلغني حتى تفعل بي انت هذا » وكاد يبكي . فقلت انا صنيعة الاستاذ ووليه . فلما بلغ باب داره ودّعني . فلما سرت التفتّ فاذا الجنائب والبغال كلها خلفي . فقلت ما هذا ؟ قالوا امر الاستاذ ان يحمل مركبه كله اليك . فادخلته داري . وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر الف دينار [١]

ذلك كافور كما يعرفه التاريخ لا كما تصوره اهاجي ابي الطيب وروايات شائعة في كتب الادب . وفي نسخة المعري رواية طويلة عن نشأة كافور وترقيه الى المنزلة التي بلغها يظهر فيها كلف الراوي بالمباعدة بين نشأة كافور ونهايته فهو يصور رهفدما

(١) ص ٤

غبيا يصفع في الاسواق ثم يوكل اليه اخس الاعمال في دار الاخشيد وذلك . ليعجب القارئ والسامع كيف صار مثل هذا الرجل ولي الامر في مملكة كبيرة . وهذا دأب القصاص واشباههم من المؤلفين

ولعل القارئ عرف مما قدمت عن كافور ان ابا الطيب حين قدم مصر قدم على رجل ذكي فطن حازم مجرب له بصر بالادب فعلى هذا فليتفهم القارئ ما كان بين الرجلين من بعد

— ٤ —

كانت وزارة مصر في عهد كافور لجعفر بن الفضل المعروف بابن الفرات وبابن حنزابه وهو من اسرة وزراء. وزر أبوه الفضل بن جعفر للمقتدر بالله العباسي. وكان جده جعفر يتولى ديوان الخراج لأخيه ابي الحسن على بن الفرات وزير المقتدر ايضاً ، وولى هو الوزارة لأنوجور بن الاخشيد فبقي وزيراً الى ان زالت دولة الاخشيديين ، ولما دخل المعز مصر سأله ان يلي الوزارة

فامتنع . ووزر بعض بنيه للحاكم بامر الله فقتله بعد خمسة ايام من وزارته .

وكان جعفر بن الفرات محدثاً . سمع الحديث من رجاله وحدث بمصر، واستقدم الدارقطني من بغداد فخرج له المسند . روى ياقوت في معجم الادباء انه « كان كثير الحديث جم السماع ، مكرماً لاهل العلم ، مطعما لاهل الحديث » .

وقال ابن منده عنه : « وهو أحد الحفاظ حسن العقل كثير السماع مائل لاهل العلم والفضل » .

وكان كثير العناية بعمله . كتب الى السيرافي يسأله عن ثلثمائة كلمة من فنون الحديث . وكان سمع من البغوي مجلساً وضاع منه فكان يقول : من جاءني به أغنيته . وكان يصنع له الورق الجيد في سمرقند ويحمل اليه .

وقد لزمه جماعة من العلماء منهم الحسين بن علي الآمدي النحوي ، وجماعة من المحدثين منهم الامام الدار قطني .

ومدحه من الشعراء الناشئ ، وكشاجم، وصالح بن مؤنس المصري . (١)

ذكرت هذه الكلمة عن ابن الفرات ليعلم القارئ انه كان بمصر حين قصدها ابو الطيب وزير عظيم ، ثم يتعرف موقف شاعرنا من هذا الوزير ، واثر هذا في حرمانه . وسيأتي .

الفصل الحادي عشر

ابو الطيب فى مصر

— ١ —

في نسخة شرح المعري: « فلما قدم عليه أبو الطيب اخلى له دارا ووكل به ، واظهر التهمه له وطالبه بمدحه وخلع عليه ، (واعطاه) آلافا من الدراهم فقال يمدحه في جمادي الثانية سنة ست واربعين وثلاثمائة الخ

وفي الصبح المنبي : « فطالبه بمدحه فلم يمدحه فخلع عليه فقال ابو الطيب الخ »

---

(١) تنظر ترجمته في معجم الادباء جزء ٢ .

ولست ادري لماذا يُظهِر كافور التهمة لأبي الطيب ويوكل به بعد ان كتب اليه يدعوه واحتفى به فأخلى داراً لنزوله. ليس في الامر ما يدعو إلى هذا ولكن الراوي كما قدّمتُ يريد ان يمثل لنا ابا الطيب مكرهاً على قصد كافور سجيناً في يده ليجعله مضطراً الى مدحه. والناقد الخبير لا يعبأ بهذه الزيوف. ومدائح ابي الطيب الأولى تبين عن نفس مغتبطة آملة عظيمة الرجاء.

— ٢ —

أقام ابو الطيب بمصر اربع سنين وستة اشهر، من جمادي الثانية سنة ست واربعين الى تاسع ذي الحجة سنة خمسين وثلثمائة.

ومدح كافوراً حين قدم عليه، وختم مدائحه بقصيدة انشده اياها في شوال سنة تسع واربعين وثلثمائة. وبقي بعد ذلك سنة وشهرين لم ينشد كافوراً شيئاً من شعره. وبين القصيدتين الاولى والآخرة ثلاث سنين واربعة اشهر مدح فيها ابو الطيب كافوراً بتسع قصائد وقطعتين فيها كلها ثلاثة وسبعون وثلثمائة بيت. وذلكم ربع ما مدح به سيف الدولة.

— ٣ —

ننظر الآن كيف بدأت صلة الشاعر والاستاذ ، وكيف وهنت حتى انقطعت. وماذا امّله ابو الطيب ولماذا حرمه ابو المسك ما امّل :

أ — ابان ابو الطيب في القصيدة الاولى عن حزنه واضطراب قلبه بين صديقه الذي غدر به (يعني سيف الدولة) وبين كافور الذي رجاعنده بلوغ غايته ، وأعرب عن عظم امله في اميره الثاني وبالغ في مدحه ، وليس في القصيدة ما يبين او ينم عن ان ابا الطيب قصد كافوراً كارهاً ومدحه مرغماً كما يدعي راوي القصة التي نقلنا بعضها من شرح المعري . بل رضي بالوقوف بين يديه وقيل له مرة : قد طال وقوفك في مجلسه فقال :

يقل له الوقوف على الرءوس . . الخ .

يقول ابو الطيب في اول قصيدته :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا   وحسب المنايا ان يكنّ امانيا

تمنيتها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا او عدواً مُداجيا
اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة فلا تستعدنّ الحسام اليمانيا
ولا تستطيلنّ الرماح لغارة ولا تستجيدنّ العتاق المذاكيا
فما ينفع الاسد الحياء من الطوى ولا تُتقى حتى تكون ضواريا

وفي هذا اشارة الى سيف الدولة، وتحامله عليه، واضطراره الى مفارقته. وقد بلغ به الحزن في هذا أن جعل مطلع قصيدته هذه الابيات التي يتطير منها السامع. وبعد هذه الابيات:

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غداراً فكن انت وافيا
واعلم ان البين يُشكيك بعده فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموع العين غُدرٌ بربها إذا كنّ إثر الغادرين جواريا

فتراه يطالب قلبه بأن يفي له هو ويترك سيف الدولة فإنه احب قلبه قبل ان يحب القلبُ هذا الامير. وفي هذا اعراب عن توزع قلبه بين اصدقائه القدماء وبين انصرافه لنفسه بمفارقتهم ومدح غيرهم. ويبرر ما فعله بقوله:

اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الاذى فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

وللنفس اخلاق تدل على الفتى أكان سخاء ما اتى ام تساخيا

ثم يرجع الى قلبه فيقول :

أقلّ اشتياقاً ايها القلب ربما رأيتك تُصفي الود من ليس صافيا

ثم يثني فيذكر ما في نفسه من إلف بني حمدان، ويتخلص الى مدح كافور فيقول :

خلقت الوفاً لو رجعت الى الصبى
لفارقت شيبي موجَع القلب باكيا
ولكنّ بالفسطاط بحراً أزرته
فؤادي ونصحي والهوى والقوافيا

ثم يصف سيره وخيله الى ان يقول :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

ثم يقول في اثناء المدح معرباً عن رجائه وامله :

اذا كسب الناس المعالي بالندى فانك تعطي في نداك المعاليا
وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع مَلكاً للعراقين واليا

فقد تهب الجيش الذي جاء غازيا   لسائلك الفرد الذي جاء عافيا
وتحتقر الدنيا احتقار مجرب   يرى كل ما فيها، وحاشاك، فانيا

وفي اواخر الشهر التالي (لثلاث بقين من رجب ، عشية يوم الاثنين) أنشد ابو الطيب قصيدة يهنئ بها كافوراً بدار جديدة بناها [1] اولها :

انما التهنئات للاكفاء   ولمن يدّني من البُعداء
وانا منك لا يهنئ عضو   بالمسرّات سائر الاعضاء

قال الواحدي : « وهذا طريق المتنبي يدعى لنفسه المساهمة والكفاءة مع الممدوحين في كثير من المواضع . وليس ذلك للشاعر فلا ادري لم احتُمل منه . وقال العكبري :

« وهذه عادة ابي الطيب يدعى المساهمة والكفاءة لنفسه ويشركها مع الممدوحين في كثير من المواضع . وليس ذلك للشاعر وانما كان هو يعمله ادلالاً عليهم » . وجوابنا للواحدي والعكبري ان ابا الطيب قد وضع نفسه فوق الشعراء ، وتعود ذلك منه

(١) عند الجامع في القطائع (نسخة سنة ١٥٣٠)

الممدوحون والمرء حيث يضع نفسه . ولكل امرئ من دهره ماتعودا . ويقول في آخر هذه القصيدة :

يارجاء العيون في كل ارض ... لم يكن غير ان اراك رجائي
ولقد أفنت المفاوز خيلي ... قبل أن نلتقي وزادي ومائي
فارم بي ما اردت مني فاني ... أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وان كان ... لساني يرى من الشعراء

فهو يدعوه الى ان يكل اليه بعض الاعمال ولكن في صورة تخيف كافورا وتعلمه انه امام ملك لا شاعر .

وفي شرح المعري بعد هذه القصيدة : ولما انشده ابو الطيب حلف ليبلغه جميع ما في نفسه . وانه لا كذب ما يكون اذا حلف ب — ويمضي شهران وها هو ابو الطيب ينشد الاستاذ أبا المسك يوم عيد الفطر قصيدة اولها :

من الجآذر في زي الاعاريب ... حمر الحلى والمطايا والجلابيب

وفي هـذه القصيدة يعرض بسيف الدولة في قوله يمدح كافورا :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم
الى غيوث يديه والشآبيب
الى الذي تهب الدولات راحتهُ ولا يمن على آثار موهوب
ولا يروع بمغدور به أحدا ولا يفزّع موفورا بمنكوب

ثم يفخر فيقول بعد ذكر الخيل :

تهوى بمنجرد ليست مذاهبه للبس ثوب وما كول ومشروب
يرى النجوم بعيني من يحاولها كانها سلَب في عين مسلوب

وهذا فخر جدير بأن يفزع كافوراً .

ونجد ريح الشكوى في آخر هذه القصيدة حيث يقول:

يا ايها الملك الغاني بتسمية
في الشرق والغرب عن وصف وتلقيب
انت الحبيب ولكني اعوذ به من ان اكون محبا غير محبوب

ذلكم ولما يمض على ابي الطيب عند كافور الا اربعة اشهر وفي عيد الاضحى من السنة انشده القصيدة الرابعة :

أودّ من الايام ما لا توده واشكو اليها بيننا وهي جنده

وهو مطابق ناطق بالشكوى والتحسر .

ويقول في القصيدة :

وأتعب خلق الله من زاد همه ... وقصر عما تشتهي النفس وجده

فلا ينحلل في المجد مالك كله ... فينحلّ مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذي المجد كفه ... اذا حارب الاعداء والمال زنده

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وفي هذا ابانة عما يعتلج في فؤاد الشاعر من الاسى وقد طمح الى مجد قصر عنه ماله فطوف في الافاق يبغي ما يبني به مجده . ويقول ابو الطيب بعد هذا ، ومثل هذا الكلام يروع الممدوح ولا يستعطفه :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكنّ قلبا بين جنبيّ ماله ... مدى ينتهي بي في مراد احدّه

يرى جسمه يُكسى شفوفاً تربّه

فيختار ان يُكسى دروعاً تهدّه . الخ

ثم يقول عن كافور :

أنا اليوم من غلمانه في عشيرة   لنا والد منه يفدّيه ولده
فمن ماله مال الكبير ونفسه   ومن ماله در الصغير ومهده
نجرّ القنا الخطّيّ حول قبابه   وتردى بنا قبّ الرباط وجرده
ونمتحن النشّاب في كل وابل   دويّ القسيّ الفارسية رعده
فان لا تكن مصر الشرى او عرينه
فان الذي فيها من الناس أسده

ويقول العكبري في شرح البيت الاول : « يريد انه وهب له غلماناً وانه منهم في عشيرة لأنه اذا ركب ركبوا معه واطافوا به فكأنهم عشائره واقاربه » .

ولست ارى في الابيات إبانة عن هبة وهبها كافور ولكن ابا الطيب يخبر عن نزوله بين جنود كافور ومشاركتهم في رمي النشاب . فالابيات تصف جنداً لا خدماً وليس فيها ولا بعدها شكر الشاعر على هبة . .

وفي القصيدة يكرر ابو الطيب سؤال كافور ان يصطنعه

ويجربه، ويستنجز وعده فلا ريب ان كافوراً قد وعده بولاية :

فان نلت ما أمّلت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده
ووعدك فعل قبل وعد لأنه نظير فعال الصادق القول وعده
فكن في اصطناعي محسناً كمجرب يبن لك تقريب الجواد وشدّه
اذا كنت في شك من السيف فابله فأما تنفّيه وأما تعدّه
وما الصارم الهنديّ الا كغيره اذا لم يفارقه النجاد وغمده
وانك للمشكور في كل حالة ولو لم يكن الا البشاشة رفدُه
فكل نوال كان او هو كائن فلحظة طرف منك عندي نِدّه
واني لفي بحر من الخير اصله عطاياك ارجو مدّها وهي مدّه
وما رغبتي في عسجد استفيده ولكنها في مفخر استجدّه
يجود به من يفضح الجود جودُه ويحمد من يفضح الحمدَ حمدُه
فانك ما مرّ النحوس بكوكب وقابلته الاّ ووجهك سعده

ج — والقصيدة الخامسة أنشدها ابو الطيب يوم الاحد رابع عشر ربيع الثاني سنة سبع واربعين وثلثمائة اي بعد ثلاثة اشهر من القصيدة السابقة . وكان فرس ابي الطيب جرح فحزن

عليه فتبين كافور الحزن في وجهه فأرسل خلفه من يسأله فلما عرف هذا بعث اليه فرساً ادهم[١] . وفي هذه القصيدة يمدح سيف الدولة. بعد أن فضل كافوراً عليه فيما تقدم ويذكر ان الحمدانيين بكوا لفراقه رجالا ونساء. ويُلقي التبعة على سيف الدولة، واول القصيد

فراق ومن فارقتُ غير مذمم　　وأَمٌّ ومن يممت خير ميمم
وما منزل اللذات عندي بمنزل　　اذا لم أُبَجَّلْ عنده وأُكرَّم
سجية نفس ما تزال مليحة　　من الضيم مرمياً بها كل مخرم
رحلت فكم باك بأجفان شادن　　عليّ وكم باك بأجفان ضيغم
وما ربة القرط المليح مكانه　　بأجزع من رب الحسام المصمم
فلو كان ما بي من حبيب مقنع　　عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى
هوىً كاسر كفي وقوسي وأسهمي. الخ

ويقول في آخر القصيدة يتنجز وعده، ويستبطئه :

ولو كنت ادري كم حياتي قسمتها　　وصيّرت ثلثيها انتظارك فاعلم

(١) في نسخة المصري ان ابا الطيب نظر الى كافور فثار الدم في وجهه وخرج. فأرسل وراءه من يسأله فقال : جرح فرسي الخ .

ولكنّ ما يمضي من الدهر فائت   فجد لي بحظ البادر المتغنم
رضيت بما ترضى به لي محبة   وقدتُ اليك النفس قود المسلّم
ومثلك من كان الوسيط فؤاده   فكلمه عني ولم اتكلم

د — ووقع خلاف بين انوجور وكافور لان جماعة من الجند اتصلوا بالامير فأنكر كافور هذا وطالبه بتسليمهم فوقعت بينهما وحشة اياما ثم سلمهم اليه فقتلهم[1] واصطلحا وطولب ابو الطيب بذكر الصلح فقال قصيدة هي من خير ما يقال في ثمرات الوفاق وعواقب الشقاق ، ومدح فيها كافوراً ، وانشدها في شعبان سنة ٣٤٧ بعد شهرين من القصيدة السابقة .

هـ — مضت على ابي الطيب سنة وشهران ولم يبلغ من كافور مُنيته ، فلما جاء عيد الفطر سنة سبع واربعين وثلثمائة أنشده القصيدة التي اولها :

أغالبُ فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

---

(١) نسخة المصري

وفي شرح المعري : « كان كافور تقدم الى اصحاب الاخبار يرجفون بانه ولاّه موضعا من الصعيد . وينفذ اليه قوما يعرفونه ذلك . فلما كثر هذا وعلم ان ابا الطيب لا يثق بكلام يسمعه حمل اليه ستمائة دينار ذهب . فقال هذه القصيدة

ومهما يكن فقد اظهر ابو الطيب ندمه على ترك سيف الدولة الى كافور . وهذه جرأة على الممدوحين لا يعرفها الشعراء . يقول في اول القصيدة :

أما تغلط الأيام فيّ بأن ارى　　بغيضا تنائي او حبيبا تقرب
ولله سيري ما أقل تئيّة　　عشية شرقيّ الحدالى وغرب (١)
عشية أحفى الناس بي من جفوته　　واهدى الطريقين التي اتجنّب

ويقول بعد ابيات -

لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب　　فكل بعيد الهم فيها معذّب
ألا ليت شعري هل اقول قصيدة　　فلا اشتكي فيها ولا أتعتّب

---

(١) الحدالى وغرب جبلان في الشام كانا شرقيه وهو ذاهب الى مصر . وهذا كما قال في الميمية :

لئن تركن ضميراً عن ميامننا　　ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وبي ما يذود الشعر عني اقله ولكن قلبي يا ابنة القوم قُلّب

ويقول:

ابا المسك هل في الكاس فضل اناله فاني اغنى منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفي زماننا ونفسي على مقدار كفيك تطلب
اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه حذائي وابكى من احب واندب
أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مُغرب

و — ويصمت ابو الطيب بعد هذه القصيدة ثمانية اشهر لا يمدح كافورا .

وما كان قبل يسكت عن مدحه اكثر من شهرين او ثلاثة. وهذا يدل على ان سخط ابي الطيب، ونقمته على ابي المسك قد اشتدا لا سيما اذا عرفنا ان عيد الاضحى سنة ٣٤٧ مر في هذه الاشهر فلم ينشده شيئاً خلافاً لما عوّده . وفي هذه الاشهر الثمانية نظم الشاعر قصيدتين . نظم الاولى حين بلغه ان جماعة نعوه في مجلس سيف الدولة . وقد اعرب فيها عن حزنه ، وسخطه على

زمانه ، وعتبه على الحمدانيين ، وانه على ظن ان يفارق كافورا كما فارقهم . واول القصيدة :

بم التعلل ؟ لا اهــل ولا وطن ... ولا نديم ولا كاس ولا سكنُ
اريد من زمني ذا ان يبلّغني ... ما ليس يبلغــه في نفسه الزمن

ويقول فيها لسيف الدولة :

يا من نُعيت على بعــد بمجلسه ... كل بما زعم النــاعون مرتهن
كم قد قُتلت وكم قد متّ عندكم ... ثم انتفضت فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفني قبل قولهم ... جمــاعة ثم ماتوا قبل من دفنوا

ويصف بني حمدان بانهم لا يرعون الجوار وينغصون رفدهم بالمن ثم يقول :

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ... ثم استمر مريري وارعوى الوسن
وان بليت بود مثل ودكم ... فانني بفراق مثله قمن

قال ابن جني حكى ان سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال سار وحق ابي.

ولم ينشد كافورا هذه القصيدة ولــكن ختمها بأبيــات في

مدحه واستنجازه الوعد علماً بأنها ستبلغه . ويختم القصيدة بقوله:

أبلي الاجلّة مهري عند غيركم   وبُدّل العذر بالفسطاط والرسن

عند الهمام ابي المسك الذي غرقت   في جوده مضر الحمراء واليمن

وان تأخر عني بعض موعده   فما تأخر آمالي ولا تهن

هو الوفيّ ولكني ذكرت له   مودة فهو يبلوها ويمتحن

والقصيدة الثانية التي نظمها في هـذه الفترة قصيدة يتبين فيها تفكيره في الناس والدنيا ، ويقول فيها ان مصائب الزمان كثيرة ، ولكن الناس لا يكتفون بها فيخلقون لانفسهم مصائب بالقتال والنزال ، ومطالب النفوس اصغر من ان يتقاتل النـاس عليها وهذه القصيدة من خير ما قال في الحكم :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من امره ما عنانا. الخ

ز — ثم تكون وقعة تضطر ابا الطيب الى ان ينشد كافورا من شعره . ذلكم ان كافورا كان قد اصطنع شبيباً العقيلي الخارجي ، وولاه عمان والبلقاء وما يليها . فعظم امره ، وخرج على كافور. وسار الى دمشق في جيش كثيف ودخل المدينة.

وفي اثناء الهرج والمرج الفي شبيب ميتا فارتاع اصحابه وهزموا وتفرقوا . واختلفت الروايات في موته : قيل القت عليه امرأة حجراً ، وقيل سقطت رجل فرسه في قناة فسقط عنها وقيل شرب سويقا مسموما ، وقيل اعتراه صرع كان يعتريه .

وجاءت الاخبار مصر يوم الجمعة ثاني جمادي الثانية سنة ثمان واربعين وثلاثمائة ، وطالب كافور ابا الطيب بان يذكر هذا في شعره فقال القصيدة التي اولها

عدوك مذموم بكل لسان   وان كان من اعدائك القمران

وهي قصيدة يلقي بها الشاعر ممدوحه بعد ترك مدحه ثمانية اشهر ، وكأنه اراد ان يهجوه ويغيظه بها لا ان يمدحه . فاول القصيدة

عدوك مذموم بكل لسان   وان كان من اعدائك القمران

ولله سر في علاك وانما   كلام العدى ضرب من الهذيان

ثم لم يستطع ان يكتم اعجابه بشبيب . وابو الطيب تعجبه الشجاعة والبطولة حيثما تجليا . وكانه يرثي شبيبا لا يهنئ كافورا

بقتله— يقول:

فان يك انساناً مضى لسبيله　　فان المنـايا غاية الحيوان
وما كان الا النار في كل موضع　　تثير غبارا في مكان دخان
فنال حياة يشتهيها عدوه　　وموتا يشهي الموت كل جبان
نفى وقع اطراف الرماح برمحه　　ولم يخش وقع النجـم والدبران
ولم يدر ان الموت فوق شواته　　معـار جناح محسن الطيران
وقد قتـل الاقران حتى قتلته　　بأضعف قرن في اذل مـكان
اتته المنـايا في طريق خفية　　على كل سمع حوله وعيـان
ولو سلكت طرق السلاح لردها　　بطول يمين واتساع جنان
تقصّده المقـدار بين صحابه　　على ثقـة من دهره وامان
وهل ينفع الجيش الكثير التفافه　　على غير منصور وغير معان

ألا يريد ابو الطيب ان يقول لكافور انك لم تغلب شبيبا وما كنت لتقدر عليه في الحرب ؟

وكأنه بعد هذه الابيات يريد ان ينال ثقة كافور ليركن اليه وينيله ما ابتغى فهو ينعي الوفاء ويقول ان العاقل لا يكفر النعمة

وان كفران شيب اودى به، ويختم الكلام بقوله :

وعند من اليوم الوفاء لصاحب ؟ شبيت واوفى من ترى اخوان

واني ينفع ابا الطيب كلامه في كفر النعمة والوفاء بعد ان اسمع ممدوحه شعراً يهوّن فيه انتصاره على عدوه ويشيد بذكر هذا العدو . ولم يكن ابو المسك غبيا عن فهم دقائق الشعر . وقد روى ابن جني في شرح هذه القصيدة قال حكى ابراهيم بن محمد العلوي انه كان بحضرة كافور وابو الطيب ينشده هـذه القصيدة فلما قال « بأضعف قرن في اذل مكان » قال كافور وهو يتكلم بكلام الخدم : لا والله بل بأشد قرن في اعز مكان . فروى الناس بأضعف قرن وجعلوا مكان اذل اعز »

ح — وبعد هذه القصيدة التي اضطرته اليها الحادثات والتي هي اقرب الى الهجاء من المدح انقطع شاعرنا عن مدح الاستاذ الاخشيدي ستة عشر شهرا .

وفي هـذه الفترة اصابته حمى فقال قصيدة باكية شاكية يصف فيها حاله في مصر ويعرّض ببخل كافور ومنعه اياه السفر

ويتمنى الرحيل . وكتبها يوم الاثنين لاربع خلون من ذى الحجة سنة ثمان واربعين وثلاثمائة . ويقول في اول القصيدة :

ملومكما يجل عن الملام　　ووقع فعاله فوق الكلام
ذراني والفلاة بلا دليل　　ووجهي والهجر بلا لثام
فاني استريح بذي وهذا　　وأتعب بالاناخة والمقام
عيون رواحلي ان حرت عيني　　وكل بغام راحله بغامي
فقد ارد المياه بغير هاد　　سوى عدى لها برق الغمام
يُذم لمهجتي ربي وسيفي　　اذا احتاج الوحيد الى الذمام
ولا امسي لاهل البخل ضيفاً　　وليس قرى سوى مخ النعام
ولما صار ود الناس خبا　　جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت اشك فيمن اصطفيه　　لعلمي انه بعض الانام

الى ان يقول :

اقمت بأرض مصر فلا ورائي　　تخب بي الركاب ولا امامي
وملني الفراش وكان جنبي　　يمل لقاءه في كل عام
قليل عائدي سقم فؤادي　　كثير حاسدي صعب مرامي

عليل الجسم ممتنع القيام　　شديد السكر من غير المدام

ويصف الحمى ونوباتها ثم يقول :

أبنت الدهر عندي كل بنت　　فكيف وصلت انت من الزحام
جرحت مجرحا لم يبق فيه　　مكان للسيوف ولا السهام

ويذكر شوقه الى السفر ثم يقول :

يقول لي الطبيب اكلت شيئاً　　وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه اني جواد　　اضر بجسمه طول الجمام
تعود ان يغبر في السرايا　　ويدخل من قتام في قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى　　ولا هو في العليق ولا اللجام

وقد قال ابن جنى، ومثله في شرح المعري ؛ ان اهل مصر شغفوا بهذه القصيدة وبلغت كافورا فساءته

ابو شجاع فاتك :

وفي هذه الفترة ايضا كان اتصال ابي الطيب بابي شجاع فاتك الملقب بالمجنون

وكان فاتك رومياً أسر وربي في فلسطين ثم اخذه الاخشيد من سيده في الرملة كرهاً بلا ثمن فاعتقه صاحبه .

قال في شرح المعري : « فكان معه حراً في عـدة المماليك كريم النفس حر الطبع بعيد الهمة .

وكان في ايام كافور مقيما بالفيوم من اعمال مصر . وهو بلد كثير الامراض لا يصح به جسم. وانما اقام به انفة من الاسود وحياء من الناس ان يركب معه. وكان الاسود يخافه ويكرمه فزعا وفي نفسه ما في نفسه. فاستحكمت العلة في بدن فاتك، واحوجته الى دخول مصر فدخلها . ولم يمكن ابا الطيب ان يعوده وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام ، ثم التقيا في الصحراء فحمل الى منزله للوقت هدية قيمتها ألف دينار ذهب ، ثم اتبعها هدايا بعدها» .

وقال صاحب الايضاح : وصل اليه من انواع صلاته واصناف جوائزه ما تبلغ قيمة عشرين الف دينار .

ويزيد ابن خلـكان على هذا ان الفيوم كان اقطـاعاً لفاتك ، وان ابا الطيب كان يسمع بكرم فاتك وشجاعته ولا يستطيع ان يقصده خيفة كافور وان ابا الطيب استأذن كافوراً في مدح فاتك فأذن له [1]

---

(١) وكذلك في نسخة ١٠٣٠

وفي النسخة (١٥٣٠) ان هذا كان بعد استقرار الحال بين فاتك والاستاذ .

ولا ريب ان شاعرنا ما اتصل بفاتك واستأذن كافوراً في مدحه ، وهو يعلم ما بينهما من المنافسة ، الا بعد أن يئس من كافور او كاد . أنشد الشاعر مدح فاتك في تاسع جمادي الثانية سنة ٣٤٨. وفي هذه القصيدة ابيات تعدّ تعريضاً بكافور. فأولها:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

واجز الامير الذي نعماه فاجئة بغير قول ، ونعمى الناس أقوال

أليس هذا تعريضاً بكافور الذي وعده فلم يفِ له . وفيها يقـول :

كفاتك ودخول الكاف منقصة كالشمس قلت. وما للشمس امثال

يريك مخبره أضعاف منظره بين الرجال وفيها الماء والآل

تملّك الحمـد حتى ما لمفتخـر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال

ط — وفي شوال سنة ٣٤٩ أنشد أبو الطيب كافوراً آخر مدائحه ، بعد ان انقطع عن انشاده ستة عشر شهراً كما اسلفتُ

وبعد أن مدح فاتكا ، وبعد ان انشأ قصيدة الحمى التي ساءت كافوراً . فلماذا عاد الى مدحه وماذا قال ؟

أما عوده الى المدح فاجابة لطلب كافور . في نسخة المعري : « وكان كافور يتطلع الى مدحه ويقتضيه ، ولم يكن له بدّ من مداراته » .

وأحسب تطلع كافور الى مدح أبي الطيب أحيا في نفسه حشاشة الامل فعاد يرمي آخر سهم غير يائس ان يصيب .

بدأ الشاعر بذكر شيبه ، وانه يحمده ولا يذمه ، ثم قال فاخراً بنفسه غير مطامن منها ولا غافل عنها ساعةً يتوسل فيها بكافور الى مطالبه :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أن ما في الرأس منه حراب
لها ظفر إن كل ظفر أُعده وناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر مني الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب
واني لنجم تهتدي صحبتي به إذ حال من دون النجوم سحاب
غني عن الاوطان لا يستخفني الى بلد سافرت عنه اياب

وعن ذملان العيس إن سامحت به وإلا ففي أكوارهن عقاب. الخ

تحدث عن نفسه في ثمانية عشر بيتاً ثم مدح كافوراً بتسعة.

ثم طالب كافوراً بانجاز ما وعد :

لنا عند هذا الدهر حق يلطه وقد قل إعتاب وطال عتاب
وقد تحدث الايام عندك شيمة وتنعمر الاوقات وهي يباب
ولا ملك إلا أنت والملك فضلة كأنك سيف فيه وهو قراب
أرى لي بقربي منك عيناً قريرة وان كان قرباً بالبعاد يشاب
وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي املت منك حجاب
اقل سلامي حب ما خف عنكم واسكت كيما لا يكون جواب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب
وما انا بالباغي على الحب رشوة ضعيف هوى يبغي عليه ثواب
وما شئت الا ان أدل عواذلي على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قوماً خالفوني فشرقوا وغربت اني قد ظفرت وخابوا

ويمدحه بثلاثة ابيات ثم يختم القصيدة بقوله :

اذا نلت منك الود فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب

وماكنت لولا انت الا مهاجراً　　له كل يوم بلدة وصحاب
ولكنك الدنيا اليّ حبيبة　　فما عنك لي الا اليك ذهاب

بقي ابو الطيب بمصر بعد هذه القصيدة اربعة عشر شهراً لا يمدح كافوراً . وتتفق نسخ الديوان والشروح على أنه ما كان يلقاه الا أن يركب فيسير معه في الطريق لئلا يوحشه .

وكان ابو الطيب ضيف كافور مدة مُقامه في مصر . وكانت هذه الضيافة صلة بينهما بعد انقطاع الشاعر عن مدحه وغشيان حضرته . ودليلنا على هذه الضيافة ما نقلنا اولا من أن كافوراً أخلى للشاعر داراً، ومانجده في هجاء كافور بعدُ كقول ابي الطيب:

اني نزلت بكذابين ضيفهم　　عن القرى وعن الترحال محدود

جوعان يأكل من زادي ويمسكني
لكي يقال عظيم القدر مقصور

لو كان ذا الآكل ازوادنا　　ضيفاً لأوسعناه احسانا
لكننا في العين اضيافه　　يوسعنا زوراً وبهتانا

لو كانت منية ابي الطيب ان ينال مالا من كافور لبلغ منيته فقد اعطاه كافور كثيراً، وكان حرياً ان يزيده لو جعل المال وحده طلبته . ولكن ابا الطيب طمع في ضيعة او ولاية :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
فاني اغنّي منذ حين وتشرب

وهبت على مقدار كفي زماننا ونفس على مقدار كفيك تطلب

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

قال هذا في قصيدة أنشأها بعد ان ارسل اليه كافور ستمائة دينار ذهب كما تقدم. ومن قبل قال بعد قدومه مصر بشهر واحد:

فارم بي ما أردت مني فاني اسد القلب آدميّ الرواء

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يرى من الشعراء

ثم قال بعد ان وعده الولاية :

فكن في اصطناعي محسناً كمجرّب
يبن لك تقريب الجواد وشدّه

اذا كنت في شك من السيف فابله فأما تنفيّه وأما تُعدّه

وما الصارم الهندي الا كغيره   اذا لم يفارقه النجاد وغمده

وقال في القصيدة نفسها :

وما رغبتي في عسجد استفيده   ولكنها في مفخر استجده

وقال في القصيدة النونية التي لم ينشدها امام كافور ، وقد أشرف على اليأس :

هو الوفي ولكني ذكرت له   مودة فهو يبلوها ويتحن

طلب ابو الطيب ولاية او ضيعة وألح في الطلب ، ووعده كافور وذاع بين الناس حيناً انه ولاه كما تقدم . فلماذا أخلف كافور وعده ، وخيب أمل صاحبه ؟.

قال في الصبح المنبي : وسأل ابو الطيب كافوراً ان يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد فقال له كافور أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك الى النبوة فان اصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك » .

ولست أصدق ان كافوراً قال للشاعر هذا ولكن كان في نفسه هذا المعنى . ولم يقصر ابو الطيب في فخره ، وذكر همته

وآماله البعيدة مما يراه القارئ بينا فيما قدمت من شعره .

وسبب آخر يذكره مؤرخو أبي الطيب هو ذكر سواده في الصبح المنبي ، قال الوحيدي « كان المتنبي يعلم ان ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت فاذا ذكر لون السواد بعد ذلك فقد أساء الى نفسه وعرضها للقتل والحرمان . وكان من احسان الصنعة واجمال الطلب ألاّ يذكر لونه . وله عنه مندوحة . الخ » .

ولست اشارك في هذا الرأي فقد ذكر أبو الطيب سواد كافور في القصيدة الاولى ثم ذكره من بعد ولم يكن ابو الطيب غبياً فلو أحس كراهة كافور هذا لتجنبه . وقد قدمت انه لما أنشده :

انما التهنئات للاكفاء ولمن يدّني من البعداء

حلف ليبلغه جميع ما في نفسه . وفي هذه القصيدة يذكر السواد ويقول :

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء

انما الجسم ملبس وابيضاض   النفس خير من ابيضاض القباء

فلو كره كافور ذكر السواد هذه الكراهة ما اهتزّ للقصيدة هذه الهزة :

وينبغي ألاّ ننسى أن الشاعر بعد أشهر من اقامته بمصر شرع يشكو اخلاق كافور ، فلما طال عليه الامد اكثر من تذكيره واستنجازه في كلام لا يخلو من توبيخ كقوله :

ابا المسك هل في الكأس فضل اناله

فاني أغني منذ حين وتشرب

وقوله :

وهل نافعي أن تُرفع الحجب بيننا   ودون الذي املت منك حجاب

فهذا وأشباهه زاد في نفور كافور ، وأبعد الشاعر من غايته.

وقصيدة شبيب التي انشدها الشاعر امام كافور وقصيدة الحمّى التي بلغت كافوراً على ألسنة الناس ، كان لها وقع سيئ عليه .

وكذلك مدح فاتك لم يكن ليرضى كافوراً وان اذن به. وقد بينت فيما تقدم ابياتاً في قصيدة فاتك يمكن عدها تعريضاً بكافور.

ولم يقتصر الشاعر على مدح فاتك بل أنس به وركن اليه، وتمكنت بينهما المودة .

والقائل ان يقول ان الشاعر ما ألحف في مطالبة كافور وخاطبه بما يقارب التوبيخ ، ولا قال ما قال في قصيدة شبيب ولا مدح فاتكا الا بعد أن يئس من كافور . والجواب ان ابا الطيب أعرب عن رجائه في كافور حتى القصيدة الاخيرة فحشاشة الامل في نفسه كانت جديرة ان تمنعه ان يقول ويفعل ما يبعده من آماله .

وما احسب ابا الطيب كان غبياً عن اثر ما يقول ويفعل في نفس كافور ولكن الرجل كان عظيم النفس ، ابياً ، صريح القول فلم يبالِ ان يقول ما في نفسه ، ولم يكن اشفاقه من العواقب الى الحد الذي يملك عليه قوله وفعله .

وأخيراً لا ننسى الوزير ابن الفرات . قد أغفله أبو الطيب فلم يمدحه . وقد مدحه شعراء آخرون منهم الناشئ مدح كافوراً ووزيره . ولو توسل شاعرنا بالوزير لكان اقرب الى أمله. وأظنه

كبر عليه ان يمدحه أو لم يجد من حفاوته ما يغريه بمدحه كما فعل مع الوزير المهلبي في بغداد .

ي — روايات عن أبي الطيب بمصر :

قبل ان اتكلم في رحيل ابي الطيب عن مصر اثبت واقعات حدثت له أيام مقامه بها :

كان ابو بكر الكندي من أدباء مصر وعلمائها في القرن الرابع . برع في الحديث واللغة والنحو والادب ولُقّب سيبويه لمكانته في النحو وغريب اللغة . وقد حدث على ابن حمزة قال حدثني ابو الطيب قال : « وسيبويه هذا فصيح خفيف الروح يركب حماراً يدور عليه ويتكلم والناس يكتبون ألفاظه » . وقال : « وقف سيبويه المجنون على باب مسجد الجامع بمصر فقال ملوك الناس ثلاثة أقرع وأقطع وأرقع . وذكر كلاماً كثيراً . ثم قال : وهذا الذي لهج أهل مصر بشعره . ولو قال :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من مداجاته بدّ

لكان أحسن من « صداقته » .

قال علي بن حمزة : « فاستحسنت انا وجميع من حضر وقلنا هو احسن . فقال ابو الطيب لم يدر ما أردت. قال والذي اراد ابو الطيب أحسن » .[١]

وهذه القصة تروي في الصبح المنبي[٢] على هذه الصورة :

« حدّث محمد بن الحسن الخوارزمي قال : مررت بمحمد بن موسى الملقب بسيبويه وهو يقول مدح الناس المتنبي على قوله:

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى   عدواً له ما من صداقتــه بدّ

ولو قال ما من مداراته أو مداجاته بدّ لكان احسن واجود

قال : واجتاز المتنبي به فوقف عليه وقال ايهـا الشيخ أحب ان أراك . فقال له رعاك الله وحيّاك فقال له بلغني انك أنكرت عليّ قولي « عدوا له ما من صداقته بدّ » . فما كان الصواب عندك ؟ فقال له الصداقة مشتقة من الصدق في المودة . ولا يسمى الصديق صديقاً وهو كاذب في مودته . فالصداقة إذن ضدّ العداوة . ولا موقع لها في هذا الموضع. ولو قلت ما من مداراته او مداجاته

---

(١) نسخة الاوقاف ببغداد . (٢) ص ٦٣ .

لأصبت . هذا رجل منا (يريد نفسه) قال :

أتاني في قميص اللاز يسعى   عـــدولي يلقّب بالحبيب

فقال المتنبي : أمع هذا غيره ؟ قال نعم :

وقد عبث الشراب بوجنتيه   فصيّر خده كسنا اللهيب

فقلت له متى استعملت هذا   لقد أقبلت في زي عجيب

فقال الشمس أهدت لي قميصاً   مليح اللون من نسج المغيب

فثوبي والمدام ولون خدي   قريب من قريب من قريب

فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيبويه يصيح عليه : أُبكم الرجل وجلائل الله » .

وفي معجم الادباء [١] ان الخطيب ابا الوليد بن عسّال حج فلما انصرف تطلع الى لقاء المتنبي ، واستشرف ، ورأى ان لقيته فائدة يكتسبها ، وجملة فخر يحتسبها فصار اليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلا . ثم قال : ألا أنشدني لمليح الاندلس — يعني ابن عبد ربه — فأنشده :

---

(١) ترجمة ابن عبد ربه .

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقـاً ورشا بتقطيـع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله درّاً يعود من الحيـاء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ابصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقـة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما اكمل انشاده استعادها منه . ثم صفق بيديه وقال : « يابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً » .

وفي يتيمة الدهر (١) عن ابن جني قال : « وحدثني المتنبي قال حدثني فلان الهاشمي من اهل حرّان بمصر . قال احدثك بطريفة . كتبت الى امرأتي وهي بحرّان كتاباً تمثلت فيه ببيتك :

بِمَ التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سَكَنُ

فأجابتني عن الكتاب وقالت ما انت والله كما ذكرته في هذا البيت . بل انت كما قال الشاعر في هذه القصيدة :

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم
ثم استمرّ مريري وارعوى الوسَنُ

(١) ترجمة أبي الطيب .

هذا ولا ريب أن ديوان أبي الطيب قرئ عليه بمصر. وسنبين في الكلام على معرفته باللغة أنه أملى بها تصحيحاً لكتاب المقصود والممدود لابن ولاد.

الفصل الثاني عشر

الرحيل من مصر

أ — هل منع كافور ابا الطيب ان يرحل عن مصر ؟.

أقام شاعرنا في مصر أربع سنين وستة اشهر كما قدمنا. وقد بينا انه بدأ يشكو مطال كافور بعد ثلاثة اشهر من قدومه عليه وانه لم ينشئ في مدحه ما بين شوال سنة ٣٤٧ وسفره من مصر، وهي ستة وعشرون شهراً، الا قصيدتين — قصيدة شبيب العقيلي والقصيدة الآخرة. وانه بعد القصيدة الخاتمة بقي أربعة عشر شهراً لا يمدح الرجل ولا يلقاه وقد ذكر الرحيل في شعره مراراً. فما الذي أمسكه في مصر هذه المدة ؟ أكان الرحيل محظوراً عليه ؟

يقول في قصيدة الحمى :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي ... تخب بي الركاب ولا امامي
وملني الفراش وكان جنبي ... يمل لقاءه في كل عام

ويقول :

ألا يا ليت شعر يدي تمسي ... تصرف في عنان او زمام
وهل أرمى هواي براقصات ... محلاة المقاود باللغام
فربتما شفيت غليل صدري ... بسير او قناة او حسام
وضاقت خطة فخلصت منها ... خلاص الخمر من نسج الفدام
وفارقت الحبيب بلا وداع ... وودعت البلاد بلا سلام
يقول لي الطبيب أكلت شيئاً ... وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه اني جواد ... اضر بجسمه طول الجمام
تعود ان يغبر في السرايا ... ويدخل من قتام في قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى ... ولا هو في العليق ولا اللجام

فانظر كيف يتمنى الرحيل ، ويرى فيه شفاءه، فكيف اقام سنة بعد هذه القصيدة ؟.

ومن قوله في القصيدة التي هجا بها كافوراً عند رحيله من مصر :

اني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدور

وقوله :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني كيما يقال عظيم القدر مقصور

وهذا يشعر ان كافوراً كان يمنعه المسير .

وفي الديوان ما هو أبين من هذا . في شرح المعري ونسخ من الديوان ان الشاعر كتب الى كافور يستأذنه في المسير الى الرملة ليتنجز مالا بها واراد ان يعرف رأيه في مسيره ، فأجابه : لا والله ، أطال الله بقاءك . لا نكلفك المسير ولكن ننفذ رسولا يأتيك به فلما قرأ الجواب قال :

اتحلف لا تكلفني مسيراً الى بلد أحاول فيه مالا
وانت مكلفي أنبي مكاناً وأبعد شقة وأشدّ حالا
إذا سرنا عن الفسطاط يوماً فلقّني الفوارس والرجالا
لتعلم قدر من فارقت مني وانك رمت من ضيمي محالا

وسنرى في رحيل ابي الطيب الى الكوفة انه رحيل هارب لا رحيل مودِّع مشيَّع.

فلماذا منع كافور ابا الطيب الرحيل ؟ أنزل كافور الشاعر الابي داراً ، واعطاه اكثر مما يعطي الشعراء وحسب ان هذا يكفيه وأنه يكون عنده كما كان عند سيف الدولة فلما طالبه بولاية أو ضيعة وعده ثم خافه حين رأى علوّ نفسه ، وبعد امانيه ، ولما سمع من حبسه في صباه ، وانه ادعى النبوة . واسباب اخرى سنذكرها عند الكلام على هجاء كافور .

فلما ألحّ ابو الطيب في اقتضاء كافور ما وعده ، وأشفق كافور ان ينيله بقي الشاعر بين يأس قريب ورجاء بعيد . وتلدّد كافور لايدري ما يفعل. أيولي هذا الرجل الطماح ولاية ويعرّض ملكه للخطر او يتركه يذهب حيث شاء فيعرض نفسه للهجاء ، ويحرم مدائح الشاعر الذائع الصيت التي تطير بذكره في الآفاق. فمنّى نفسه ان يبقى ابو الطيب بجانبه قانعاً بما يدرّه عليه بين الحين والحين مشيداً بذكره :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود

ب — من الفسطاط الى الكوفة :

أقام ابو الطيب في مصر أربعة عشر شهراً لا يمدح كافوراً ولا يلقاه الا أن يركب فيسير معه لئلا يوحشه .

وكان يتعزّى بابي شجاع فاتك والحديث معه . فلما توفى فاتك عزم على الرحيل . وكانت وفاته ليلة الاحد وقت العشاء الآخرة لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلثمائة [1] فقد لبث ابو الطيب بعد فاتك شهرين يدبر لرحيله . « وقد أعدّ كل ما يحتاج اليه على مرّ الايام في لطف ورفق ولا يعلم به احد من غلمانه . وهو يظهر الرغبة في المقام . وطال عليهم التحفظ . فخرج ودفن الرماح في الرمل وحمل الماء على الابل في الليل من النيل عدة لعشر ليال وتزود لعشرين » [2] .

وكان كافور يتجسس أخباره حتى قيل ان جيرانه كانوا يراعونه ، وان جماعة كانوا يرقبون داره يتعرفون من يدخل اليه وان صاحب الخبر كان يفد الى بابه كل يوم [3] .

---

(١) المعري ، والواحدي (٢،٣) المعري ، واوقاف بغداد .

وفي ليلة عيد الاضحى أنشأ قصيدته الباكية الساخطة التي اولها:

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد ؟ بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الاحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيد
لولا العلى لم تجب بي ما اجوب بها وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان أطيبَ من سيفي معانقة أشباهُ رونقه الغيد الاماليد
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين ولا جيد
يا ساقييّ أخمر في كؤوسكما ام في كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة انا ؟ مالي لا تحركني هذي القيان ولا تلك الاغاريد
إذا أردت كميت اللون صافية وجدتها وحبيب النفس مفقود

ويقول في اثناء هجاء كافور :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود
ويلمّها خطة ويلمّ قابلها لمثلها خلق المهرية القود
وعندها لذ طعم الموت شاربه ان المنية عند الذل قنديد

قال في الايضاح : « وكان رسم السلطان ان يستقبل العيد
بيوم تمدّ فيه الخلع والحملانات وانواع المبار لرابطة جنده، ورتبة

جيشه . وصبيحة العيد تفرق . وثاني اليوم يذكر له من قبل ومن ردّ واستزاد . فاهتبل المتنبي غفلة كافور ودفن رماحه وسار ليلته الخ » [١] .

اجتاز ابو الطيب ببلبيس فنزل على عبد العزيز بن يوسف القيسي فأضافه واكرمه وسيّره [٢] . وفي رواية اخرى انه كتب اليه يطلب منه دليلا فأنفذه اليه .

وتتفق الروايات على انه كتب اليه بهذه الابيات :

جزى عرباً امست ببُلْبَيس ربّها بمسعاتها تقرر بذاك عيونها
كراكر من قيس بن عيلان ساهراً جفون ظباها للعلى وجفونها
وخصّ به عبد العزيز بن يوسف فما هو إلا غيثها ومعينها
فتى زان في عينيّ أقصى قبيله وكم سيد في حلة لا يزينها

ولاريب ان ابا الطيب كان يعرف عبد العزيز من قبل ويركن اليه وإلا ما كتب اليه ولا مرّ به . وبرهان هذا ان في النسخة (١٥٣٠) وله في عبد العزيز الخزاعي قبل رحيله من مصر :

---

(١) الخزانة ج ١ ص ٣٨٥ . (٢) النسخة ١٥٣٠

لئن مرّ بالفسطاط عيشي لقد حلا ... بعبد العزيز الماجد الطرفين

فتى زان قيساً بل معداً جميعها ... وما كل سادات الشعوب بزين

تناول ودّي من بعيد فناله ... جرى سابقاً في الود ليس برين »

فانظر قوله لئن مرّ بالفسطاط وقوله « تناول ودي من بعيد فناله » تر ان المودة بدأت بين الرجلين وابو الطيب في الفسطاط . واحسب الشاعر قد كتب اليه يؤذنه بسيره ويسأله دليلا ثم مرّ به .

وفي شرح المعري : واخفى طريقه حتى قال بعض اهل البادية : هبه سار فهل محا اثره ؟ وقال بعض المصريين انما اقام حتى عمل طريقاً تحت الارض . وتبعته البادية والحاضرة ومن وثقوا به من الجند . وكتبوا إلى عمالهم بالحوفين والجفار وغزة والشام وجميع البوادي » .

واحسب خروج ابي الطيب خفية أثار احاديث الناس، وخلق طائفة من القصص التي تحوكها العامة حول الحادثات الخفية العجيبة . وليس عجيباً ان يتبعه كافور جماعة ، ويكتب الى عماله .

فما كان ليرضي خروج شاعره على هـذه الشاكلة غير مادح ولا مستأذن ، خروجاً يفتح عليه باباً من الهجاء والتشهير ، وأحسب القصيدة التي انشأها ابو الطيب ليلة العيد بلغت كافوراً بعد قليل فثـارت ثائرته . وتَحفُّظُ ابي الطيب في مسيره دليلٌ على انه كان يتوجس شراً من كافور ان يتبعه جنداً او يكتب الى من يقطع عليه الطريق .

وتتبعُ ابي الطيب في سفره وتعرّفُ ما عرض له في طريقه، يشوق كل متأدب معجب بهذا الشاعر الشجاع . وانا اثبت هنـا القصة بعد ان قابلت منها روايتين محرّفتين في شرح المعري ونسخة بغـداد ، ونتفاً في شرح ابن جني — فصححتها على قدر الطاقـة .

« وعبر ابو الطيب بموضع يعرف بنجة الطير الى الديثة حتى خرج الى ماء يعرف بنحل وتسميه العامة بحراً — في التيه بعـد ايام . فلقي عنده في الليل ركباً وخيلا صادرة عنه فقاتلوه وأخذهم وتركهم وسار حتى قرب من النقاب فرأى رائدين لبني سليم على

قلوصين . فركب الخيل وطردهما حتى اخذهما فذكرا له ان اهلها ارسلوهما رائدين ووعداه النزول ذلك اليوم بين يديه. فاستبقاهما وورد عليها القلوصين وسلاحها . وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سليم آخر الليل . فضرب له ملاعب بن ابي النجم خيمة بيضاء وذبح له وغدا فسار الى النقع فنزل ببادية من معن وسُنْبُس. فذبح له عُفيف المنّي غنما واكرمه . وغدا من عنده وبين يديه اصان من جذام يدلانه . فصعد في النقب المعروف بتريان ، وفيه ماء يعرف بغرندل . فسار يومه وبعض ليلته ونزل وأصبح فدخل حِسْمي .

وحِسمى هذه ارض طيبة ... وتنبت جميع النبات مملوءة جبالا في كبد السماء ، متناوحة ملس الجوانب اذا نظر الناظر الى قُلّة أحدهما فتل عنقه حتى يراها بشدة ومنها ما لا يقدرا ن يصعد عليه . ولا يكاد القتام يفارقه . ولذلك قال النابغة :

فأصبح عاقلا بجبال حسمى دقاقُ التُرب محترمُ القتام

فاختلف الناس في تفسير هذا البيت ولم يدروا ما اراد .

وتكون مسيرة ثلاثة ايام في يومين يعرفهـا من رآها من حيث رآها لانها لا مثيل لها في الدنيا . ومن جبالها جبل يعرف بأرم عظيم العلوّ تزعم البادية ان عليه كروماً وصنوبرا .

فوجد بني فزارة بها شاتين فنزل بقوم من عدي فزارة فيهم اولاد لاحق بن مجاب .

وكان مجلّب هذا خرج يطلب ناقة له فقدها . وكانت فزارة قد اخذت غزياً غزاها فكانت الاسرى في القِدّ بين البيوت فسمعه بعض الاسرى ينشد الناقة . فقال له هي بموضع كذا وكذا وجدناها امس وشربنا لبنها وتركناها لنعود فنأخذها . فقال مجاب علي شهادتكم يامعشر العرب . ثم لبس سلاحه وركب فرسه فقال : الغزيّ ضيوفي . فخلصهم من القيد بعد اختلاف الناس وخوف الشر . فردّ عليهم كل شيء اخذ لهم ، وقراهم وسيّرهم وقال:

فان تلك ناقي منعت غزياً تجر صرارها ترعى الرحابا
فأي فتى احق بذاك مني واجدر في العشيرة ان يهابا

وكان بينه وبين امير فزارة حسان بن حكمة مودة ونداِمة

فنزل بجار للقوم ليورّي عنهم فلا يعلم ما بينه وبينهم . واسم الجار وردان بن ربيعه من طيّ ثم من معن ثم من بني شبيب . فاستغوى عبيده فأفسدهم عليه وأجلسهم مع امرأته . فكانوا يسرقون له الشيء بعد الشيء من رحله .

وطابت حسمي لابي الطيب فأقام بها شهراً . وكتب كافور الى من حوله من العرب ووعدهم . وظهر لابي الطيب فساد عبيده. وكان الطائي رأى عند ابي الطيب سيفاً مستوراً فسأله ان يريه اياه فلم يفعل لانه كان على قائمه ونعله ذهب من مائة مثقال وكان السيف لا ثمن له. فجعل يحتال على العبيد بامرأته طمعاً في السيف، لان بعضهم اعطاه خبره .

فلما انكر ابو الطيب امر العبيد ووقف على مكاتبة كافور لكل العرب التي حوله في امره أنفذ رسولا الى فتى من بني فزارة ثم من بني مازن من ولد هرم بن قطبة بن سيار يقال له فليتة بن محمد وفيهم يقول بعض البادية :

اذا ما كنت مفترباً فجاور بني هرم بن قطبة او دثارا

اذا جاورت أدنى مازني فقد أزمت اقصاها الجوارا

وكان قد وافقه قبل ذلك على المراسلة . فسار اليه . وترك ابو الطيب عبيده نياماً وتقدم الى الجمال فشد على الابل وحمل خوفاً ان يخنس عنه بعض عبيده في الليل ، فلم يعلموا حتى انبههم وطرحهم على الابل ، وجنب الخيل وسار تحت الليل والقوم لا يعلمون رحيله . ولا يشكون انه يريد البياض . فأخذ طريق البياض فلما صار برأس الصوان أنفذ فليتة بن محمد الى عرب بين يديه وتوقف .

وأخذ بعض العبيد في الليل السيف فدفعه الى عبد آخر ودفع اليه فرسه وجاء ليأخذ فرس مولاه . فانتبه ابو الطيب . وقال الغلام : أخذ العبد فرسي . يغالط بهذا الكلام . وعدا نحو الفرس ليقعد على ظهره . والتقى هو وابو الطيب عند الحصان . وسل العبد السيف فضرب رسنه . فضرب ابو الطيب وجه العبد فقسمه فخر على رتمة وامر الغلمان فقطعوه . وانتظر الصباح . وكان هذا العبد اشد من معه وافرس (قال الرتم شجر له اغصان

ملس دقاق سباط والواحدة رتمة) .

فلما اصبح أتبع العبد عليّ الخفاجيّ وعلوان المازنيّ فأخذا أثره فأدركاه عصراً وقد قصّر الفرس الذي تحته. فسألهما عن مولاه فقالا جاءك من ثمّ، واشارا الى موضع . فدنا منهما كالعائذ وهو يتبصر. فقالا له تقدم. فقال ما اراه ، فان رأيته جئتكما . وان لم اره فما لكما عندي الا السيف، فامتنع عنهما . وعادا في غد ووافق عودة فليتة فقال فليتة قد كان فيما جرى خيرة لان الوقت الذي اشتغلتم بقتاله فيه كانت سرب الخيل عابرة مع ذلك العلم . ولو كنتم زلتم عن موضعكم لحدّث بعضكم بعضاً. فقال ابو الطيب ارتجالا يهجو وردان :

ان تك طيئ كانت لئاماً ... فألأمهم ربيعة او بنوه

وان تك طيئ كانت كراماً ... فوردان لغيرهم ابوه

مررنا منه في حسمى بعبد ... يمج اللؤم منخره وفوه

اشذّ بعرسه عني عبيدى ... فأتلفهم ومالي اتلفوه

فان شقيت بايديهم جيادي ... لقد شقيت بمنصلي الوجوه

وقال (في العبد الذي قتله) :

اعددت للغادرين اسيافاً الخ[١]

وسار ابو الطيب حتى نظر الى آثار الخيل . ولم يجد مع فليتة خبراً عن العرب التي طلبها فقال له احرف بنـا على بركة الله الى دومة الجندل . وذلك انه اشفق ان تكون عليه عيون بحسمى قد علمت انه يريد البياض فسار حتى نزل بحـدر الـكفاف فورد البويرة بعد ثلاث ليال . وادركتهم لصوص اخذت آثارهم فلم يطمعوا فيهم . وسار معهم حمضي بن القلاب .

فلما توسط بسيطة ، وهي ارض تقرب من الـكوفة ، رأى بعض عبيده ثوراً فقال هذه منارة الجامع . ونظر آخر الى نعامة في جانبها الآخر فقال هذه نخلة . فضحك ابو الطيب والبادية وقال :

بسيطة مهلا سقيت القطارا ... تركت عيون عبيدي حيارى
فظنوا النعـام عليك النخيل ... وظنوا الصوار عليك المنـارا
فأمسك صحبي بـاكوارهم ... وقد قصد الضحك فيهم وجارا

(١) انظر القطعة في الديوان

وورد العقدة بعد ليال وسقى بالجراوي واجتاز بني جعفر بن كلاب وهم بالبرية والاضارع فبات فيهم . وسار الى اعكُش حتى نزل الرهيمة ودخل الكوفة فقال في شهر ربيع الاول سنة ٣٥١ .

الا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيذبى الخ .

لم يسلك ابو الطيب طريقاً معهودة بين مصر والعراق ، تجنب طريق الشام إذ كانت في سلطان كافور فما سلك طريق دمشق الى الكوفة ولا طريق الفرات ، ولم يسلك طريق الحاج المصري الى الحجاز ولا طريق الحاج العراقي من المدينة الى الكوفة فهذه المواضع التي ذكرت في الرواية المتقدمة والمواضع التي ذكرها ابو الطيب في قصيدته ليست من منازل الطرق المعروفة في كتب المسالك ، فقد سار كما قال صاحب الايضاح «على الحلل والاحياء والمفاوز المجاهيل والمناهل الاواجن[1] » ومن اجل هذا كان ابو جعفر وزير عضد الدولة يختلف اليه في شيراز ليحفظ المناهل والمنازل من مصر الى الكوفة[2] .

---

(١) الخزانة ص ٣٨٥ . (٢) == ص ٣٨٨ .

وحقّ أن مسير ابي الطيب من الفسطاط الى الكوفة على هذه الشاكلة تصديق ما ادعى في شعره من الجرأة والدربة على الاسفار بالليل والنهار، والخبرة بالبوادي ، والمعرفة بقبائل العرب وسادتها ، والدهاء والحزم . وقد صدق حين قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والضرب والطعن والقرطاس والقلم

بلغ ابو الطيب الكوفة في شهر ربيع الثاني سنة إحدى وخمسين وثلثمائة بعد ثلاثة اشهر من خروجه من الفسطاط . فأنشأ قصيدة يعدّد فيها المواضع التي مرّ بها في مسيره، وقد عدّ واحداً وعشرين موضعاً ، ويفخر بما فعل ويهجو كافوراً . واول القصيدة :

ألا كلّ ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهيدبى

وكل نجاة بجاويّة خنوف وما بي حسن المشى

ولكنهن حبال الحياة وكيد العداة وميط الاذى

ضربت بها التيه ضرب القمار إما لهذا واما لذا

اذا فزعت قدّمتها الجياد وبيض السيوف وسمر القنا
فمرت بنخل وفي ركبها عن العالمين وعنه اغنى

وذكر مواضع مرّ بها الى ان قال :

فلما أنخنا ركزنا الرماح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل اسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت واني عتوت على من عتا
وما كل من قال قولا وفى ولا كل من سيم خسفاً ابى
ومن يك قلب كقلبي له يشق الى العز قلب التوى
ولا بد للقلب من آلة ورأي يصدع صم الصفا
وكل طريق اتاه الفتى على قدر الرجل فيه الخطى

ثم أخذ يهجو كافوراً ووزيره، ويصف حاله في مدحه. من ذلك:

وشعر مدحت به الكركدنّ بين القريض وبين الرُقى
فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الورى

رجع الشاعر الهمام الى بلده بعد ان غاب عنها نحو ثلاثين سنة .

الفصل الثالث عشر

رثاء فاتك وهجاء كافور

خرج ابو الطيب من مصر ناقما على كافور الذي وعده ومطله ثم اخلفه ، باكياً على صديقه ابي شجاع فاتك الذي اعطاه بغير وعد وتودد اليه فأنس به ورجا ان يجد فيه صديقاً معوانا في النائبات . وانما أخرجه من مصر خيبة امله في كافور ومصيبته في ابي شجاع فانظر قلب الشاعر مقسماً بين نقمة يصبها على عدوه وحرقة يضرمها الحزن والحسرة على صديقه . وهو بين النقمة والحزن برى الزمان واهله فيأتي بالحكمة الثائرة الساخطة حيناً والحكمة الوادعة الحزينة حيناً . وقد أبان في هجاء كافور عن قلب حقود لا يغفر الذنب ولا يعفو عن الاساءة كما ابان في رثاء فاتك عن قلب وفيّ لا ينسى المودة ولا يكفر النعمة

أ — فأما رثاء فاتك ففي ثلاث قصائد :

الاولى العينية التي انشأها بعد خروجه من مصر . قد

خرج منها بعد شهرين من وفاة فاتك . واولها :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيع

يتنازعان دموع عين مسهّد هذا يجيء بها وهذا يرجع

النوم بعد أبي شجاع نافر والليل مُعيٍ والكواكب ظلع

اني لاجبن من فراق احبتي وتحسّ نفسي بالحمام فأشجع

ويزيدني غضب الاعادي قسوة ويلم بي عتب الصديق فأجزع

وفي البيتين الاخيرين وصف صادق لنفسه فقد كان في هذه القصيدة نفسها قاسياً على عدوه كافور ، رقيقاً يذوب حسرات على صديقه فاتك .

وانظر كيف يجتمع الغضب والحزن في قوله :

قبحاً لوجهك يا زمان فانه وجه له من كل لؤم برقع

أيموت مثل ابي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصي الاوكع

أيقيت اكذب كاذب ابقيته

وأخذت اصدق من يقول ويسمع

وتركت انتن ريحة مذمومة وأخذت أطيب ريحة تتضوع الخ

ثم يقول في رثاء فاتك وهو يفكر في كافور واشباهه :

المجد اخسر والمكارم صفقة من أن يعيش لها الكريم الاروع
والناس أنزل في زمانك منزلا من ان تعايشهم وقدرك ارفع

والقصيدة الثانية نظمها في الكوفة وقد اخرج تفاحة من الند عليها اسم فاتك فقال :

يذكرني فاتكا حلمه وشيءٌ من الند فيه اسمه
ولست بناسٍ ولكنني يجدد لي ذكره شمه
وايّ فتى سلبتني المنون لم تدر ما ولدت أمه
ولا ما تضم الى صدرها ولو علمت هالها ضمه
بمصر ملوك لهم ماله ولكنهم ما لهم همه
فأجود من جودهم بخله واحمد من حمدهم ذمه
واشرف من عيشهم موته وانفع من وجدهم عُدمه
وان منيته عنده لكالخمر سُقّيه كرمه
فذاك الذي عبّه ماؤه وذاك الذي ذاقه طعمه
ومن ضاقت الارض عن نفسه حرًى ان يضيق بها جسمه

وهذه ذكرى تنطق بالحسرة على صديقه والوفاء له، تأمل قوله : ولست بناس الخ . وقوله : واي فتى سلبتني المنون الخ . لترى الحزن الصادق والوفاء الخالص .

ويرثي فاتكا مرة اخرى بعد خروجه من بغداد في شعبان سنة اثنتين وخمسين . ورثاء الشاعر بالعراق صديقاً له مات في مصر قبل سنتين، وقد أدى حق رثائه من قبل، برهان على ما كان بين الرجلين من مودة محكمة وما كان في خلق ابي الطيب من وفاء . ويقول في اول المرثية يذكر اسفاره :

حتام نحن نساري النجم في الظلم   وما سراه على خُف ولا قدم
ولا يحسّ بأجفان يحسّ بها   فقد الرقاد غريب بات لم ينم
تسوّد الشمس منا بيض اوجهنا   ولا تسوّد بيض العذر واللمم
وكان حالهما في الحكم واحدة   لو احتكمنا من الدنيا الى حكم

ويصف سيره عن مصر ثم يصف غلمانه الذين صحبوه في اسفاره :

في غلمة اخطروا ارواحهم ورضوا   بما رضيت رضى الايسار بالزلم

تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم عمائم خلقت سوداً بلا لثم

بيض العوارض طعانون من لحقوا من الفوارس شلالون للنعم

قد بلغوا بقناهم فوق طاقته وليس يبلغ ما فيهم من الهمم

في الجاهلية إلا ان انفسهم من طيبهن به في الاشهر الحرم

ناشوا الرماح وكانت غير ناطقة فعلموها صياح الطير في البهم

ثم يدخل الى رثاء فاتك بقوله :

تخدي الركاب بنا بيضاً مشافرها خضراً فراسنها في الرغل والينم

مكعومة بسياط القوم نضربها

عن منبت العشب نبغي منبت الكرم

وابن منبته من بعد منبته أبي شجاع قريع العرب والعجم

لا فاتك آخر في مصر نقصده ولا له خلف في الناس كلهم

من لا تشابهه الاحياء في همم أمسى تشابهه الاموات في الرمم

عدمته وكأني سرت اطلبه فما تزيدني الدنيا على العدم

ثم يقول انه سيترك القلم الى السيف ، وهذا اول كلام عن

التوسل بالسيف الى آماله منذ اتصل بسيف الدولة :

ما زلت أُضحك ابلي كلما نظرت	الى من اختضبت اخفافها بدم
أُسيرها بين اصنام اشاهدها	ولا اشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي	المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به	فانما نحن للاسياف كالخدم
أسمعتني ودوائي ما اشرت به	فان عصيت فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته	اجاب كل سؤال عن هلٍ بلم

وينعي الوفاء في الناس وكأنه يعني كافوراً :—

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة	واعوز الصدق في الاخبار والقسم
سبحان خالق نفسي كيف لذتها	فيما النفوس تراه غاية الألم

ويختم القصيدة بقوله :

وقت يضيع وعمر ليت مدته	في غير امته من سالف الامم
اتى الزمان بنوه في شبيبته	فسرهم واتيناه على الهرم

وفي هذه القصيدة أثر للخيبة وسوء اللقاء اللذين مني بهما في بغداد ، الى خيبته التي مني بها في مصر .

ب — هجاء كافور :

— ١ —

جاش أبو الطيب على ابي المسك لعنات تموج بها ابحر الشعر، وقذف عليه حمما يهدم بها ما شاد في مدحه من بيوت . فلماذا هذا الهجاء ؟ ان مدح الشعراء يُبغي ثوابه فلا ينبغي ان نلتمس له اسباباً اخرى ولكن الهجاء لا ثواب عليه وانما يدعو الشاعر اليه نقمة على المهجوّ أدت اليها اسباب . فما الذي نقم ابو الطيب من كافور ؟

أعطى كافور الشاعر كثيراً . ضيّفه في دار خاصة ، ووصله صلات مختلفة. نجد في نسخ الديوان أنه خلع عليه حين قدم مصر واعطاه آلافاً من الدراهم وأعطاه مرة فرساً أدهم واعطاه ستمائة دينار ذهب مرة اخرى. والذي يعطي هذا العطاء جملة يعطي غيره في هذه السنوات التي أمضاها الشاعر في ضيافته. وأبو الطيب يقول:

وإني لفي بحر من الخير اصله عطاياك أرجو مدها وهي مده

غير ان الشاعر ما كان يبغي مالا بل ولاية أو ضيعة . وقد

قدّمت بيان هذا .

ولم يكن كافوراً اهلا لهذا الهجاء بما منع الشاعر ولاية أو ضيعة ، ولكنه استحقه بما وعد ومطل ثم اخلف فملأ نفس الشاعر الطموح املا ثم ذبذبه بين الرجاء والخيبة ثم أيأسه بعد انتظار طويل . وكان ابو الطيب يبغي لنفسه مجداً ويريد ان يبرر فراق سيف الدولة بما ينال من هذا المجد. وكان يخشى ان يشمت به اعداؤه. فكان حرمان كافور اياه هدمَ مجد بناه في نفسه واثارةَ ندم على فراق ابن حمدان ، واشماتَ اعداء وحساد طالما ذكرهم في شعره . ثم زاده غيظاً ان كافوراً حاول ان يمسكه عنده ولم ييسّر له الرحيل . وعلى قدر هذا كله كان سخطه ومرارة هجائه . وابو الطيب اذا حقد اضطرم قلبه فاذا هجا رمى بالحمم كالارة المضطرمة . ولم يهج في حياته الا ثلاثة ابن كيغلغ وكافورا وضبة ولكنه هجاء حاطم هادم مقذع بعثه الحقد والغل لا التلهي والسخرية .

— ٢ —

وأهاجي كافور قسمان: قسم جاء في اثناء منظومات تضمنت أغراضاً اخرى غير الهجاء . وذلك في ثلاث قصائد وقطعة . في القصيدة التي انشأها قبل خروجه من مصر بيوم واحد :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد بما مضى ام لأمر فيك تجديد

والقصيدة التي وصف فيها سيره من مصر الى الكوفة :

ألا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشيه الهيدبى

والقصيدة العينية التي رثى بها فاتكا :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيّع

والقطعة التي نظمها حين رأى في الكوفة من هدايا فاتك تفاحة من الند عليها اسمه .

والقسم الثاني ست قطع فيها اربع واربعون بيتاً .

وليس يعنينا ما في الهجاء من شتم وسخرية وازدراء ولكن نتبين الابيات التي تعرب لنا عما نقمه الشاعر من كافور، وما اثار غضبه عليه فنتعرف باعث هذا الهجاء. فمن هجائه في القطع قوله:

أميناً واخلافاً وغـدراً وخسة

وجبناً؟ أشخصاً لحت لي ام مخازيا ؟

فهو يصفه بالمين والاخلاف والغدر لانه كذبه وعده .

وفي قطعة اخرى :

ما من يرى انك في وعـده كمن يرى انك في حبسه
لا ينجز الميعاد في يومـه ولا يعي ما قال في أمسه
وانما تحتال في جـذبه كأنك الملاّح في قلسه
فـلا تُرجّ الخير عنـد امرئٍ مرّت يد النخاس في رأسـه

وفي قطعة ثالثة :

لو كان ذا الآكل ازوادنا ضيفاً لأوسعناه احسانا
لكننا في العين اضيافه يوسعنا زوراً وبهتانا
فليته خلى لنا طرقنا أعانـه الله وايانا

فتأمل قوله : « يوسعنا زوراً وبهتانا » .

ومن قوله في قصيدة الخروج :

أمسيت أروح مثر خازناً ويداً أنا الغنيّ وأموالي المواعيد

اني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الايدى وجودهم

من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ويقول في القصيدة العينية التي رثى بها ابا شجاع :

أبقيت أكذب كاذب أبقيته

وأخذت اصدق من يقول ويسمع

فهذه هي الابيات التي تبين لنا سبب الهجاء وما عداها سب قليل الغناء .

وفي القصيدة الميمية التي رثى بها فاتكا يقول غير مصرح باسم كافور :

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة

واعوز الصدق في الاخبار والقسم

— ٣ —

متى نظم هذه الاهاجي ؟

أما القصائد الثلاث فمعروفة التاريخ فالدالية نظمها قبل خروجه

من مصر بيوم واحد، وقصيدة السفر قالها حينما حلّ بالكوفة، ومرثية أبي شجاع قالها في الكوفة ايضاً أو في الطريق .

وأما القطع الاخرى غير المؤرخة في الواحدي ونسخة بغداد ان القطعة التي مطلعها :

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا

وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

نظمها حينما خرج من عند كافور وقد أنشده اولى مدائحه . وهذا قول لا يقبله النقد فلم يكن لأبي الطيب ان يهجو كافوراً وقد جاءه مادحاً مملوءاً رجاء، ولم ير منه ما يكره، ولأن الشاعر يقول في القطعة :

اميناً واخلافاً وغدراً وخسة الخ .

ولم يكن كافور وعده إذ ذاك شيئاً فكذب . واحسب هذه القطعة وضعت بعد القصيدة الاولى في بعض نسخ الديوان لانها توافقها وزناً ورويّاً فوهم الشراح من اجل هذا .

والقطعة :

اتوك من عبد ومن عرسه　　من سلط العبد على نفسه

وضعت في شرح الواحدي والمعري والنسخة (١٥٣٠) بعد القصيدة الميمية التي أنشدها في ربيع الثاني سنة ٣٤٧ وقيل انه نظمها بعد هذه القصيدة وهذا ممكن ولكنه بعيد فما اظن ابا الطيب هجا كافوراً الا حين اشرف على اليأس منه وانقطع عن مدحه زمناً طويلا وذلك في سنة ٣٤٨ فما بعدها .

والقطعة التي يقول فيها :

وأسود اما القلب منه فضيق　　نخيب واما بطنه فرحيب

يموت به غيظاً على الدهر اهله　　كما مات غيظاً فاتك وشبيب

نُظمت بعد موت فاتك في شوال سنة ٣٥٠ .

والقطعة التي يقول فيها:

فليته خلى لنا طرقنا　　اعانه الله وايانا

قيلت حين همّ بالرحيل .

واحسب بعض القطع انشئت بعد خروجه من مصر . واما القصيدتان اللتان يقال انهما وجدتا في رحله بعد قتله فسيأتي الكلام فيهما.

الفصل الرابع عشر

ابو الطيب في العراق

أ — حال العراق إذ ذاك :

نشأت دولة بني بويه في اوائل القرن الرابع الهجري، وتعاون الاخوة الثلاثة علي والحسن وأحمد بنو بويه على التسلط في فارس والعراق واستولى أصغرهم احمد على بغداد سنة ٣٣٤ ، وكان بها الخليفة العباسي المستكفي بالله فمنحهم الولاية على ما بأيديهم ولقب علياً عماد الدولة ، والحسن ركن الدولة ، واحمد معز الدولة . وقد تنازع بنوهم على السلطان من بعد وتشعبت اماراتهم . وبقي ملكهم في العراق الى سنة ٤٤٧ حين استولى عليه السلاجقة .

بقي معز الدولة في بغداد حتى توفي سنة ٣٥٦ ، وكان استيلاؤه على العراق ايذاناً بانتقال السلطان جملة من ايدي الخلفاء الى ملوك البويهيين . فبعد اسابيع من دخوله بغداد خلع الخليفة المستكفي بالله وسمل عينيه وولى مكانه الخليفة المطيع .

وكان هذا الاستيلاء ايذاناً بالخراب فقد شغب الجند على معز الدولة طالبين أرزاقهم فأخذ الاموال من الناس ظلماً . وأقطع قواده القرى جميعها ، فأهملوا الطرق والمشارب فخربت المزارع . وكانوا كلما نقص الدخل زاد ظلمهم، ومصادرتهم اموال الناس .

وقدم ابو الطيب العراق بعد ستة عشر عاماً من استيلاء معز الدولة فوجد الحال اسوأ مما تركها . واقام بالكوفة التي هجرها في صباه مرات فراراً من القرامطة والاعراب ، فشهد بعد سنتين غارة بني كلاب عليها وشارك هو في الحرب والدفاع عنها وسيأتي ذكر هذا بعد .

وكان يلي الوزارة الحسن بن محمد المعروف بالوزير المهلبي - وليها ثلاثة عشر عاماً وثلاثة اشهر من سنة ٣٣٩ الى سنة ٣٥٢ .

وكان اديباً شاعراً اجتمع حوله جماعة من الادباء منهم القاضي التنوخي، وأبو الفرج الاصفهاني . ومدحه جماعة من الشعراء منهم السري الرفاء وابن البقال . وألف علي بن هرون المنجم كتاباً باسمه .

وكان جواداً ذا مروءة معواناً لاصحاب الحاجات . رتب لرجل فقير عرف أنه من اولاد معن بن زائدة مائة دينار وكسوة كل سنة ، ولما مات التنوخي صلى عليه ، وقضى دينه وكان خمسين ألف درهم .

وكان مسرفاً في بذخه كلفاً بمجالس اللهو والمجون عرف بها. وسنرى ما كان بينه وبين أبي الطيب .

ب — أقام ابو الطيب في العراق منذ قدمها في ربيع الاول سنة احدى وخمسين وثلثمائة الى ان سافر الى فارس في صفر سنة اربع وخمسين . وذلك زهاء ثلاث سنين . وكانت اقامته ببلده الكوفة. ولسنا ندري كم مرة ذهب الى بغداد. والروايات تعرف قدومه الى بغداد واقامته بها مرة واحدة . وسنرى ان بغداد لم تكرم مثواه فأحسبه ما ذهب اليها من بعد الا في طريقه الى فارس سنة اربع وخمسين وثلثمائة .

ولا نعرف من سيرته بالكوفة الا ما يتصل بشعره من الوقائع : في جمادي الثانية سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة كان

هجاؤه لضبة بن يزيد العيني .

وفي نسخ كثيرة من الديوان قصة هذا الهجاء متفقة في فحواها مختلفة في التفصيل . واوفاها رواية المعري ونسخة بغداد. وهذا نسقها :

« كان قوم من اهل العراق قتلوا يزيد العيني ونكحوا امرأته ونشأ له منها ولد بالعين يسمى ضبة يغدر بكل من نزل به واكل معه وشرب .

واجتاز ابو الطيب بالطف فنزل بأصدقاء له. وسارت خيلهم الى هذا العبد واستركبوه فلزمه السير معهم. فدخل العبد الحصن وامتنع به واقاموا عليه اياماً لا سلاح له الا شتمهم من وراء الحصن اقبح شتم . ويُسمي ابا الطيب ويشتمه . واراد القوم ان يجيبوه بمثل ألفاظه وسألوه ذلك فتكلف لهم على مشقة. وعلم انه لو سبه لهم معرّضاً لم يفهم ولم يعمل فيه عمل تصريح فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال : الخ » .

وهي قصيدة بلغ فيها الغاية من الاقناع . وابو الطيب اذا

حقد افاض حقده هجاء لا يبالي فيه ما يقول . وسير ابي الطيب مع اصدقائه لقتال ضبّة أو شتمه دليل على ما تمكن فيه من طباع البادية . ثم افحاشه في هـذا الهجاء لا يقوم به الاعتذار بأن ضبة لم يكن يفهم التعريض فمن قبل هجا ابن كيغلغ فلم يقصر عن فحش .

يقول ابن جني في شرحه ديوان ابي الطيب « ورأيته وقد قرأت عليه هذه القصيدة وهو ينكر انشادها . وقال الواحدي « كان المتنبي اذا قرئت عليه هذه القصيدة ينكر انشادها . وانا ايضا والله انكر كتابتها وتفسيرها . ولست ارويها . انما احكيها على ما هي عليه . واستغفر الله تعالى من خط ما لا يزلف لديه »

وبعد ستة اشهر من هذه الواقعة كانت حوادث في الكوفة اشترك فيها ابو الطيب وقاتل ، ثم مدح قائد الجيش الذي قدم من بغداد لحرب الاعراب الذين اغاروا على البلد

قال في شرح المعري:

ونجم خارجي من بني كلاب بظهر الكوفة . وذكر انه :ز

خلقاً من اهل الـكوفة قد اجابوه وحلفوا له فسارت اليهـا بنو كلاب معـه ليأخذها . ورفعت الرايات . وخرج ابو الطيب على الصوت من ناحية قطوان . فلقيته قطعة من الخيل في الظهر فقاتلها ساعة . فانكشفت وقد جرح فيها وقتل منها . وسار في الظهر حتى دخل الى جمع السلطان والرعيـة من درب البراجم . ووقعت المراسلة سـائر اليوم . وعادوا من غد فوقتلوا الى آخر النهار فـلم يصنع الخارجي شيئاً . ورجع وقد اختلفت فيه بنو كلاب وتبرأ بعضها منه . وعاد بعـد اربعة ايام فالتقوا في الظهر فوقعت بالسلطان والعامة جراح . وقُتل من بني كلاب . وطعن فرس لابي الطيب تحت غلام له في ابته فمات لوقته . فحمله ابو الحسن محمد بن عمر العلوي على فرس . وجرح غلام له فرسين وقتل رجلا .

وعادوا من غد فالتقى الناس عنددار أسلم وبينهم حائط فقتل من بني كلاب بالنشاب عدة فانصرفوا ولم يقفوا لقتال .

ووردت الاخبـار الى بغداد فـار ابو الفوارس دلّير بن

لشكروز في جماعة من القواد فورد الكوفة بعد رحيل بني كلاب وانفذ الى ابي الطيب ساعة نزل ثيابا نفيسة من ديباج رومي وخز وديبقي فقال يمدحه ، وانشده اياها في الميدان وهما على فرسيهما . وكان تحت دلير فرس جواد اصفر وعليه حلية ثقيلة . فقاده اليه. وذلك كله في ذي الحجة سنة ٣٥٣ »

ومطلع القصيدة :

كدعواك كل يدعي صحة العقل　　ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
لهنك اولى عاذل بملامة　　واحوج ممن تعذلين الى العذل
تقولين ما في الناس مثلك عاشق　　جدي مثل من احببته تجدي مثلي
محب كني بالبيض عن مرهفاته　　وبالحسن في اجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير انني　　جناها احبائي واطرافها رسلي
عدمت فؤادا لم تبت فيه فضلة　　لغير الثنايا الغر والحدق النجل

ويصف ممدوحه بالعفة والشجاعة ، وهما خلتان يحبهما الشاعر:

عفيف تروق الشمس صورة وجهه　　فلو نزلت شوقا لحاد الى الظل
شجاع كأن الحرب عاشقة له　　اذا زارها فدته بالخيل والرجل

وريان لا تصدي الى اخمر نفسه   وصديان لا تروي يداه من البذل

فتمليك دنّيز وتعظيم قدره   شهيد بوحدانية الله والعدل .

ج — ابو الطيب في بغداد

ذهب ابو الطيب الى بغداد بعد رجوعه من مصر الى الكوفة . ولا ندري متى ذهب اليها ولكننا نعلم انه خرج منها في شعبان سنة اثنتين وخمسين ونحن نعرف انه لقى الوزير المهلّبي حين قدومه بغداد ونعرف ان المهلبي برح بغداد الى البصرة في جمادي الاخرة سنة اثنتين وخمسين ، ومات قبل ان يرجع الى دار الخلافة. فقد كان ابو الطيب ببغداد من جمادى الى شعبان . ولا ندري كم اقام قبل هذا . واحسبه لم يطل الاقامة بها

نزل في ربض حميد في الجانب الغربي من بغداد في دار علي بن حمزة البصرة اللغوي الذي روى ديوانه ، وروى عنه ابن جني بعض اشعار ابي الطيب . وبقي ضيفه الى ان رحل عن المدينة [1] .

---

(١) الخطيب . وياقوت ج ٢ ص ٥٠٢

وكان ببغداد معزّ الدولة بن بويه ووزيره المهلبي . ولا ريب انهما تطاعا الى مدح الشاعر النابه الذي اشاد ببني حمدان خصوم بني بويه ، ولكن ابا الطيب لم يمدح الملك ولا وزيره . فلماذا ؟

قال صاحب الايضاح : فلما حصل المتنبي ببغداد نزل في ربض حميد فركب الى المهلبي فأذن له فدخل وجلس الى جنبه ، وصاعد خليفته دونه ، وابو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الاغاني . فأنشدوا هذا البيت :

سقى الله امواهاً عرفت مكانها جراما وملكوما وبذّر فالغمرا

وقال المتنبي جرابا . وهذه امكنة قتلتها علما . وانما الخطأ وقع من النقلة فانكره ابو الفرج (قال الشيخ هذا البيت انشده ابو الحسن الاخفش صاحب سيبويه في كتابه جراما بالميم . وهذا الصحيح وعليه علماء اللغة) وتفرق المجلس عن هذه الجملة . ثم عادوا في اليوم الثاني . وانتظر المهلبي انشاده فلم يفعل . وانما صده ما سمعه من تماديه في السخف ، واستهتاره بالهزل واستيلاء اهل الخلاعة عليه . وكان المتنبي مر النفس صعب الشكيمة حادا مجدا

فخرج . فلما كان اليوم الثالث اغروا به ابن الحجاج حتى علق بلجام دابته في صينية الكرخ وقد تكابس الناس عليه من الجوانب وابتدأ ينشده :

يا شيخ أهل العلم فينا ومن   يلزم أهل العلم توقيره

فصبر عليه المتنبي ساكتا ساكنا الى ان نجزها ثم خلى عنان دابته . وانصرف المتنبي الى منزله » . وابن الحجاج هذا شاعر خليع ماجن فلم يكن ابو الطيب ليعبأ به

وقد روى ياقوت عن المحسن بن ابراهيم بن هلال الصابي عن والده ابي اسحاق قال : « راسلت ابا الطيب المتنبي رحمه الله في ان يمدحني بقصيدتين واعطيه خمسة آلاف درهم . ووسطت بيني وبينه رجلا من وجوه التجار . فقال قل له والله ما رأيت في بالعراق من يستحق المدح غيرك ولا اوجب عليّ في هذه البلاد احد من الحق ما اوجبت. وان انا مدحتك تنكر لك الوزير (يعني ابا محمد المهلبي) وتغير عليك لاني لم امدحه . فان كنت لا تبالي هذه الحال فانا اجيبك الى ما التمست ولا اريد منك منالا ولا عن

شعري عوضا . قال والدي فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمت انه قد نصح فلم اعاوده"[1]

فهذه الرواية ترينا تطلع الرؤساء الى مدح ابي الطيب وان المهلبي كان راغبا في مديحه مغيظا من اغفاله اياه . وروى ياقوت في اخبار علي بن يوسف البقال ان المهلبي احضره فانشده بحضرة المتنبي وان المتنبي قال ما رأيت ببغداد من يجوز ان يقطع عليه اسم شاعر الا ابن البقال"[2]

ولست ارى رأي الثعالبي في اليتيمة ان ابا الطيب ترفع عن مدح المهلبي ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك . فلو صح هذا ما مدح ابن العميد . والذي اراه ان ابا الطيب ازدرى المهلبي كما قال صاحب الايضاح وان المهلبي لم يلقه من التكريم والاعظام بما ينشطه الى مدحه . وكان ابو الطيب يريد مدحه ولذلك زاره مرتين . وكان المهلبي وسيلته الى معز الدولة كما كان ابن العميد وسيلته الى عضد الدولة فلما غاضب المهلبي لم يجد الى معز الدولة وسيلة .

---

(١) ياقوت ج ١ ص ٣٤٦ . (٢) ج ٢ ص ٥١٢ .

اغرى المهلبي جماعة من شعراء بغداد فوقعوا في أبي الطيب

قال الثعالبي : « فاغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه ، وتباروا في هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة الهاشمي ، والحاتمي واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه فلم يجبهم ولم يفكر فيهم. وقيل له في ذلك. فقال اني قد فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم ارفع طبقة منهم في الشعراء :

اری المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقولي :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه واغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم غير انني بغيض اليّ الجاهل المتعاقل

وقولي :

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وبلغ ابا الحسين بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه واستحقارهم له ، وكان حاسداً له طاعناً عليه هاجياً اياه زاعماً ان اباه كان سقاء بالكوفة، فشمت به وقال:

قولا لاهل زمان لا خلاق لهم

ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا

أعطيتم المتنبي فوق مُنيته فزوّجوه برغم أمهاتكمُ

لكنّ بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقاء تزدحم

وفي اليتيمة بعد هذا قطعتان أخريان من اهاجي بن لنكك فيهما ستة ابيات .

مناظرة الحاتمي

ومما كان بين أبي الطيب وبين أعوان المهلبي ما حكاه الحاتمي في مناظرته لابي الطيب ببغداد [1]. وأظن الحاتمي قد كذب على خصمه وبالغ فيما ادعى ارضاءً للمهلبي. والناقد الخبير يعرف ألوان

---

(١) أنظر ياقوت : الحاتمي ، والصبح المبي .

التناقض والكذب في دعاويه. وليس يتسع المجال هنا لذكرها ونقدها.

وقد قال ياقوت عن الحاتمي هذا إنه كان مبغَّضاً لاهل العلم وهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاجٍ مرة.

وفي اقامة أبي الطيب بمدينة السلام قرئ عليه ديوانه وسمعه جماعة منهم علي بن حمزة البصري راوية الديوان وابن جني، والقاضي أبو الحسن المحاملي (١).

ويذكر الثعالبي وغيره قصه المتنبي في بغداد ثم يقولون انه خرج منها الى ابن العميد. وليس هذا حقاً فقد لبث سنة ونصفاً في الكوفة بعد مفارقته بغداد ثم مرّ بها في طريقه الى أرّجان.

الفصل الخامس عشر

ابو الطيب وسيف الدولة

لما سمع سيف الدولة بخروج أبي الطيب من مصر مراغماً كافوراً وبلوغه الكوفة كاتبه معرضاً برجوعه الى حلب وأهدى

---

(١) الخطيب وياقوت ج ٥، ص ٢٠٢ .

إليه مرة بعد مرة . وفي بعض نسخ الديوان أنه ارسل ابنه اليه .
فأجابه أبو الطيب في شوال سنة ٣٥٢ بعد ست سنين من فراقه
بقصيدة يتبين فيها حزنه واكباره سيف الدولة، ولكنه يتغاضى
عما اراده الامير من رجوع شاعره اليه . وكان سيف الدولة خرج
وهو مريض للقاء الروم وقد ساروا لغزو طرسوس فرجعوا . وبلغ
ابا الطيب الخبر فذكر حرب الروم في قصيدته . يقول في مطلعها:

مالنا كلنا جوٍ يا رسول   أنا اهوى وقلبك المتبول
كلما عاد من بعثت اليها   غار مني وخان فيما يقول
أفسدت بيننا الامانات عينا   ها وخانت قلوبهنّ العقول

وفي هذا اشارة الى حساده الذين أفسدوا بينه وبين سيف
الدولة . ثم يقول فيمزج الحزن بالنسيب :

زوّدينا من حسن وجهك مادام   فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك، في هذه الدنيا   فان المقام فيها قليل
من رآها بعينها شاقه القطانُ   فيها كما تشوق الحمول

ويقول في مدح سيف الدولة :

الذي زلت عنه شرقاً وغرباً ونـداه مقـابلي ما يزول
ومعي اينما سلكت كأني كل وجه له بوجهي كفيل

الى ان يقول :

كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الاعادي ربط السدرُ خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما أنه العزيز الذليل
أنت طولَ الحياة للروم غاز فمتى الوعد ان يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى اي جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

وفي هذا تعريض بالاخشيديين وبني بويه ملوك مصر والعراق.

لست ارضى بأن تكون جواداً وزماني بأن اراك بخيل
نغّص البعدُ عنك قربَ العطايا مرتعي مُخصب وجسمي هزيل
إن تبوأت غير دنياي داراً وأتاني نيل فأنت المنيل
من عبيدي ان عشت لي ألف كافو ر ومن نداك ريف ونيل النح.

ثم توفيت أخت سيف الدولة الكبرى في ميافارقين (لثلاث خلون من جمادي الثانية سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة) وورد خبرها الى العراق فقال يرثيها في شعبان بقصيدة اولها :

يا اخت خير اخ يابنت خير اب ... كناية بهما عن اشرف النسب

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي الى الكذب

حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

وكان لهذا الرثاء اثره في نفس ابن حمدان فارسل بعد الى ابي الطيب هدية ومالا وأمانا بخطه وكتابا يستدعيه. فكتب ابو الطيب في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين قصيدة اولها :

فهمت الكتاب أبرّ الكتب ... فسمعاً لأمر امير العرب

وطوعاً له وابتهاجاً به ... وان قصّر الفعل عما يجب

ويقول معتذراً عن القعود عنه :

وما عاقني غير خوف الوشاة ... وإن الوشايات طرق الكذب

وتكثير قوم وتقليلهم ... وتقريبهم بيننا والخبب

وقد كان ينصرهم سمعه ... وينصرني قلبه والحسب

وما قلت للبدر انت اللجين ولا قلت للشمس انت الذهب
فيقلق مني البعيد الاناة ويغضب مني البطيء الغضب
وما لاقني بلد بعدكم ولا اعتضت من رب نعماي رب
ومن ركب الثور بعد الجواد انكر أظلافه والغبب
وما قست كل ملوك البلاد فدع ذكر بعض بمن في حلب

ويذكر محاربته الروم ووقوفه حامياً للثغور الاسلامية. ثم يختم القصيدة بقوله :

أرى المسلمين مع المشركين اما لعجز واما رهب
وانت مع الله في جانب قليل الرقاد كثير التعب
كأنك وحدك وحدته ودان البرية بابن واب
فليت سيوفك في حاسد اذا ما ظهرت عليهم كئب
وليت شكاتك في جسمه وليتك تجزي ببغض وحب
فلو كنت تجزي به نلت منك أضعف حظ بأقوى سبب

ويتبين من هذه القصيدة أن أبا الطيب كان لا يزال عاتباً على سيف الدولة معاتباً اياه على ما كان يصغي الى المفسدين بينهما

في الحين بعد الحين .

انظر قوله: وقدكان ينصرهم سمعه الخ. وقوله آخر القصيدة:

وليتك تجزي ببغض وحبّ الخ . وكان الى هذا العتب

يخشى ان يعود الوشاة الى الافساد بينهما :

وما عاقني غير خوف الوشاة وان الوشايات طرق الكذب

ثم كان الى هذا وذاك حياء الشاعر من لقاء الامير ومصاحبته

بعدما فارقه مراغماً وعرّض به في القصائد المصريات .

وسنرى انه في مدح عضد الدولة لم يتجنب ما يسيء الى سيف

الدولة كقوله :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

وقد روى أن سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال :

ترى هل نحن في الجملة ؟

ولو انه كان يفكر في الرجوع الى بني حمدان بعد العودة الى

العراق او يرى هذه المودة ممكنة يوماً ما لتجنب ما يسوء الامير

وما يكدّر المودة بعدما صفت .

الفصل السادس عشر

ابو الطيب في فارس

- ١ -

عند ابن العميد

قال ابن خلكان في ترجمة ابي الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور الاخشيدي :

« ذكر الخطيب أبو زكريا التبريزي في شرحه ديوان المتنبي أن المتنبي لما قصد مصر ومدح كافوراً مدح الوزير ابا الفضل المذكور بقصيدته الرائية التي اولها: باد هواك صبرت أم لم تصبرا وجعلها موسومة باسمه. فكانت احدى قوافيها جعفراً وكان قد قال فيها :

صغت السوار لاي كف بشرت   بابن الفرات واي عبد كبرا

فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده اياها. فلما توجه الى عضد الدولة قصد ارّجان، وبها ابو الفضل بن العميد فحوّل

القصيدة اليه ، وحذف منها لفظ جعفر ، وجعل ابن العميد مكان ابن الفرات » .

وقال صاحب الايضاح : « وكان السبب في قصده ابا الفضل ابن العميد على ما اخبرني ابو علي بن شبيب القاشاني — وكان احد تلامذتي ودرس عليّ بقاشان سنة ثلثمائة وسبعين وتوزّر للاصبهبد بالجبل ، وابوه ابو القاسم توزّر لوشمكير بجرجان — عن العلوي العباسي نديم ابي الفضل بن العميد الذي يقول فيه :

أبلغ رسالاتي الشريف وقل له　　قدك اتّئد أربيت في الغلواء

ان المعروف المطوق الشاشي كان بمصر وقت المتنبي فعمد الى قصيدته في كافور : أغالب فيك الشوق والشوق اغلب . وجعل مكان ابا المسك ابا الفضل . وسار الى خراسان وحمل القصيدة اعني قصيدة المتنبي الى ابي الفضل وزعم انه رسوله فوصله ابو الفضل بألفي درهم . واتصل هذا الخبر بالمتني ببغداد فقال رجل يعطي لحامل شعري هذا فما تكون صلته لي ؟ » (١) .

---

(١) الخزانة ج ١ س ٣٨٥ .

وهاتان روايتان خليقتان بالرد ، ويكفي التأمل في القصيدتين لنرى كذب الروايتين . ففي القصيدة الرائية ابيات لا تصلح لخطاب ابن الفرات ولا مدحه ، وأبيات تصف سفر ابي الطيب الى ارّجان . وما كان ابو الطيب عييّاً بالشعر فيحول قصيدة من مدح ابن الفرات الى مدح ابن العميد ويتكلف حذف ابيات واثبات ابيات ، وتغيير اخرى لتلائم ممدوحه الثاني .

والقصيدة البائية فيها ندم ابي الطيب على فراق سيف الدولة وابيات فيها اسم كافور ، وابيات فيها لوم كافور على حرمانه الشاعر مما أمّل . ويذكر الشاعر في القصيدة العيد وشوقه الى اهله . ثم ابيات اخرى لا تلائم مدح ابن العميد . وما كان الناشئ ليغفل عن هذا وما كانت هذه الرسالة المفتراة لتخيل عند ابن العميد النقادة .

وروى صاحب الصبح المنبي ان ابن العميد كان يخاف ألاّ يقصده أبو الطيب ويعامله معاملة المهلبي ، فكان يتحامل عليه ويغضّ من شعره .

روي عن بعض اصحاب ابن العميد قال : « دخلت عليه يوماً

قبل دخول المتنبي فوجدته واجماً ، وكانت قد ماتت اخته عن قريب فظننته واجداً لاجلها . فقلت لا يحزن الله الوزير فما الخبر؟ قال انه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في ان اخمل ذكره وقد ورد عليّ نيفٌ وستون كتاباً في التعزية ما منها الا وقد صدّر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب

حتى اذا لم يدع لي صدقه املا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى اخماد ذكره ؟ فقلت القدر لا يغالب والرجل ذو حظ من اشاعة الذكر واشتهار الاسم . فالاولى ألاّ تشغل فكرك بهذا الامر .

ويؤخذ من رواية الصبح المنبي ان ابن العميد لم يرسل الى المتنبي يدعوه . وفي بعض نسخ الديوان انه ارسل اليه .

ومهما يكن فقد فصل من مدينة السلام يوم الخميس ١١ صفر سنة ٣٥٤ [1] ، وذلك بعد سبعة عشر شهراً من خروجه من بغداد

---

(١) شرح ابن جني .

المرة الاولى بعد ان يئس من المهلبي ومعز الدولة ، وسار من طريق الاهواز ولقيه التنوخي بها كما في تاريخ الخطيب . وبلغ ارّجان في الشهر نفسه . ويحدثنا صاحب الايضاح عن دخوله ارّجان رواية عن بن جني عن علي بن حمزة البصري قل: « كنت مع المتنبي لما ورد ارجان . فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن . فضرب بيده على صدره وقال تركت ملوك الارض يتعبدون بي وقصدت رب هذه المدرة . فما يكون منه ؟ ثم وقف بظاهر المدينة وارسل غلاماً على راحلته الى ابن العميد . فدخل عليه وقال مولاي ابو الطيب خارج البلد . وكان وقت القيلولة وهو مضطجع في دسته . فثار من مضجعه واستثبته ثم امر حاجبه باستقباله . فركب واستركب من لقيه في الطريق . ففصل عن البلد بجمع كثير فتلقوه وقضوا حقه وادخلوه البلد . فدخل على ابي الفضل فقام له من الدست قياماً مستوياً . وطُرح له كرسيّ عليه وسادة ديباج. وقال ابو الفضل: كنت مشتاقاً اليك يا ابا الطيب .

ثم أفاض المتنبي في حديث سفره ، وان غلاماً له احتمل سيفاً وشذّ عنه . واخرج من كمه عقب هذه المفاوضة درجاً فيه قصيدته: بادهواك صبرت ام لم تصبرا .

فوحى ابو الفضل الى حاجبه بقرطاس فيه مائتا دينار وسيف غشاؤه فضة وقال هـذا عوض عن السيف المأخوذ . وأفرد له داراً نزلها . فلما استراح من تعب السفر كان يغشى اباالفضل كل يوم ويقول ماازورك اكباباً الا لشهوة النظر اليك ، ويؤا كله [1] . »

لبث أبو الطيب شهرين عند ابن العميد . وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه .

وقد مدح الشاعر ابن العميد بثلاث قصائد الاولى التي مطلعها:

بادهواك صبرت ام لم تصبرا وبكاك ما لم يجر دمعك اوجرى

وفيها يقول بعد النسيب :

---

(١) الخزانة ج ١ .

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه   وأراد لي فأردت أن أتخيرا

أرجان أيتها الجياد فانه   عزمي الذي يدع الوشيج مكسرا

لو كنت افعل ما اشتهيت فعاله   ماشق كوكبك العجاج الا كدرا

أمي ابا الفضل المبر أليتي   لأيممن اجل بحر جوهرا

افتى برؤيته الانام وحاش لي   من ان اكون مقصرا او مُقصرا

صغت السوار لاي كف بشرت   بابن العميد واى عبد كبرا

ان لم تغثني خيله وسلاحه   فمتى اقود الى الاعادي عسكرا

فقد رجع الى ذكر الخيل والسلاح والاعادي كما ترى في البيت الاخير . ويصف بلاغة ابن العميد ومهابته ثم يقول :

أرأيت همة ناقتي في ناقة   نقلت يداً سُرُحاً وخفاً مجمرا

تركت دخان الرمث في اوطانها   طلباً لقوم يوقدون العنبرا

وتكرمت ركباتها عن مبرك   تقعان فيه وليس مسكا اذفرا

فأتتك دامية الأظل كأنما   حذيت قوائمها العقيق الاحمرا

بدرت اليك يد الزمان كأنها   وجدته مشغول اليدين مفكرا

مَن مُبلغ الاعراب أني بعدهم   لاقيت رسطاليس والاسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتبه　　متملكا متبدّياً متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما　　ردّ الاله نفوسهم والاعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدّماً　　واتى «فذلك» إذ أتيت مؤخرا

ربما يظن أن في قول ابي الطيب: « تركت دخان الرمث الخ » و « من مبلغ الاعراب الخ » تحقيراً للعرب لا يحمل بهذا الشاعر العربيّ القحّ. وجواب هذا في الكلام على العروبة في شعر ابي الطيب فيما يأتي.

والقصيدة التالية مدحه بها يوم النوروز وقد انتقد شعره فهو يمدحه ويعتذر بقوله:

هل لعذري عند الهمام ابي الفضل　　قبول سواد عيني مداده ؟

أنا من شدة الحياء عليل　　مكرمات المعلّه عوّاده

ما كفاني تقصير ما قلت فيه　　عن عُلاه حتى ثناه انتقاده

انني أصيد البزاة ولكنّ　　اجلّ النجوم لا أصطاده

رُبّ ما لا يعبّر اللفظ عنه　　والذي يضمر الفؤاد اعتقاده

ما تعودت ان ارى كأبي الفضل وهـذا الذي اتاه اعتياده
ان في الموج للغريق لعذراً واضحاً ان يفوته تعداده
لاندى الخلق انه فاض والشعر عمادي وابن العميد عماده
نال ظني الأمور إلاّ كريماً ليس لي نطقه ولا فيّ آده
ظالم الجود كلما حلّ ركب سيم أن تحمل البحارَ مزاده
غمرتني فوائد شاء فيها ان يكون الكلام مما أفاده
ما سمعنا بمن احبّ العطايا فاشتهى ان يكون فيها فؤاده

وهذا اعتراف بما اخذه ابن العميد عليه ، واعتذار عنه .

وكأن شاعرنا استشعر الهيبة حين مدح أديباً كبيراً وهو لم يتعود مدح الادباء النقّاد. كما يقول : ما تعودت ان ارى كأبي الفضل الخ. وقد أدرك الواحدي هذا فقال في شرح هذا البيت : وهذا يدل على تحرز المتنبي منه وتواضعه له . ولم يتواضع لأحد في شعره ما تواضع له .

وبعد هذه القصيدة في الديوان قطعتان الاولى خمسة ابيات أنشأها حين ورد عليه كتاب من ابي الفتح بن ابي الفضل بن

العميد يثني عليه ويذكر شوقه اليه ، وهي :

بكتب الأنام كتاب ورد   فدت يد كاتبه كل يد
يعبر عما له عندنا   ويذكر من شوقه ما نجد. الخ

والثانية أربعة ابيات يصف فيها مجمرة رآها عند ابن العميد

أحب امرئ حبت الانفس   واطيب ما شمه معطس
ونشر من الند لكنما   مجامره الآس والنرجس. الخ

ثم يودعه بالقصيدة الثالثة :

نسيت وما أنسى عتاباً على الصد   ولا خفراً زادت به حمرة الخد

وفيها يصف غلمانه الذين صحبوه في اسفاره كما وصفهم من قبل في مرثية فاتك الميمية :

تبدل ايامي وعيشي ومنزلي
نجائب لا يفكرن في النحس والسعد

واوجه فتيان حياء تلثموا   عليهن لا خوفاً من الحر والبرد
وليس حياء الوجه في لذئب شيمة   ولكنه من شيمة الاسد الورد
إذا لم تجزهم دار قوم مودة   أجاز القنا والخوف خير من الود

يحيدون عن هزل الملوك الى الذي   توفر من بين الملوك على الجد

الى ان يقول في مدح ابن العميد :

فان يكن المهديّ من بان هديه   فهذا والاّ فالهدى ذا فما المهدي؟

ثم يقول :

تفضلت الايام بالجمع بيننـا   فلما حمدنا لم تدمنا على الحمـد

وفي هذا تسوية نفسه بابن العميد وهي عادته في مدائحـه .

ثم يذكر اهله وانتظارهم رجوعه :

وقد كنت ادركت المنى غير انني   يعيرني اهلي بادراكها وحدي

— ٢ —

عند عضد الدولة

كان عضد الدولة بصيراً بالادب له شعر جيد . وكانت دولته هو وبني بويه عامـة دولة للادب عربي . وتولى الوزارة لهم ابن العميـد والصاحب والمهلبي وكان عضد الدولة يسمع بأبي الطيب ويتمنى قدومه عليه في الايضاح انه كان جالساً في البستان الزاهر في يوم زينته واكابر حواشيه وقوف . فقال ابو القاسم عبدالعزيز

ابن يوسف الحكارى : ما يعوز مجلس مولانا سوى احد الطائيين فقال عضد الدولة : لو حضر المتنبي لناب عنهما .

أرسل عضد الدولة الى ابن العميد يسأله ان يدعو أبا الطيب الى المسير اليه . وكان الشاعر يريد العود من ارّجان الى الكوفة. وفي قصيدة وداع ابن العميد مايشعر بهذا. فقد اعتذر عن الرحيل بتطلع أهله اليه، وهذا صريح في كلام صاحب الايضاح فهو يقول: « لما ودّع ابا الفضل ابن العميد ورد كتاب عضد الدولة يستدعيه. فعرّفه ابن العميد . فقال مالي وللديلم ؟ فقال ابو الفضل : عضد الدولة افضل مني ، ويصلك بأضعاف ماوصلتك به . فأجاب بأني ملقّى من هؤلاء الملوك. أقصد الواحد بعد الواحد، واملكهم شيئاً يبقى ببقاء النيرين، ويعطوني عرضاً فانياً. ولي ضجرات واختيارات فيعوقوني عن مرادي فأحتاج الى مفارقتهم على اقبح الوجوه . فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث فورد الجواب بأنه مملّك مراده في المقام والظعن » .

سار من أرّجان فلما كان على اربعة فراسخ من شيراز

استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ أخي أبي محمد الابهري صاحب كتاب حدائق الآداب . فلما تلاقيا وتسايرا استنشده فقال المتنبي الناس يتناشدونه فاسمعه . فأخبر أبو عمر انه رسم له ذلك عن المجلس العالي . فبدأ بقصيدته التي فارق مصر بها :

ألا كلّ ماشية الخيزلى فدى كلّ ماشية الهيدبى

ثم دخل البلد فأُنزل داراً مفروشة . ورجع ابو عمر الصباغ الى عضد الدولة فأخبره بما جرى وانشده ابياتاً من كلمته وهي :

فلما أنخنا ركزنا الرماح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل اسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت واني عتوت على من عتا

فقال عضد الدولة: هو ذا يتهددنا المتنبي .

ثم لما نفض غبار السفر واستراح ركب الى عضد الدولة فلما توسط الدار انتهى الى قرب السرير مصادمة[1] فقبل الارض

---

(١) لعلها مصادفة .

واستوى قائماً . وقال شكرت مطية حملتني اليك ، وأملا وقف بي عليك . ثم سأله عضد الدولة عن مسيره من مصر ، وعن علي بن حمدان فذكره وانصرف . » اهـ .

أنشأ ابو الطيب عند عضد الدولة ست قصائد وارجوزة طردية وقطعة . واحدى القصائد تعزية بعمة عضد الدولة التي توفيت ببغداد، والاخريات مدائح ليس فيها من التاريخ الاوصفه هزيمة وهشوذان الكردي الثائر على بني بويه في قصيدتين . واول القصائد القصيدة التي مطلعها :

اوه بديل من قولتي واها　　لمن نأت والبديل ذكراها

ويؤخذ من الايضاح ان الاولى هي :

مغاني الشعب طيبا في المغاني　　بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن ترتيب الديوان وعنوان الاولى في النسخ ، وقوله في الثانية يصف ابنى عضد الدولة :

ولم أر قبله شبلي هزبر　　كشبليه ولا مهري رهان

وهو لم يرهما الا بعد قدومه الى شيراز .

كل هذا يدل على ان الاولى هي : اوه . الخ

والذي يعنينا من هذه القصائد في تاريخ ابي الطيب انه استوحش من فقد العربية في فارس، وذكر الشام وحنّ اليها في قصيدتين ولم نرَ ذلك في شعره بمصر والعراق . يقول في القصيدة الاولى :

أحبّ حمصاً الى خُناصرة وكل نفس تحب محياها . الخ

ويقول في الثانية :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

الى ان يقول وقد افتقد الضيافة التي تعودها في بلاد العرب :

ولو كانت دمشق ثنى عناني لبيق الثرد صينيّ الجفان
يلنجوجيّ ما رُفعت لضيف به النيران ندّي الدخان
تحلّ به على قلب شجاع وترحل منه عن قلب جبان
بلاد لم يزل منها خيال يشيّعني الى النوبندجان

*
* *

وقد وصل عضد الدولة الشاعر صلات كثيرة. روى صاحب

الايضاح انه لما أنشده القصيدة الاولى « حمل اليه عضد الدولة من انواع الطيب في الاردية والامنان ، من بين الكافور والعنبر والمسك والعود . وقاد فرسه الملقب بالمجروح ، وكان اشترى له بخمسين ألف شاة ، وبدرة دراهمها عدلية ، ورداء حشوها ديباج رومي مفصل ، وعمامة قومت بخمسمائة دينار ، ونصلا هنديا مرصع النجاد والجفن بالذهب . »

وانه لما دخل عليه يوم نثر الورد قال ما خدمت عيناي قلبي كاليوم . وأنشده قطعة فأعطاه فرساً وخلعة وبدرة .

وروى صاحب اليتيمه انه وصله بأكثر من مائتي الف درهم ، وانه لما استأذنه في المسير أمر ان يخلع عليه الخلع الخاصة ، ويقاد اليه الحملان الخاص ، وتمادى صلته بالمال الكثير .

وقد ظهر اثر هذا في شعر ابي الطيب ولا سيما قصيدة التوديع .

أقام ابو الطيب في شيراز زهاء ثلاثة اشهر وقرئ عليه ديوانه ثم انشد قصيدة الوداع في شعبان سنة ٣٥٤ . ولا بدّ من

وقفة نتأمل فيها هذه القصيدة . يبالغ الشاعر في شكر الأمير ويقول :

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك ان يحل به سواكا
وقد حملني شكراً طويلا ثقيلا لا اطيق به حراكا
احاذر ان يشق على المطايا فلا تمشي بنا إلاّ سواكا

ويظهر الشاعر رغبته في الرجوع الى الامير :

لعل الله يجعله رحيلا يعين على الاقامة في ذراكا
فلو اني استطعت خففت طرفي فلم ابصر به حتى اراكا
وكيف الصبر عنك وقد كفاني نداك المستفيض وما كفاكا

ويقول :

وما انا غير سهم في هواء يعود ولم يجد فيه امتساكا

ويعتذر بان اهله في شوق اليه وحزن لغيابه :

وكم دون الثوية من حزين يقول له قدومي : ذا بذاكا
ومن عذب الرضاب اذا انخنا يقبل رحل تُروك والوراكا
يحرم ان يمس الطيب بعدي وقد عبق العبير به وصاكا

ويمنع ثغره من كل صب ويمنحه البشامة والاراكا
يحدث مقلتيه النوم عني فليت النوم حدث عن نداكا

ويقول ما يدل على انه يتوقع شرا في طريقه :

فزل يا بعد عن ايدي ركاب لها وقع الاسنة في حشاكا
وأيا شئت يا طرقي فكوني أذاة او نجاة او هلاكا
فلو سرنا وفي تشرين خمس رأوني قبل ان يروا السماكا
يشرد يمن فناخسر عنى قنا الاعداء والطعن الدراكا
والبس من رضاه في طريقي سلاحا يذعر الاعداء شاكا

فقوله : وايا شئت الخ . . وقوله ان يمن فناخسر يشرد عنه الاعداء والطعن ، ورضاه سلاح له في طريقه يشعر انه يخاف الطريق ، ويحذر عدوا عليها او لصا . وقد روى العكبري ان عضد الدولة قال : تطيرت عليه من ترك النجاة بين الاذاة والهلاك . ومعنى هذا ان سامع القصيدة شعر ان فيها مايتطير منه . وقد قال من قبل في قصيدة يصف الامن في بلاد عضد الدولة :

اروض الناس من ترب وخوف وارض ابي شجاع من امان

يُدِمّ على اللصوص لكل تجر ويضمن للصوارم كل جان

فهل هذا احساس بأن الطريق خارج مملكة عضد الدولة مخوف ؟ هذا مايعرب عنه كلامه . واحسبه عرف في العراق وفي طريقه الى ارجان فشيراز ان السبل مخوفة . ولا ادري أتوقع مع هذا شرا من عدو يقصده بسوء ام لا .

الفصل السابع عشر

رجوعه الى العراق وقتله في الطريق

خرج ابو الطيب من شيراز لثمان خلون من شعبان قاصدا بغداد فالكوفة[1]

ويقول بعض الرواة ان ابا الطيب لما قدم على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة الاف دينار وثلاثة افراس محلاة ثم دس اليه من يسأله اين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال ان سيف الدولة كان يعطي طبعا وعضد الدولة تطبعا . فغضب عضد الدولة واوصى الى جماعة ان يقتلوه.[2] وروى صاحب الايضاح ان عضد الدولة قال ان المتنبي كان جيد الشعر بالغرب . فلما بلغت

(١) ابن خلكان (٢) الصبح ص٩٩

المتنبي قال الشعر على قدر البقاع[1]

وهاتان روايتان لا تثبتان على النقد . فأبو الطيب قد أفرغ وسعه في مدح صاحبه ونال من جوائزه ماملأه شكرا . فكيف قال ما نسب اليه ؟ وكيف وهو يعلم ان كلامه حرى ان يبلغ عضد الدولة ؟

وعندنا رواية تخالف هذه :

قال صاحب الصبح المنبي : حكى عبد العزيز بن يوسف الجرجاني كاتب الانشاء عند عضد الدولة قال لما دخل ابو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه وقال له سله كيف شاهد مجلسنا واين الامراء الذين لقيهم منا . قال فامتثلت امره وجاريت المتنبي في هذا الميدان . واطلت معه عنان القول . فكان جوابه عن جميع ماسمع مني ان قال ماخدمت عيناى قلبي كاليوم . ولقد اختصر اللفظ واطال المعنى واجاد فيه . وكان ذلك من اوكد الاسباب التي حظى بها عند عضد الدولة .

---

(١) الخزانة ج ١

فهذه الرواية اشبه بحزم ابي الطيب . ولماذا يقول الشاعر في امير افاض عليه عطاءه ان هذا اعطاء متكلف وسيف الدولة كان يعطي طبعا ؟ا كان يبغي ارضاء سيف الدولة وهو في شيراز ولا يبالي اغضاب عضد الدولة وقد قصده وبذل في مدحه وسعه ونال من عطاياه ما اثقله شكرا . ورواية «الشعر على قدر البقاع» سبيلها في الرد والدحض سبيل اختها .

ثم ما الذي يغري ابن بويه بقتل شاعر عظيم اشاد بذكره وآثره بالمدح على ابن عمه معز الدولة ووعده ان يرجع اليه ايخلد مآثره . ان اعداء عضد الدولة اولى بهذه التهمة . وقد ادرك بعض المعاصرين ان قتل ابي الطيب اخفار لذمة عضد الدولة فانشأ ابياتا يحرضه فيها على عقاب من اخفروا ذمته . وسياتي هذا في رثائه

سار الشاعر براكبه واحماله وغلمانه حتى بلغ الاهواز .

وبين الاهواز وشيراز واحد وخمسون فرسخا. ثم سار خمسين فرسخاً حتى بلغ واسط . وهنا نقف لنعرض على القاري روايتين : الاولى مروية في الصبح المنبي عن الخالديين قالا :

« كنا قد كتبنا الى ابي نصر محمد الجبلي نسأله عما صدر لابي الطيب المتنبي بعد مفارقته عضد الدولة وكيف قتل – وابو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية وله فضل وادب جزل وحرمة وجاه – فأجابنا عن كتابنا جوابا طويلا يقول في اثنائه : واما ما سألتما عنه من خبر مقتل ابي الطيب فانا اسوقه واشرحه شرحاً بيناً . »

وفي هذا الشرح يذكر ابو نصر قتل ابي الطيب وسببه . ثم يبين تربص فاتك الاسدي في طريق الشاعر وعزمه على قتله فيقول :

« واما شرح الخبر فان فاتكا هذا صديق لي . وهو كما سمي فاتك لسفكه الدماء واقدامه على الاهوال في مواقف القتال . فلما سمع الشعر الذي هجى به ضبة اشتد غضبه . ورجع على ضبة باللوم وقال له كان يجب الاّ تجعل لشاعر عليك سبيلا . واضمر غير ما أظهر .

واتصل به انصراف المتنبي من فارس وتوجهه الى العراق . وعلم ان اجتيازه بجبل [1] دير العاقول . فلم يكن ينزل عن فرسه

(١) أظنها محرفة عن « جبة » أو « جبال » فليس عند دير العاقول جبل

ومعه جماعة من بني عمه رأيهم في المتنبي مثل رأيه من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد

وكان فاتك خائفا ان يفوته . وكان كثيرا ما ينزل عندي — فقلت له يوماً وقد جاءني وهو يسأل قوماً مجتازين عن المتنبي فقلت له اكثرت المسألة عن هذا الرجل . فأي شيء تريد منه اذا لقيته ؟ فقال ما اريد الا الجميل وعذله على هجاء ضبة . فقلت له هذا لا يليق باخلاقك . فتضاحك ثم قال : يا ابا نصر والله أن اكتحلت عيني به او جمعتني واياه بقعة لاسفكن دمه ، ولامحقن حياته . قلت له كف عافاك الله عن هذا القول، وازل هذا الرأي من قلبك فان الرجل شهير الاسم ، بعيد الصيت . ولا يحسن منك قتله على شعر قاله . وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية . والخلفاء في الاسلام . فما سمعنا بشاعر قتل بهجائه . وقد قال الشاعر :

هجوت زهيرا ثم اني مدحته وما زالت الاشراف تهجى وتمدح

ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله . فقال يفعل الله ما يشاء

وانصرف .

ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة ايام حتى وافانى المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينه والالات . لانه كان اذا سافر لم يخلف في منزله درهما ولا شيئا يساويه . وكان اكثر اشفاقه على دفاتره لانه كان قد انتخبها واحكمها قراءة وتصحيحاً . »

قال ابو نصر « فتلقيته وانزلته داري ، وسألته عن اخباره وعمن لقي. فعرفني من ذلك ماسررت له. واقبل يصف ابن العميد وعلمه وكرمه وكرم عضد الدولة ورغبته في الادب وميله الى اهله

فلما امسينا قلت يا ابا الطيب على اي شيء انت مجمع ؟ قال على ان اتخذ الليل مركبا فان السير فيه يخف علي . فقلت هذا هو الصواب رجاء ان يخفيه الليل ولا يصبح الا وقد قطع بلدا بعيدا . وقلت له والرأي ان يكون معك من رجالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك الى بغداد . فقطب وجهه وقال لم قلت هذا القول ؟ فقلت لتستأنس

بهم فقال أما والجراز في عنقي فما بي حاجة الى مؤنس غيره قلت الامر اليك والرأي فى الذي اشرت عليك فقال تلويحك ينبي عن تعريض وتعريضك ينبي عن تصريح . فعرفني الامر وبين لي الخطب . قلت ان الجاهل فاتكا الاسدي كان عندي منذ ثلاثة ايام وهو غير راض عنك لانك هجوت ابن اخته ضبة . وقد تكلم باشياء توجب الاحتراز والتيقظ . ومعه ايضا نحو العشرين من بني عمه قولهم مثل قوله . فقال غلام ابي الطيب وكان عاقلا : الصواب ما رآه ابو نصر . خذ معك عشرين رجلا يسيرون بين يديك الى بغداد . فاغتاظ وشتمه شتما قبيحا . وقال والله لا ارضى ان يتحدث عني الناس بأني سرت في خفارة احد غير سيفي . قال ابو نصر فقلت يا هذا انا اوجه قوما من قبلي يسيرون بسيرك وهم في خفارتك . فقال والله لا فعلت شيئا من هذا

ثم قال : يا ابا نصر ! بخرء الطير تخوفني ومن عبيد العصا تخاف علي ؟ والله لو ان مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو اسد معطشون بخمس وقد نظروا الى الماء كبطون الحيات

ما جسر لهم خف ولا ظلف ان يرده. معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين. فقلت له قل ان شاء الله تعالى فقال هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجاب آتياً.

ثم ركب فكان آخر العهد به. » اه.

نقف هنا لنتأمل في هذه الرواية المطولة قبل ان نقيسها الى رواية اخرى :

يقول الخالديان انهما كتبا الى نصر محمد الجبلي. ثم يقولان « وابو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية ». ليس في الرواية تصريح باسم ناحية ولكن ذكرت ضمناً في نسبة ابي نصر « الجبلي ». والذي اراه انها نسبة الى جَبُّل. وهي بلدة بين النعمانية وواسط على دجلة تبعد عن النعمانية خمسة فراسخ الى الشرق والجنوب، وعن دير العاقول ثلاثة عشر فرسخاً. فهذا الراوي من بلدة تبعد عن مقتل ابي الطيب نحو أحد عشر فرسخاً وهو صديق للشاعر وقاتله. وخلاصة روايته :

١ — ان فاتكا الاسدي خال ضبة العيني الذي هجاه ابو

الطيب كان يكثر السؤال عن الشاعر ليقتله انتقاماً لاخته التي هجاها . وقد صرّح بهذا لأبي نصر .

٢ — وان ابا الطيب نزل على ابي نصر بجبُّل فأخبره ونصحه بالحذر فلم يقبل . واحتقر فاتكا وقومه احتقاراً شديداً . وغلا في كلامه غلوّاً لا يليق برجل عاقل .

وفي خزانة الادب نقلا عن الايضاح رواية اخرى نصها :

« وأخبرنا ابو الحسن السوسي في دار الوقف بين السورين قال : كنت اتولى الاهواز من قبل المهلبي وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه ومقوده بيده وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسها في الطريق وصارت الارض كأنها مطارف منشورة . فحضرته انا وقلت قد اقمت للشيخ نزلا . فقال المتنبي ان كان ثم فهاته . ثم جاء فاتك الاسدي بجمع وقال قدم الشيخ هذه الديار وشرفها بشعره . والطريق بينه وبين دير قُنّة موحش قد احتوشته الصعاليك . وبنو أسد يسيرون في خدمته الى ان يقطع هذه المسافة ، ويبرّ كل واحد منهم بثوب بياض . فقال المتنبي ما أبقى الله يبدي هذا

هذا الادم وذباب الجراز الذي انا متقلده فاني لا افكر في مخلوق. فقام فاتك ونفض ثوبه. وجمع من رتوت الاعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوا سبعين رجلا ورصدوا له . فلما توسط المتنبي الطريق خرجوا عليه ، الخ » .

هذه الرواية تؤيد الاولى في أنّ ابا الطيب أبى أن يسير في خفارة احد وتخالفها في ان فاتكا هو الذي عرض على الشاعر ان يخفره . ومعنى هذا انه ما كان مبيتاً شراً له وانه لو قُبلت خفارته ما قتله . وفي الرواية مطاعن :

فقول أبي الحسن السوسي : « كنت اتولى الاهواز من قبل المهلبي الخ » . يؤخذ منه ان مرور ابي الطيب بالاهواز كان في عهد المهلبي . والمهلبي توفي سنة ٣٥٢ كما تقدم .

ولو ان فاتكا لقي ابي الطيب في الاهواز فعرض عليه خفارته فأبى فعزم على قتله او سلبه ما صبر عليه حتى قطع المسافة من الاهواز الى واسط وهي خمسون فرسخاً ثم سار من واسط حتى جاوز النعمانية ، كما سيأتي ، وذلك اكثر من عشرين فرسخاً.

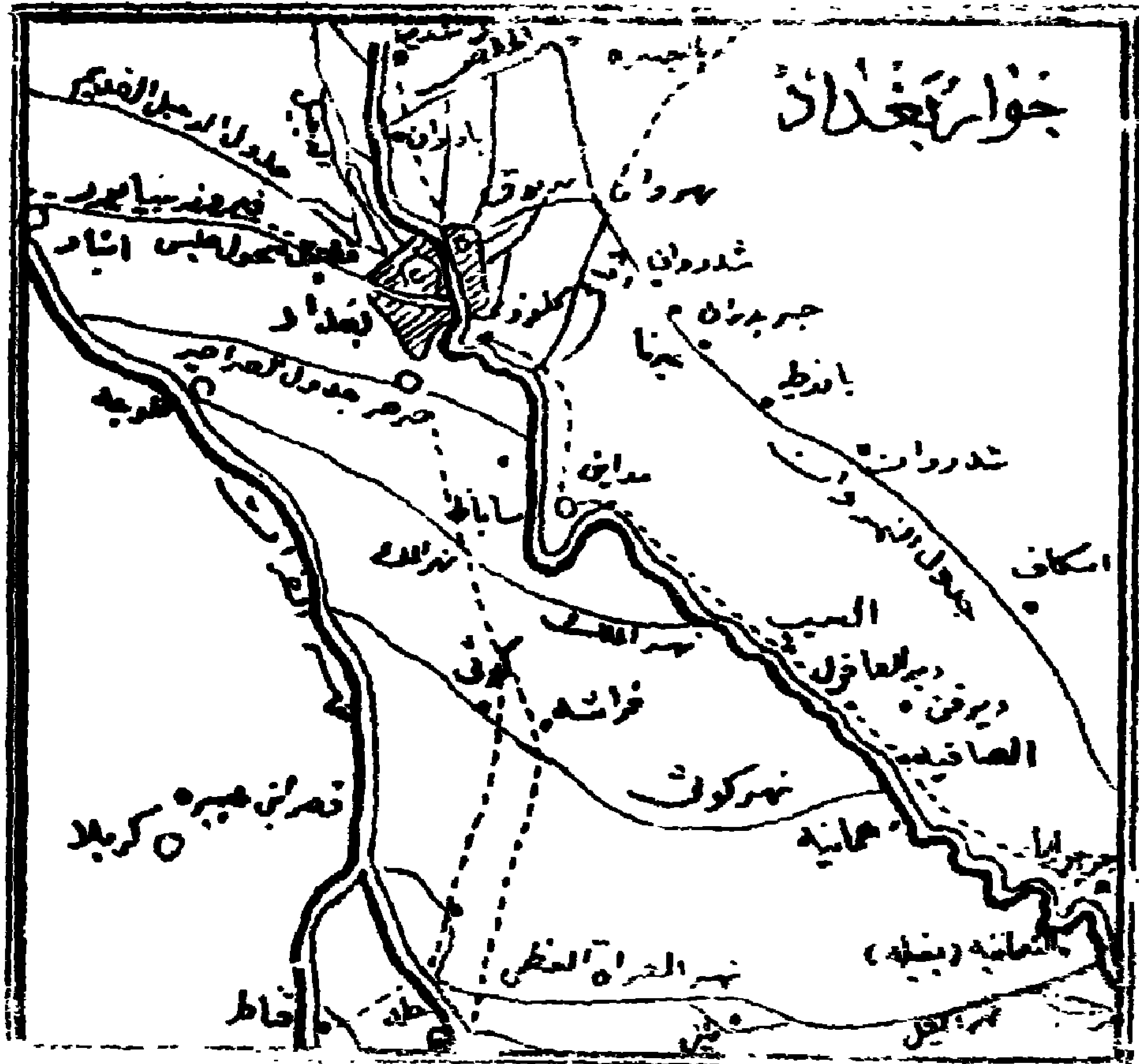
وقول فاتك ان الطريق الى دير قنة موحش بعيد ان يقال في الاهواز وبينها وبين دير قنة مراحل كثيرة وبلدان عامرة، وانما يقال مثل هذا في موضع قريب من دير قنة مثل النعمانية اوجبل.

ثم عرّض فاتك خفارته على ابي الطيب وفي نفسه منه مافيها مستبعد كذلك.

فرواية ابي نصر اجدر بالقبول بعد حساب المبالغة فيها كقول ابي الطيب عن بني اسد «ابجزء الطير تخوفني الخ.» فالرجل مهما تكبر وتهوّر كان اعقل من ان يقول مثل هذا القول. واحسب ابا نصر حينما سئل عن مقتل ابي الطيب اراد ان يبين عن نصيبه في هذه "قصة التي يتشوف الناس الى سماعها فأدخل فيها شيئاً من الصنعة، ومبالغة القصاص، وبالغ في نصحه ابا الطيب وفي اباء هذا قبول النصيحة وهكذا.

— ٢ —

سار ابو الطيب من الاهواز الى واسط فنزل بها. قال علي ابن حمزة البصرة عن القصيدة الكافية التي ودع بها الشاعر عضد



الخط المنقط يبين اتجاه الطريق من واسط الى بغداد . ويرى في الخارطة دير قنة (بضم القاف وتشديد النون) ودير العاقول والصافية والنعمانية . وجبل (بتشديد الباء وضمها) لا تظهر هنا. وهي شرقي النهر على تسعة فراسخ من جرجرايا. وهذه على اربعة فراسخ الى الجنوب والشرق من دير العاقول.

الدولة : « هذه القصيدة آخر شعر قاله ابو الطيب. وكتبتها والتي قبلها عنه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة اربع وخمسين وثلثمائة »[1].

بين واسط وبغداد زهاء اربعين فرسخاً. وعلى الطريق بلاد نذكر منها ما ذكر في روايات مقتل ابي الطيب : وهي النعمانية ودير قُنّى ودير العاقول والصافية.

النعمانية في نصف الطريق بين واسط وبغداد غربي دجلة وهي قائمة اليوم. وكانت تسمى بنيلة فأعيد اسمها القديم. ودير العاقول كان على شاطئ دجلة الشرقي، وكان عنده مدينة مسماة باسمه، وكان على ميل من النهر ايام ياقوت. وبينه وبين بغداد ١٥ فرسخاً، وبينه وبين النعمانية زهاء خمسة فراسخ.

والى الجنوب الشرقي من دير العاقول على مقربة منه دير مرماري الذي يسمى دير قُنّى او (قُنّه) وهو على ١٦ فرسخاً من بغداد يبعد عن الشاطئ قليلا.

---

(١) نسخة بغداد.

وامام دير قني على الشاطئ الصافية على فرسخين الى الجنوب والشرق من دير العاقول . وكانت على ميل من الشاطئ في زمن ياقوت . (تنظر الخارطة) .

وعلى نحو ثمانين كيلا من بغداد الى الجنوب والشرق توجد اليوم ارض تسمى ارض الدير . ذهبت اليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وخمسين وثلاثمائة[1] فاذا تلال كثيرة متقاربة قليلة الارتفاع عليها حطام من الآجر والخزف تبعد عن شاطئ دجلة الشرقي نحو كيل واحد .

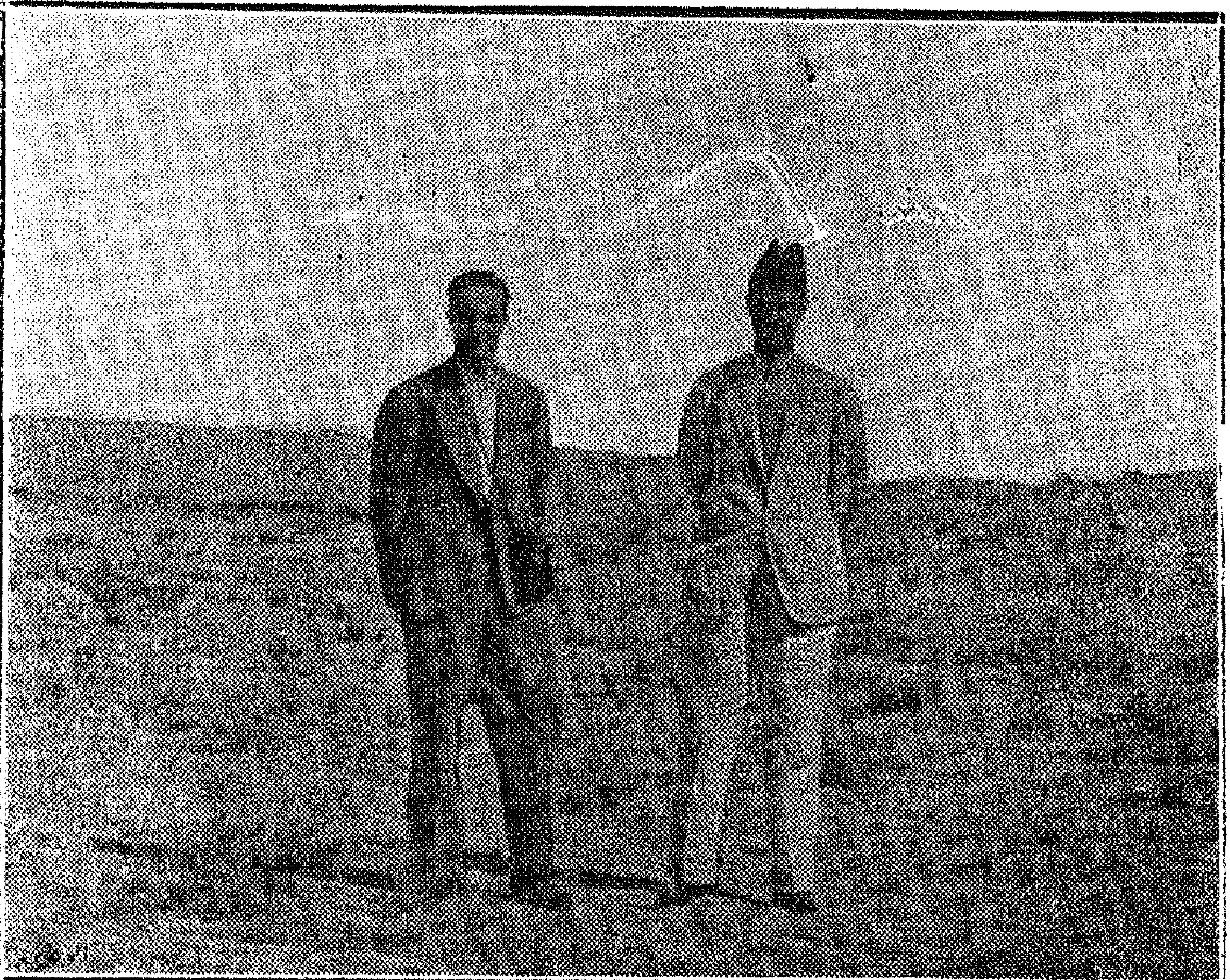
وقد سألت اعراباً نازلين هناك من قبيلة شمّر عن ارض اخرى تسمى ارض الدير في هذه الناحية فنفوا هذا . وسألت عن اسماء العاقول وقني والصافية أتعرف اليوم هي او ما يقرب منها ؟ فنفوا جازمين .

واذا نظرنا الى المسافة بين هذه الارض وبغداد فهي تقارب خمسة عشر فرسخاً . وهي المسافة المقدرة بين بغداد ودير العاقول في

---

(١) ١٢ حزيران (يونيه) سنة ١٩٢٦ .

تابع ص ٢٦٢



المؤلف وصديقه علي المليجي المهندس ، على اطلال دير العاقول المعروفة اليوم بأرض الدير

معجم البلدان وغيره .

ومهما يكن فأكبر الظن ان هذه التلال بقايا دير قني او دير العاقول . وكانا متقاربين . وهذا يدل على ان دجلة لم تغير مجراها كثيراً في هذه الناحية .

وأما الصافية فأحسب موضعها الآن في مجرى النهر . فقد كانت ايام ياقوت على ميل من دير قني . ويؤيد هذا قول صاحب مراصد الاطلاع عن الصافية ، « وقيل موضع دجلة » .

— ٣ —

الروايات في مقتل ابي الطيب متفقة في جملتها ولكن بعضها أبين واكثر تحديداً من بعض . وهي في التحديد قسمان :

١ — روايات تجعل مقتله قرب النعمانية او قرب دير العاقول دون ذكر الموضع الذي قتل به [1] .

٢ — روايات تذكر الصافية على انها موضع القتل او قريبة منه. وهي على مقربة من دير العاقول ، بينه وبين النعمانية. فليست

(١) انظر رواية ابي نصر الجبلي في الصبح ورواية الخطيب البغدادي .

تناقض الروايات الاولى بل تزيد عليها تحديداً [١] .

٣ – رواية ابن خلكان التي تحاول الجمع بين الروايات فتقول:

« بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين . »

وحق ان الصافيه قريبة من دير العاقول ولكنها ليست قريبة من النعمانيه إلا قرباً نسبياً .

٤– رواية ابن جني ونسخة بغداد ونسخة في الموصل [٢] تذكر مكاناً محرّفاً مضطرباً بين فرع ونيزع وشرع. ولم اجد لها ذكراً في الكتب .

يستطيع الباحث بعد هذا ان يقول ان ابا الطيب قتل على مقربة من الصافية. ولكن ابن خلكان وابن الانباري يقولان: « من الجانب الغربي من سواد بغداد » والصافية على الشاطئ الشرقيّ . فكيف هذا ؟ .

رواية ابن خلكان متناقضة بلا ريب فهو يقول في موضع

---

(١) ابن الانباري ونسخة الاوقاف والمعري . ٢— مكتبة يحيى باشا الجليلي

تابع ص ٣٦٤



المؤلف في أطلال دير العاقول يسائل أعراباً من شمّر (بتشديد الميم) عن بعض الاسماء التاريخية

يقال له « الصافية من الجانب الغربي » وهذا خطأ . واحسبه اتبع ابن الانباري فالعبارتان متقاربتان . فهل عبارة ابن الانباري مقبولة ؟

هو يقول « حيال الصافية من الجانب الغربي » فيمكن ان يقال ان مقتل الشاعر في الجانب الغربي حيال الصافية على الضفة الشرقية — وكلمة حيال هذه صحفت في بعض الروايات الى جبال وليس عند الصافية جبال —

يمكن قبول رواية ابن الانباري بهذا التفسير لو لم نعرف الطريق بين واسط وبغداد أتساير الضفة الشرقية ام الغربية من دجلة ، ولكننا نعرف من كتب المسالك ان الطريق شرقي دجلة . وقد عرفنا أنه مر بجبل وليس لنا ان نفرض انه سار شرقي النهر من واسط الى جبل حيث نزل على ابن نصر ثم عبر الى النعمانية ليعبر الى الشرق مرة اخرى .

وخلاصة هذه الكلمة ان جمع هذه الروايات ونقدها وتعرّف مواقع البلاد التي ذكرت في الروايات والطريق بين واسط ودار

الخلافة — كل اولئك يبين لنا ان مقتل ابي الطيب كان عند الصافية شرقيّ نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخا من بغداد .

— ٤ —

سار ابو الطيب من واسط يؤم بغداد في طريقه الى الكوفة وكان مسيره يوم السبت سابع عشر رمضان . وفي هذا اليوم كتب عنه علي بن حمزة البصري راويته القصيدتين الاخيرتين من شعره كما تقدم .

وبلغ جبّل بعد ان سار زهاء سبعة عشر فرسخاً فنزل عند ابي نصر الجبلي كما تقدم . ثم اخذ طريقه حتى حاذى النعمانية وهي في نصف الطريق بين واسط وبغداد ثم سار ممر بحر جرايا على اربعة فراسخ الى الجنوب والشرق من دير العاقول ثم تقدم حتى قارب الصافية وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخا .

وهنالك خرج عليه فاتك بن أبي جهل الاسدي خال ضبة بن يزيد الذي هجاه ابو الطيب . وكان فاتك في نيف وثلاثين فارسا راجلين وناشبين [1] وكان مع ابي الطيب ابنه محسد وغلمانه الذين وصفهم في

(١) نسخة بغداد وفي الخزانة: سبعين رجلا

القصيدة الميمية التي رثى فيها فاتكا وفي قصيدة توديع ابن العميد كما تقدم.

ولا ندري كم كان غلمانه ولكنهم كانوا ولا ريب اقل عددا من عدوهم.

قاتل الشاعر الشجاع حتى قتل. وقتل ابنه. واكثر الروايات تخص من بين غلمانه غلامه مفلحاً. وفي الخزانة انهم قتلوا كل من كان معه. وما احسب الغلمان ثبتوا كلهم بعد قتل سيدهم. وفي رواية الخزانة ايضا « وحمل فاتك على المتنبي وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه. وكان ابنه افلت الا انه رجع يطلب دفاتر ابيه فقنع خلفه الفرس احدهم وحز رأسه »

« قال أبو نصر: ولما صح خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً. »

ردي حياض الردى يا نفس واتركي
حياض خوف الردى للشاء والنعم

ان لم اذرك على الارماح سائلة
فلا دعيت ابن ام المجد والكرم

— ٥ —

تختلف الروايات في اسم اليوم الذي اودى فيه الشاعر الكبير وفي تاريخه. تختلف في انه يوم الاربعاء اوالاثنين وتختلف في تاريخه. بين ١٩ و ٢٢ و ٢٤ و ١٥ و ٢٧ و ٢٨ من رمضان.

واذا اخذنا بقول ابي نصر الجبلي وعلي بن حمزة أن السبت كان سابع عشر رمضان فالاثنين يوافق ١٩ و ٢٦ والاربعاء يوافق ٢١ و ٢٨ وليس في الرواية كلها ٢١ و ٢٦ فيغلب ان يكون مقتله يوم الاثنين ١٩ أو الاربعاء ٢٨ والفرض الاول يجعل الشاعر يقطع المسافة بين واسط والصافية في يومين . وهذا بعيد، والمسافة بينهما ٣٠ فرسخاً (نحو ١٧٠ ك) فالفرض الثاني أرجح اذا قدرنا أن الشاعر لبث في بلد على الطريق . والله أعلم .

الفصل الثامن عشر

رثاء ابي الطيب

أثبت هنا ما اطلعت عليه من رثاء ابي الطيب لتعرف وقع قتله في نفوس الادباء ولنتبين الصفات التي رثوه من اجلها

رثاه صديقه ابو الفتح عثمان بن جني بقصيدة رواها ياقوت بعد قوله: «وما كنت اعلم انه يذم القريض او يسيغ ذلك الجريض حتى قرأت له مرثية في المتنبي». واثبت ستة عشر بيتا. وكلامه يفهم ان هذه الابيات بعض المرثية ولكن يظهر عند قراءتها انها المرثية كلها وهي :

غاض القريض واودت نضرة الادب
وصوحت بعد ري دوحة الكتب

سلبت ثوب بهاء كنت لابسه
كما تخطف بالخطية السلب

ما زلت تصحب في الجلى اذا انشعبت
قلبا جميعا ورأيا غير منشعب

وقد حلبت لعمري الدهر اشطره
تمطو بهمة لا وان ولا نصب

من للهواجل يحيي ميت ارسمها   بكل جائلة التصدير والحقب[1]

---

(١) في الصبح بيت بعد هذا هو :
أم من لسرحانها يقريه فضلته   وقد تضور بين اليأس والسغب

قبّاء خوصاء محمود علالتها تنبو عريكتها بالحِلس والقتَب

أم من لبيض الظبي توكافهن دم أم من لسمر القنا والزغف واليلب

أم للجحافل يذكى جمر جاحمها حتى يقر بها من جاحم اللهب

أم للمحافل اذ تبدو لتعمرها بالنظم والنثر والامثال والخطب

أم للصواهل محمرا سرابلها من بعدما غبرت معروفة الشهب

أم المناهل والظلماء عاكفة يواصل الكر بين الورد والقرب

أم للقساطل تعتمّ الحروب بها

أم من لضغم الهزبر الضيغم الحرب

أم الملوك يحليها ويلبسها حتى تمايس في ابرادها القشبُ

باتت وسادى أطراب تؤرقني لما غدوت لقىً في قبضة النوب

عمرت خدن المساعي غير مضطهد

كالنصل لم يَدّنس يوماً ولم يعب

فاذهب عليك سلام المجد ما قلقت

خوص الركائب بالاكوار والشعب

ورثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطبسي باربعة ابيات رواها

الثعالبي فى اليتيمـة :

لا رعى الله سرب هـذا الزمان * اذ دهانا فى مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يرى لبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة فى جيش وفى الكبرياء ذا سلطان
كان فى لفظه نبيا ولكن ظهرت معجزاته فى المعاني

وفى الصبح المنبي « هو فى شعره نبي ولكن الخ »

وكذلك رثاه ثابت بن هارون الرقي النصراني ، وحرض عضد الدولة على عقاب من قتلوه :

الدهر اخبث والليالي انكد من ان تعيش لاهلها يا احمد
قصدتك لما ان رأتك نفيسها بخلا بمثلك والنفائس تقصد
ذقت الكريهة بغتة وفقدتها وكريه فقدك فى الورى لا يفقد
قل لي ان اسطعت الخطاب فانني صب الفؤاد الى خطابك مكمد
اترکت بعدك شاعراً ؟ والله لا لم يبق بعدك في الزمان مقصِّد
اما العلوم فانها يا ربها تبكي عليك بادمع لا تجمد

***

يا أيها الملك، المؤيد دعوة　　عمن حشاه بالاسى يتوقد

هذي بنو أسد بضيفك اوقعت

وحوت عطاءك اذ حواه الفرقد

وله عليك بقصده ياذا العلى　　حق التحرم والذمام الاوكد

فارع الذمام وكن لضيفك طالبا

ان الذمام على الكريم مؤيد

الفصل التاسع عشر

بيت أبي الطيب

يقول ابو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد عمران :
وهو أحد ممدوحيه في الشام قبل اتصاله ببني حمدان :

في الناس امثلة تدور . حياتها　　كمماتها . ومماتها كحياتها

هبت النكاح حذار نسل مثلها　　حتى وفرت على النساء بناتها

وهذا يدل على انه لم يتزوج الى ذلك الوقت . واذا اخذنا
بترتيب الديوان فقد انشأ هذه القصيدة بعد مفارقته بدر بن عمار

اي بعد سنة ٣٢٩ ، وسن ابي الطيب حينئذ زهاء ست وعشرين عاماً .

ولا ندري متى تزوج . ولكن دلنا على ان له عيالا حين قال لسيف الدولة سنة ٣٣٧ ، وقد ازمع المسير لنصرة اخيه ناصر الدولة وسأله ان يسير معه . قال :

يا من يعز على الاعزة جاره ويذل عن سطواته الجبار
كن حيث شئت فما تحول تنوفة دون اللقاء ولا يشط مزار
وبدون ما انا من ودادك مضمر ينضي المطيّ ويقرب المستار
ان الذي خلفتُ خلفي ضائع مالي على قلقي اليه خيار
واذا صُحبت فكل ماء مشرب لولا العيال وكل ارض دار
اذن الامير بان أعود اليهم صلة تسير بذكرها الاشعار

فقد أعلمنا ان له عيالا يشفق عليهم . وقد نزح من العراق وحده فيما نعلم . فهؤلاء العيال زوجه واولاده او زوجه وحدها ، وقد كني عنها . تزوج الشاعر اذن قبل سنة ٣٣٧ . وان صح ترتيب الديوان في القصيدة التائية كما تقدم ، فزواجه بين

سنتي ٢٩ و ٣٣٧ .

لا نجد في شعر ابي الطيب ذكراً لاهله من بعدُ الا في مصر حين يقول في قصيدة مدح بها كافوراً في شوال سنة سبع واربعين وثلثمائة :

يضاحك في ذا العيد كلٌّ حبيبه   حذائي وأبكي من احب واندب
أحنُّ الى اهلي واهوى لقاءهم   واين من المشتاق عنقاء مُغرب
فان لم يكن الاّ ابو المسك اوهم   فانك أحلى في فؤادي واعذب

ويقول في قصيدة الخروج :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد   بما مضى ام لأمر فيك تجديد
اما الاحبة فالبيداء دونهم   فليت دونك بيداً دونها بيد

وفي النسخة (١٥٣٠) ونسخة الشرواني أبيات عنوانها في النسخة الاولى : « وله بعدما هرب من مصر يذكر شوقه الى ابنه والى شيخ كان له محباً يسمى الحسين » .

والابيات مضطربة ومنها :

لولا محمد بل لولا الحسين لنا   رأيت رأيي بوهن العزم مختلطا

وأحسب محمداً هنا محرفة عن محسّد . وفي هذا بيان ان ابنه لم يكن معه في مصر . واحسبه ترك أهله بالشام ثم لحقوه أو سبقوه الى الكوفه .

ونجد ابا الطيب يذكر اهله من بعدُ في توديع ابن العميد . يقول :

وقد كنت ادركت المنى غير انني يعيّرني اهلي بادراكها وحدي
وكل شريك في السرور بمُصبحي أرى بعده من لا يرى مثله بعدي

ويذكرهم كذلك في توديع عضد الدولة :

وكم دون الثوية[1] من حزين يقول له قدومي : ذا بذاكا
ومن عذب الرضاب اذا أنخنا يقبّل رحل تُرْوَكَ[2] والوراكا
يحرّم ان يمس الطيب بعدي وقد عبق العبير به وصاكا
ويمنع ثغره من كل صب ويمنحه البشامة والأراكا
يحدث مقلتيه النوم عني فليت النوم حدّث عن نداكا

ولسنا نعرف عن زوجه شيئاً. واكبر ظني انها شامية. فقد تزوج

---

(١) مكان قرب الكوفة . (٢) اسم ناقة اعطاه اياها عضد الدولة .

بالشام . ولعلّ هذا يسّر له ترك عياله هناك حتى سار الى مصر .

ولا نعرف من اولاده الا محسداً . ولم يذكره في شعره عدا الابيات الطائية التي قدمتها . وهي ملحقة ببعض النسخ .

وعندنا من اخبار محسد مع أبيه نتف :

ذكر الحاتمي في حديثه عن لقاء ابي الطيب في بغداد ان الشاعر غضب على رجل كان حاضراً مجلسه فقال : « يا محسد خذ بيده وأخرجه »[1] .

وفي طبقات الادباء[1] عن ابي زكريا التبريزي ان المتنبي كان بواسط جالساً وعنده ابنه محسد قائما وجماعة يقرءون عليه فورد اليه بعض الناس فقال اريد ان تجز لنا هذا البيت وهو :

زارنا في الظلام يطلب ستراً فافتضحنا بنوره في الظلام

فرفع رأسه وقال يا محسد قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال

فالتجأنا الى حنادس شعر سترتنا من أعين اللوام .

وروى صاحب الايضاح : «وكان ابو جعفر وزير بهاء الدولة[2]

---

(١) معجم الادباء ج ٦ ، ص ٥١٢ . (٢) اظنها عضد الدولة .

مأموراً بالاختلاف اليه ، وحفظ المنازل والمناهل من مصر الى الكوفة وتعرفها منه . فقال : كنت حاضره وقام ابنه يلتمس اجرة الغسّال. فأحدّ المتنبي اليه النظر بتحديق فقال ما للصعلوك والغسال ؟ يحتاج الصعلوك الى ان يعمل بيده ثلاثة اشياء . يطبخ قدره ، وينعل فرسه ، ويغسل ثيابه . ثم ملأ يده قطيعات بلغت درهمين او ثلاثة » .

ليس عندي من اخبار الرجل في بيته واخبار اولاده إلاّ هذه الشذرات . ولعلّ البحث يكشف عن غيرها فيما بعد .

الفصل العشرون

اخلاق ابي الطيب

لعل القارئ في غنى عمن يبين له عن اخلاق أبي الطيب بعد الذي قرأ من سيرته المفصلة ، وبعد ان عرف كيف اختلفت الغيرَ عليه، وكيف قابلها وأعرب عنها. فقد صحب القاري الشاعر من نشأته الى مماته فهو خبير باخلاقه ، عارف بنزعاته ولكني احاول في

هذا الفصل ان ارد هذه الاخلاق والنزعات المتفرقة الى اصولها في نفس الرجل ، وأقول في ذلك قولا يشبه ان يكون بيانا وخلاصة لما قدمتُ في تاريخه :

١ — يتبين قارئ شعر الرجل وسيرته الكبرياء، والعُجب، والاباء وبعد الهمة، والجرأة والاقدام والصبر. فيرى رجلا قويّ النفس كما كان قويّ الجسم .

ويمكن ردّ هذه الاخلاق الى ثلاثة : الشجاعة ، والانفة ، وعلو الهمة. وهي اخلاق تتجلى في اقواله وافعاله كلها إلاّ شذوذاً.

وقد مكنها في نفسه وأمرّها نشأته في البادية ، ثم صحبة الاعراب في الحين بعد الحين من بعدُ ، وكثرة اسفاره، وتعرضه للصعاب والمخاوف .

وان في هجرته الى الشام شاباً، وتطويفه في ارجائه، ودعوته الى بيعته وهو في حدود العشرين من العمر ، ومساواة نفسه بالممدوحين، وشهود الحروب مع سيف الدولة ، وفي غضبته على هذا الامير وانشاده القصيدة : « واحرّ قلباه ممن قلبه شبم »، ثم

مغاضبته اياه وسيره الى مصر ، وفي تعاظمه في قصائد كافور ، والاشتداد في مطالبته بانجاز وعده ، ثم خروجه من مصر الى الكوفة يشق الاهوال والفيافي، وفي اباثه مدح المهلبي ومعز الدولة إذ لم يلقياه بما يستحق من الحفاوة ، وفي هجائه ابن كيغلغ وهو رجل ذو سطوة ثم مقابلة وعيده بالسخرية، وهجاء ضبة بن يزيد وهو يعرف أخلاق البادية ، وفي اباثه الخفارة وقد اخبر ان شراً يرصده في طريقه — في هذا كله وفي كلفه في شعره بالحرب والضرب والسؤدد والمجد ، والاباء والثورة لبرهاناً على ما أقول لا تعوزه الدلالة والقوة .

وفي الايضاح : « سمعت انه قيل للمتنبي ، قولك في كافور :

فارم بي ما اردت مني فاني أسد القلب آدميّ الرواء

وفؤادي من الملوك وان كا ن لساني يرى من الشعراء

ليس قول ممتدح ولا منتجع انما هو قول مضادّ . فأجاب المتنبي الى ان قال : هذه القلوب كما سمعت احدها يقول :

يقرّ بعيني ان أرى قِصَدَ القنا وصرعى رجال من وغى أناحاضره

وأحدها يقول :

يقر بعيني أن ارى من مكانها ذرا عقدات الاجرع المتقاود »

ولولا ان الرجل كان طامعاً في المجد ولا عصبية له ولا مال فاضطر الى المدح وما يجره المدح من المذلة والنفاق لبلغ في هذه الصفات أعلى مما بلغ على انه نال فيها منزلة عالية .

٢ — وهذه الاخلاق أدّت الى تعاليه عن مسايرة شعراء وقته في اللهو والمجون ومعاقرة الخمر . فقد عرف بعفته وتنزّهه عما لا يليق بالرجل العظيم ، وفخر بذلك في شعره على خلاف جمهرة الشعراء في عصره . قال في قصيدة مدح بها ابا أيوب بن عمران :

وترى المروّة والفتوّة والابوّ ة فيّ كل مليحة ضرّاتها
هنّ الثلاث المانعاتي لذّتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

وقال في بعض القصائد السيفية :

وقد استقدت من الهوى وأذقته من عفتي ما ذقت من بلباله
وما كل من يهوى يعف إذا خلا عفافي ويُرضي الحب والخيل تلتقي

وأغيد يهوي نفسه كل عاقل لبيب ويهوى جسمه كل فاسق

وقال في قصيدة كافورية :

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلاّ بهن لعاب

وقال في ارجوزة عضدية : لا تخطر الفحشاء لي ببال .

وقد عرف بين اهل عصره بتجنب الخمر على كثرة غشيانه مجالس الامراء والكبراء . وكان اصدقاؤه يعرضون عليه الشرب فيجيبهم بمثل قوله :

لأحبتي ان يملأوا بالصافيات الاكوابا
وعليهم أن يبذلوا وعليّ ألاّ أشربا
حتى تكون الباترات المسمعات فأطربا

وقد بلغ من ابائه الخمر ان حلف عليه صديق له بالطلاق ليشربن ، وقال له الامير ابن طغج : بحقي عليك الا شربت . ولا انكر انه شرب مرات اجابة لأيمان اصدقائه ، او إلحاح ممدوحيه .

وهو ينقم على امراء عصره الشرب واللهو في مثل قوله لسيف الدولة :

ألهى الممالك عن فخر قفلت به   شربُ المدامة والاوتار والنغم

وقوله في مدحه وهو بالعراق معرضاً بالامراء الآخرين :

ما الذي عنده تدار المنايا   كالذي عنده تدار الشَمول

٣ — ويتصل بهذا صدقه الذي عرف به حتى قال علي بن حمزة راويته انه ما كذب قط. وقد قال هو في بغداد :

في الصدق مندوحة عن الكذب   والجدّ أولى بنا من اللعب

وفي ذلك البيت الفرد قاعدتان من قواعد أخلاقه .

ومن ذلك صراحته ونفوره من التكلف حتى فضّل البداوة على الحضارة بأن حسنها طبيعي :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب

وفضل النساء البدويات على الحضريات بانهن أصرح لفظا وابعد من الزينة :

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجب

بل عدّ خضاب الشيب من التمويه والكذب :

ومن هوى كل من ليست مموّهة

تركت لون مشيبي غير مخضوب

ومن هوى الصدق في قولي وعادته

رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

٤ — وكان ابو الطيب ، في اعتداده بنفسه وطموحه الى السؤدد ، وقصور عصبته وثروته عن بلوغ ما امل ، حاقداً على الناس يحقرهم ويذمهم ويضطغن عليهم، ويتحدث بقتلهم كما مرّ . وكان حقده يتجلى حين يحقره انسان او يقف دون غايته . انظر كيف هجا ابن كيغلغ وكافوراً وضبة بشعر فيه من الاقذاع ما يوفي بالقارئ على الشك في انه شعر ابي الطيب .

٥ — وكان على شدة في طبعه ، ومرارة في جده ، ودوداً لاصدقائه وفياً لهم يتبسط معهم ويمازحهم ، ويأسى لفراقهم ، ويجزع لموتهم .

انظر كيف تقسم قلبه بينه وبين بني حمدان في اول مدائحه

في كافور وكيف رثى صديقه ابا شجاع رثاءً صادقاً لم يُمله الا الوفاء ولم يكتف بمرثية بل رثاه ثلاث مرات وكل مراثيه أنشأها بعد خروجه من مصر حين بعد عن فاتك وما يذكّر به . واحدى هذه المراثي قالها بعد وفاة صديقه بسنتين . فلم يكن الشاعر كاذباً حين قال :

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبى   لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وقد مثل شدته على اعدائه ورقته مع اصدقائه في قوله :

ويزيدني غضب الاعادي قسوة   ويلمُ بي عتب الصديق فأجزع

ومما أثر من مزاحه ، وللمزاح دلالة على الاخلاق ، ما رواه صاحب اليتيمة عن ابن جني . قال : « حدثني ابو علي الحسين بن احمد الصنوبري قال خرجت من حلب اريد سيف الدولة . فلما برزت من السور اذا أنا بفارس متلثم قد أهوى نحوي برمح طويل ، وسدده الى صدري . فكدت اطرح نفسي عن الدابة فرقاً . فلما قرب مني ثنى السنان وحسر لثامه فاذا المتنبي وانشدني:

نثرنا رءوساً بالاحيدب منهم   كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال كيف ترى هذا القول. أحسن هو ? فقلت له ويحك قد قتلتني يا رجل . قال ابن جني : « فحكيت انا هذه الحكاية بمدينة السلام لأبي الطيب فعرفها وضحك لها وذكر ابا علي من التقريظ والثناء بما يقال في مثله » .

ويرى القارئ ان ابا الطيب لا يمزح الا برمح .

ثم رأى اصدقائه المقربين كابن جني يشهد بان الرجل كان صديقاً محموداً .

٦ — وكان الشاعر العظيم حزين الطبع كثير التفكير في الدنيا وغيرها . فتراه ينطق بالكلمة الحزينة حيث ينتظر المقام غيرها اثناء مدح او غزل .

يمدح سيف الدولة فيختم المدح بقوله :

ولو جاز الخلود خلدت فرداً   ولكن ليس للدنيا خليل

ويقول في آخر قصيدة اخرى سيفية :

فهنأك النصر معطيكه   وأرضاه سعيك في الآجل

فذي الدار أخون من مومس   وأخدع من كفة الحابل

تفانى الرجال على حبها   وما يحصلون على طائل

ويقول في القصيدة : « ليالي بعد الظاعنين شكول » :

وماعشت من بعد الاحبة سلوة ولكنني للنائبات حمول

وان رحيلا واحداً حال بيننا وفي الموت من بعد الرحيل رحيل

وفي القصيدة : « ما لنا كلنا جوٍ يا رسول . » التي ارسلها الى سيف الدولة من العراق :

زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حال تحول

وصلينا نصلك في هذه الد نيا فان المقام فيها قليل

من رآها بعينها شاقه القُطانُ فيها كما تشوق الحمول

فانظر كيف غلبه الحزن والفكر في عاقبة الانسان وهو يحاول النسيب .

ويقول في القصيدة العضدية : « أزائر يا خيال ام عائد » .

اذا خيالاته أطفن بنا اضحكه انني لها حامد

لا انكر الفضل ربما فعلت ما لم يكن فاعلا ولا واعد

ما تعرف العين فرق بينهما كلٌّ خيال وصاله نافد

فبينما يذكر خيال الحبيب غلب عليه الفكر في فناء الناس

فقال : ان الخيال كالحبيب : « كل خيالٌ وصاله نافد » .

فهذا جانب من اخلاق الرجل يتبينه المدقق في شعره .

٧ — ومن الاخلاق الي شاعت عن ابي الطيب البخل وقد رويت في هذا حوادث مثبته في اليتيمة والايضاح والصبح المنبي .

قال الثعالبي : « سمعت الخوارزمي يقول كان ابو الطيب المتنبي قاعداً تحت قول الشاعر :

وان احق الناس بالبخل شاعر   يلوم على البخل الرجال ويبخل

وانما أعرب عن عادته وطريقته في قوله :

بليت بلى الاطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

فحضرت عنده يوماً بحلب وقد احضر مالا من صلات سيف الدولة فصبّ بين يديه على حصير قد افترشه ، ووزن وأعيد في الكيس واذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خلل الحصير . فأكب عليها بمجامعه ينقرها ، ويعالج استنقاذها منه ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصل الى اظهار

بعضها فتمثل بقول قيس بن الخطيم .

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ثم استخرجها وامر باعادتها الى مكانها من الكيس وقال انها تحضر المائدة [1] .

وخلاصة ما رواه صاحب الصبح أن سيف الدولة أتى ببدرة فشقها فقام ابو الفرج الببغاء وابن خالويه واخذا منها . ولم يقم ابو الطيب فاغتاظ سيف الدولة ونثرها على الغلمان فقام ابو الطيب يزاحمهم فغمزهم عليه فداسوه .

وأن ابن العميد خالف أبا الطيب في سيفين أيهما اقطع فاقترح ابو الطيب ان يجرب السيفان في قطع الدنانير . وضرب عشرين ديناراً فقطعها وقام يلتقطها فقال ابن العميد : « ليلزم الشيخ مجلسه فان احد الخدم يلتقطها ويأتي بها اليك . فقال بل صاحب الحاجة اولى » .

فأما قصة اليتيمة فليس فيها دليل بين على البخل وقد يتشاغل

(١) اليتيمة ج ١ ، ص ٨٤ .

الانسان بمثل هذا رغبة في التشاغل . على ان الرجل جعلها مزاحاً حين قال : تبدت لنا كالشمس الخ .

وقصة سيف الدولة بعيدة من كبرياء ابي الطيب. وما احسبه قام لمزاحمة الغلمان ولكن سيف الدولة نثرها عنده واغرى غلمانه به . فان صلحت القصة دليلا فعلى أنفته .

وقصة ابن العميد يمكن ان يقال فيها ان ابا الطيب ما كان خائفاً من ضياع الدنانير في مجلس ابن العميد . وكان يستطيع ان يأمر بجمعها وهو قاعد ، ويثق بتحصيلها ولكنه كان مجلس رهان وهو لا يلزم فيه التوقّر .

ولعلّ قصة الحصير وقصة ابن العميد تمثلان ما في خلق الرجل من التياسر وتجنب التكلف ، ككقصة الغسّال التي تقدمت في اخبار محسد ابنه . ولست ادفع عن الرجل البخل ولكني ابين مقدار دلالة هذه القصص .

قد تقدم قول الخوارزمي في بخل ابي الطيب . وقال ابن فورّجة : « ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا بخله وشرهه على المال » . ربما

كان شيوع الحديث عن بخله دليلا عليه ولكن ينبغي ان يحسب في هذا كلف حساد الرجل بالطعن عليه، ومبالغة الناس في مثل هذا وتوهمهم ان الشعراء اغنياء بما ينالون من صلات ، ومحاسبتهم اياهم على هذا الغنى محاسبة يبالغون فيها مبالغتهم في تقدير الصلات التي ينالونها.

على أن ابا الطيب كان صريحاً في الايصاء بتدبير المال وتوفيره لانه وسيلة المجد وعماده :

فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبّره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الاعداء والمال زنده

والحرص على المال وتدبيره ليس غريباً من رجل كأبي الطيب طموح الى السؤدد ليس له من وسيلة اليه الا المال، وقد فسّر ذلك حين سئل عن بخله في قصة تشفع طرافتها لاثباتها هنا على طولها، وقد تقدمت الاشارة اليها في صفحة ٤٤. قال صاحب الصبح المنبي:

« قال ابو البركات ابن ابي الفرج المعروف بابن زيد التكريتي الشاعر : بلغني انه قيل للمتنبي قد شاع عنك من البخل في الآفاق ما قد صار سمراً بين الرفاق. وانت تمدح في شعرك الكرم واهله

وتذم البخل واهله . ألست القائل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومعلوم ان البخل قبيح ومنك أقبح فانك تتعاطى كبر النفس وعلوّ الهمة وطلب الملك . والبخل ينافي سائر ذلك . فقال : ان للبخل سبباً . وذلك اني أذكر اني وردت في صباي من الكوفة الى بغداد . فأخذت خمسة دراهم بجانب منديلي وخرجت أمشي في اسواق بغداد. فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة. فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة فاستحسنتها ونويت ان اشتريها بالدراهم التي معي . فتقدمت اليه وقلت بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟ فقال بغير اكتراث : اذهب فليس هذا من اكلك . فتماسكت معه وقلت يا هذا دع ما يغيظ واقصد الثمن . قال ثمنها عشرة دراهم . فلشدة ما جبهني به ما استطعت ان اخاطبه في المساومة . فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل . واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً الى داره . فوثب اليه صاحب البطيخ من الدكان ودعا له وقال يا مولاي هذا بطيخ

يا كور. باجازتك احمله الى البيت؟ فقال الشيخ ويحك بكم هذا؟ قال بخمسة دراهم. قال بل بدرهمين. فباعه الخمسة بدرهمين، وحملها الى داره، ودعا له وعاد الى دكانه مسروراً بما فعل.

فقلت يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك. استمت علي في هذا البطيخ. وفعلت فعلتك التي فعلت وكنت قد اعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولا. فقال اسكت هذا يملك مائة ألف دينار.

فعلمت ان الناس لا يكرمون احداً اكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة ألف دينار. وانا لا ازال على ما تراه حتى اسمع الناس يقولون ان ابا الطيب قد ملك مائة ألف دينار».

إن لم تكن هذه القصة حقاً فهي تمثل ما كان في نفس ابي الطيب من التوسل الى الجاه والسؤدد بجمع المال اذ لم يكن له وسيلة اخرى.

ذلك إجمال القول في اصول الاخلاق التي ترجع اليها او تتصل بها اخلاق الشاعر ومنازعه.

يقول بعض الكاتبين عن ابي الطيب انه لا خلق له فهو منافق متقلب تقلب الاحوال كنود. يمدح الرجل فيفضله على الناس طراً ثم يتركه الى غيره فينسى ما قال من قبل ويرفعه فوق البشر ثم يتركه الى ثالث وهلم جرا . وهو قد صحب سيف الدولة ثماني حجج فأدرّ عليه الرزق، ونبّه من ذكره فلم يمنعه ذلك ان يهجره مغاضباً ويذهب الى كافور فينظم في مدحه روائع القصائد ويعرض بصديقه القديم بل يهجوه في مثل قوله :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللبن

وقد اقام في كنف كافور أربع سنين يمدحه في الحين بعد الحين ثم سخط عليه ففارقه مراغماً وصب عليه لعنات محقت مدائحه كلها .

كذلك يقول القائلون. ومنهم من يفيض على الشاعر من السب والهجاء ما يذكرنا بأهاجي كافور .

وجوابي عن الشق الاول ان ذنب ابي الطيب في هذا أنه كان من شعراء القرن الرابع فسار على سنن سلفه ومعاصريه من

الشعراء . وكان عرف الناس يبيح للشاعر ان يكسب المال بشعره ولا يرى فى هذا مهانة. واذا تصدى الشاعر للمدح فانما هي صناعة قوامها خلق المعاني وتصويرها ورفع قدر الممدوح بها ، وابعاد صيته فيها. ولم يكن هذا المدح كله حقاً فيجب على الشاعر ان يلائم بين ما قال امس ومايقول اليوم. فاذا أردنا ان نقدر اخلاق الرجل فعلينا ان نزنها بميزان القرون الذي عاش فيه .

واما موقف الشاعر من سيف الدولة فالرجل كان اعرف بصاحبه . وقد احتمل هنات مازالت تتوالى حتى ضاق به ذرعه، فأنذر صديقه وحذره فراقه فلم يحذر واستمر يستمع المفسدين حيناً بعد حين .

وقد فارقه مغاضباً وعتب عليه احياناً فعرّض به ، وذكر اياديه احياناً فمدحه واعرب عن ندمه لمفارقته في مدائح كافور . وكان تعريضه وتصريحه فى بني حمدان اشبه بقول الصديق الغاضب العاتب .

وسيف الدولة نفسه لم يرَ في فعل ابي الطيب ما يصده عن مكاتبته والاهداء اليه ودعوته الى جانبه وترغيبه في معاودة صحبته وابو الطيب هو الذي استمرّ عاتباً على صديقه يأخذه باستماعه لوشايات حساده ، ويعلمه انه خائف ان تعود الوشايات سيرتها الاولى. وقد اسلفت بيان هذا في الكلام على الشاعر والامير في الفصل الخامس عشر .

وأما كافور فقد قصده الرجل تاركا صديقاً جذب بضبعه وأسبغ عليه برّه، وحساداً ينالون منه ويرمونه بالغدر والكفران، منطوياً على امل عظيم ، راجياً ان ينال المجد الذي طمح اليه، وان يبلغ في مصر ما ينفي عنه قول اعدائه وطعن حساده . فأدناه كافور من امله بمواعيده ثم مطله وسقاه الخيبة جرعة بعد جرعة ثم اضطره الى الفرار خائباً خائفاً بعد انتظار سنوات اربع ، فمضى وكأنه يسمع قهقهة سيف الدولة ومن حوله ،ويحس شماتة اعدائه انّى توجه .

وقد اعرب عما في نفسه من سيف الدولة وكافور ومن الملوك عامة

في قوله لابن العميد اني ملقىً من هؤلاء الملوك اقصد الواحد بعد الواحد واملكهم شيئا يبقى ببقاء النيرين، ويعطوني عرضا فانيا[1]

لا انكر ان الشاعر قسا على كافور واشتد في عتبه على بني حمدان فان يكن ابو الطيب ملوما على شيء فعلى مبالغته لا على انه فارق سيف الدولة او هجا كافورا

وحسب ابي الطيب فخرا انه لم يهج احدا قط بانه حرمه مالا او اكدى في العطاء . وقد اعطاه بعض الممدوحين دينارا واعطاه الآخر دراهم قليلة ، كما تقدم . فما هجا احداً بمنع او بقتير وانما هجا من اراد الغض منه او سامه هوانا . هجا من اخذ عليه طريقه و حاول ان يقسره على ان يمدحه وهو ابن كيغلغ ، ومن ملأ نفسه املا بمواعيده وكذبه ثم مطله واخلفه وهو كافور . وعرّض بصديق رفع قدره ثم تجنى عليه يبتغي ان ينال ثمن ما اعطاه ، من انفته وابائه وهو سيف الدولة. ثم هجا ضبة بن يزيد استجابة لاصدقائه ورداً لشتمه . ولست ادفع عن الشاعر اللوم

(١) انظر ص ٢٤٣

فى هذا الهجاء ولكن اقول انه لم يهج من اجل المال .

واختم هذا الفصل باثبات آراء بعض معاصري ابي الطيب اذ كانوا أعرف به، وابصر بزمانهم، واقدر على تقدير الاخلاق فيه.

قال ابن فورّجه :

« كان المتنبي داهية ، مرّ اللسان ، شجاعاً ، حافظاً للآداب عارفاً باخلاق الملوك . ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا بخله وشرهه على المال » [1] .

وقال صاحب الايضاح :

« وكان المتنبي مرّ النفس ، صعب الشكيمة حاداً مجداً » .

وقال أبو الفتح ابن جني :

« ولقد كان من الجد فيما يعانيه ، ولزوم اهل العلم فيما يقوله ويحكيه على اسدّ وتيرة ، واحسن سيرة . . . . وحقاً اقول لقد شاهدته على خلق قلما تكامل الا لعالم موفق » [2] .

واخيراً اقول : ان لم يكن ابو الطيب عف نفسه بهذه الابيات

---

(١) الصبح ص ٥٠ . (٢) مقدمة شرح ابن جني .

فهي المثل الذي يصبو اليه :

واهوى من الفتيان كل سميدع نجيب كصدري السمهري المقوّم

خطت تحته العيسُ الفلاة وخالطت

به الخيلُ كبات الخميس العرمرم

ولا عفة في سيفه وسنانه ولكنها في الكف والطرف والفم

الباب الثانى

علمه باللغة والادب وغيرهما

يعرف جمهور المتأدبين أبا الطيب شاعرا واسع المعرفة باللغة ولكنهم لا يعرفونه اماما من أئمة اللغة في القرن الرابع، كما يتبين فيما يلي :

قدمت في الكلام على نشأة ابي الطيب انه درس اللغة والادب، واثبت رواية تتضمن انه لقي جماعة من كبار الادباء في عصره ولكن هذه الرواية على ما اظهرتُه من الوهن في بعض نواحيها لم تبين كم طلب اللغة والادب على هؤلاء الشيوخ ولا كيف طلب . وقد بينت آنفا ان رحيل الشاعر الى الشام كان سنة احدى وعشرين وثلاثمائة وهو في سن الثامنة عشرة .

وما روى لنا انه طلب الادب على احد في الشام الا قول الثعالبي ان اباه رحل به الى الشام فلم يزل يردده في مكاتبها الخ[1] وجائز ان

---

(١) انظر ص ٤٥

يكون الشاب المتوقد ذكاء قد درس الادب واللغة على بعض ادباء الشام ايضا .

والذي لاريب فيه ان أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها ، ولقن عن أهل البادية منها ما لا نعلمه لشاعر آخر من شعرائنا . وقد بلغ في هذا ان عدّ في عصره من علماء اللغة وان غلب الشعر عليه .

والاستدل على هذه الدعوى على النسق الآتي :

١ — رويت لنا حوادث وأقوال متفرقه تبين عن اشتهاره بمعرفه اللغة وتعرب عن رأي معاصريه فيه :

قال ابن الانباري « ويحكى ان ابا الطيب اجتمع هو وابو علي الفارسي فقال له ابو علي : كم جاء من الجمع على وزن فعلى فقال حجلي وظربي جمع حَجَل وظَرِبان . قال ابو علي فسهرت تلك الليلة ألتمس لهما ثالثا فلم اجد . وقال في حقه ما رأيت رجلا في معناه مثله . » وهذه الجملة الاخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان وقال : ولو لم يكن له من الفضيلة الاقول ابي علي

هذا فيه لكفاه . لان ابا علي ، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله ، لم يكن ليطلق عليه هذا القول الا وهو مستحق له عنده . »

فسؤال ابي علي ابا الطيب هذا السؤال دليل على انه لفت الناس اليه بسعة معرفته باللغة . ثم شهادته له دليل آخر .

ولما وقع الجدال بين ابي الطيب اللغوي وابن خالويه في اللغة بحضرة سيف الدولة قال الامير : الا تتكلم يا ابا الطيب ؟ فتكلم ونصر ابا الطيب اللغوي على ابن خالويه[1] . فسؤال سيف الدولة ابا الطيب ان يتكلم في امر يتجادل فيه اثنان من اللغويين دليل على عدّه من علماء اللغة .

ولما دخل على الوزير المهلبي في بغداد انشد بعض الحاضرين وفيهم ابو الفرج الاصفهاني هذا البيت :

سقى الله امواهاً عرفت مكانها ... جُراما وملكوما وبذّر فالغمرا

فقال ابو الطيب هو جرابا . وهذه امكنة قتلتها علما .

---

(١) انظر ص ١٢٦

وانما الخطأ وقع من النقلة[1]

وقد حكى الحاتمي انه ناظر ابا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته في الشعر بل ناظره في اللغة ايضا ، وحكى ان ابا الطيب قال له اللغة مسلّمة لك فقال وكيف تسلمها وانت ابو عذرتها واولى الناس بها واعرفهم باشتقاقها والكلام على افانينها وما احد اولى بأن يسأل عن غريبها منك[2]

وفي هذا برهان على اشتهار ابي الطيب بمعرفة اللغة ولو كان كلام الحاتمي [تهكما] وسخرية او كانت قصته كذبا

ولما نزل عند ابن العميد في ارّجان قرأ عليه كتابا جمعه فى اللغة . قال فى الايضاح « وكان ابو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه . ويتعجب من حفظه وغزارة علمه »[3]

وقال الخالديان « كان ابو الطيب المتنبي كثير الرواية ، جيد النقد ... وكان من المكثرين فى نقل اللغة والمطلعين على غريبها ولا يسئل عن شيء الا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر »

---

(١) انظر ص ٢٢١ (٢) ياقوت: الحاتمي والصبح ص ٧٩ (٣) الخزانة ج١ ص٣٨٦

وقال صاحب الايضاح: « وجملة القول فيه انه من حفاظ اللغة ورواة الشعر »[1]

وقال ابن جني: « ولقد كان من الجد فيما يعانيه ، ولزوم اهل العلم فيما يقوله ويحكيه على اسد وتيرة واحسن سيرة »

٢ — وقد أثرنا بعض كلامه فى اللغة. وذلك قسمان:

مجادلته ابن جني فى مسائل عرضت اثناء قراءة الديوان عليه . وحسبك بمن يناظر فى اللغة والصرف ابن جني امام اهل العربية فى التصريف ثم يشهد له ابن جني الشهادة السالفة . وعندنا من هذه المجادلات امثلة .

والثاني ما املاه ابو الطيب نفسه شرحا لبعض شعره . وقد عثرت على نسختين من الديوان فيهما كثير من هذا الشرح . وفيه من التبيين وايراد الشواهد ونسبة الاقوال الى اصحابها ما يشعر القارئ انه يقرأ لاحد أئمة اللغة .

وانقل هنا مثالين من املائه على بعض ابيات ديوانه

---

(٢) الصبح ص ٨٠ والخزانة ص ٣٨٩

تبصرة للقارئ . جاء فى شرح البيت :

أحاد أم سُداس فى أُحاد

لييلتنا المنوطة بالتناد :

«قال أبو الطيب يقال أُحاد وثناء وثلاث ورباع الى عشار فى المؤنث والمذكر غير مصروف. والفراء يصرفها اذا جعلها نكرات وكل ما لا ينصرف من الاسماء يصرف فى الشعر لان الصرف الاصل. وهذا الذي ينسب اليه فى العدد فيقال ثناني وثلاثي ورباعي وخماسي الى عشاري . قال ابو النجم :

فوق الخماسي قليلا يفضله ادرك عقلا والرهان عمله

وانشد :

ضربت خماس ضربة عبشمى

أدار سداس الا يستقيما

والكميت:

فلم يستريثوك حتى رميت فوق الرجال خصالا عُشارا

وللهذلي :

يصيّد أُحدان الرجال وان يجد ... ثُناءهم يفرج بهم ثم يزدر

وانشدني :

أحمّ الله ذلك من لقاء ... أُحاد أُحاد فى شهر حلال

وحكى ابن السكيت عن ابي عمرو: ادخلوا موحد موحد ومثنى مثنى ومثلث مثلث ومربع مربع وكذلك الى العشرة . وكذلك ادخلوا أُحاد احاد وثناء ثناء وثلاث ثلاث ورباع رباع الى العشرة . قال علي (يعني ابن حمزة راوية ابي الطيب) : وقال ابو الطيب: وكان ابو حاتم تبع ابا عبيدة فى قوله فى كتاب المذكر والمؤنث : « ورباع رباع . ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك . » ثم رجع عنه فقال فى كتاب الابل : « ورباع الى العشرة »

قال ابو الطيب واما ليبلتنا فتصغير تعظيم كقول لبيد

وكل اناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفرّ منها الانامل

الرواية التي اعرفها خويخية . وكذا انشده المبرد واليزيدي وثعلب وانشدنيه المتنبي دويهية (هذا من قول علي ابن حمزة)

وقال الانصاري : أنا جُذَيلها المحكّك، وعُذَيقها المرجّب ، قال: وتصغر الاسماء على هذا المعنى كقولهم كليب وعمير . قال وما يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه : أنا هوى ومعي سلاحي فصغّره .

والتنادي أراد التنادي بالرحيل » . ا هـ

وفي شرح البيت :

اذا عرضت حاج اليه فنفسه   الى نفسه فيها شفيع مشفع

قال ابو الطيب : يقال حاجة وحاج وحاجات وحوَج . وعلى غير القياس حوائج . وتقول العرب في نفسي منه حوجاء اي حاجة . وأنشد :

ألا ليت شوقاً بالكناسة لم يكن

اليها لحاج المسلمين طريق

وقال آخر :

لعمري لقد لبّثتني عن صحابتي   وعن حوَج قضّاؤها من شفائيا

وانشد لامرئ القيس :

لتقضى حاجات الفؤاد المعذب

وأنشد الفراء :

نهار المرء أمثل حين يقضى خوائجه من الليل الطويل

وزعم الاصمعي ان حوائج مولّدة . قال ابو الطيب: وهي كثيرة على ألسن العرب خرجت عن القياس . قال البصري (علي بن حمزة) وانشدني ابو الطيب للشماخ :

تقطع بيننا الحاجات الا حوائج يعتسفن مع الجريّ

قال حوائج جمع حائجة على القياس وهو صحيح . وقد ذكر ذلك ابن دريد فقال حاجة وحائجة وحوجاء » . اه

ذلكم مثال مما املاه الشاعر على رواة ديوانه . واني لراج ان ييسر الله لي عما قليل طبع الديوان مجرداً من كل شرح الا املاني الشاعر والمقدمات التاريخية التي تصدّر بها بعض القصائد . واحسبها من املاء الشاعر كذلك .

٣ — وقد قرئ على ابي الطيب في مصر كتاب المقصور والممدود لابي العباس بن ولاد فصححه واخذ على مؤلفه غلطات

وقد عثرت على رسالة اسمها « التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوي» جاء في مقدمتها :

« قال ابو القاسم : وكان هذا الكتاب اعني المقصور والممدود قرئ على ابي الطيب بمصر سنة سبع واربعين وثلثمائة . فردّ فيه على ابن ولاد اغلاطاً وبينها واستشهد عند بعضها. فجمع رد ابي الطيب وشواهده بعض المصريين وادّعاه لنفسه بعد خروج ابي الطيب من مصر . واضاف اليها اشياء من عنده غلط فيها هو ، واشياء اصاب فيها. وكان هذا المدعي سمع هذا الكتاب وغيره من ابن ولاد . وعنه سمعته . وهذا المدعي يعرف بأبي الحسين المهلبي . فاذا مرّ من تلك الاغلاط والشواهد شيء في كتابنا عزوناه الى مستحقه ، وبيناه ان شاء الله » .

فأما المهلبي هذا فهو ابو الحسن علي بن احمد المهلبي اللغوي المتوفي بمصر سنة ٣٨٥ . وفي اثناء ترجمته يقول ياقوت : « وذكر عليّ بن حمزة البصري النحوي في كتاب الرد على ابن ولاد في المقصور والممدود ان ابا الحسن المهلبي كان لقيطاً وكان له

اختصاص بالمتلقب بالمعز والعزيز المستوليين على الديار المصرية ومن جلسائهما الخواص وأدرك دولة كافور الاخشيدي وله مع ابي الطيب احمد بن الحسين المتنبي قصة » .

وعلي بن حمزة هذا راوية ابي الطيب . وجائز ان يكون كتابه في الردّ على ابن ولاّد قد تضمن رد ابي الطيب . ولعلي بن حمزة سبعة كتب اخرى في الرد على اللغويين . يقول ياقوت رأيتها كلها في مصر [1] . والقصة التي وقعت بين المهلبي هذا وابي الطيب في مصر هي كما رويت عن المهلبي نفسه :

«وقع بيني وبين المتنبي في قول العدواني :

يا عمرو الاّ تدع شتمي ومنقصتي

اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وذلك ان المتنبي قال ان الناس يغلطون في هذا البيت . والصواب اشقوني من شقات رأسه بالمشقاة . وهو المشط . فقال المهلبي فقلت له اخطأت في وجوه : احدها انه لم يُرو كذلك

---

(١) معجم الادباء ج ٥ ، ص ٢٠٣ .

والآخر انه يقال شقأت بالهمزة وايضاً فاني اظنك لا تعرف الخبر فيه وما كانت العرب تقول في الهامة انها اذا لم يثأر بصاحبها لا تزال تقول اسقوني فاذا تأروا به سكن[1] .» هذه رواية المهلبي وليس يعنينا ان نناقشها هنا .

وقد قرأت كتاب التنبيهات على مقصور ابن ولاد وهو كتاب صغير ، فجمعت ما نسبه المؤلف الى ابي الطيب من الرد على ابن ولاد واثبته هنا :

« وقال ابن ولاد في باب الشين : وذكر عن ابي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمرو انهما قالا الشَذ و لون المسك قال الشاعر :

إن لك الفضل على صحبتي ... والمسك قد يستصحب الرامكا

حتى يعود الشذو من لونه ... اسود مضنوناً به حالكا

وهذا ما اخذه عليه المتنبي قبلنا فقال هو الشِذو . وقد اصاب المتنبي وغلط ابن ولاد في فتحه .

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الطاء) : والطُرقي في

(١) معجم الادباء : علي بن أحمد المهلبي .

النسب من قولهم الطُرقي والقُعدى فالطُرقي ابعدهما نسباً والقعدى ادناهما نسباً .

وهذا ما اخذه عليه المتنبي قبلنا فقال الصواب الطرفي بالفاء .

وقال ابن الاعرابيّ يقال فلان أقعد من فلان اي اقل آباء . واطرف من فلان اي اكثر آباء . وهو مأخوذ من الطرف وهو البعد . وقال الأصمعي يقال فلان بيّن الطرافة اذا كان كثير الآباء الى الجدّ الاكبر . وهو عندهم مدح كما قال الشاعر :

طرفون لا يرثون سهم القُعدُد (١)

وهذا الذي حكاه المتنبي مشهور معروف من قول ابن الاعرابي والاصمعي (وهو) الصحيح . وقد ادعى هذا الرد ابن الملتقط (يريد ابا الحسن المهلبي) وكذب في ادعائه وهو من رد المتنبي .

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الغين) غضبى مائة من الابل معروفة كقولك هنيدة . وانشد :

---

(١) هو لابي وجزة . وصدره : أمرون (بكسر الميم) ولادون كل مبدع .

ومستخلف من بعد غضبي صُرَيْمة

فأحرِ به لطول فقر واحربا

وهذا ما رواه المتنبي فادعاه ابن المنبوذ (يريد المهلبي ايضاً)

فقال الذي رواه ابو العباس (ابن ولاد) غضنى بالنون. وهو خطأ

انما هو غضبي بالياء . وهذا صحيح .

ذلكم ابو الطيب في علمه باللغة وشواهدها ونحوها وصرفها.

ومن اجل هذا ترجم له ابن الانباري في كتابه « نزهة الالباء في

طبقات الادباء » الذي ترجم فيه لرجال الأدب واللغة والنحو .

ولم يذكر غيره من الشعراء إلاّ ابا نواس وابا تمام وابن المعتز وابن

الجهم والمعري وابا اسحق الغزي .

واما معرفته بما عدا اللغة والادب فظننا بأمثاله من رجال

عصره ونظرُنا في شعره يدلان على انه قد سمع وقرأ فحصل كثيراً

من المعارف الشائعة في القرن الرابع .

نجده يمدح محمد بن زريق الطرسوسي فيذكر امثلة متتالية

من القصص الدينية :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلمات صرن شموسا

أو كان صادف رأس عازر سيفه ... في يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى خاض فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه ... عبدت فكان العالمون مجوسا

ويقول :

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبر ان المانوية تكذب

ويقول في هجاء كافور :

ألا فتى يورد الهندي هامته ... كيما تزول شكوك الناس والتهم

فانه حجة يؤذي القلوب بها ... من دينه الدهر والتعطيل والقدم

يشير الى آراء الدهريين ، والمعطلة ، والقائلين بقدم العالم .

ويقول في مدح دلير :

فتمليك دلير وتعظيم قدره ... شهيد بوحدانية الله والعدل

يشير الى قول المعتزلة في التوحيد والعدل وفعل الصالح والاصلح .

فهذا كله دليل على اطلاع الرجل على الآراء والقصص

الدينية . وقد نظم قصيدة في مصر حينما اصطلح كافور وانوجور بن الاخشيد . فلما أراد ان يبين عواقب الشقاق ساق امثلة من تاريخ الجاهلية والاسلام :

واذا كان في الانابيب خلف　　وقع الطيش في صدور الصعاد

أشمت الخلفُ بالشراة عداها　　وشفى رب فارس من اياد

وتولى بني اليزيديّ بالبصرة　　حتى تمزّقوا في البلاد

وملوكا كأمس في القرب منا　　وكطسم واختها في البعاد

فقد ذكر انقسام الخوارج، ووقعة ملك الفرس وقبيلة اياد وما أصاب بني اليزيدي وطسما وجديسا.

وقال في مدح ابن العميد :

مَن مبلغ الاعراب أني بعدهم　　لاقيت رسطاليس والاسكندرا

ولقيت بطليموس دارس كتبه　　متملكا متبديًا متحضرا

والشاعر لا تنجده ذاكرته بهذه الامثلة ولاءً إلاّ بعد اطلاع واسع على التاريخ .

ولاريب أنه أكمل درسه في اللغة ، واستفاد فنونا اخرى

من مطالعة الكتب . وقد روي انه كان يطالع الكتب كل ليلة قبل ان يهجع [١] .

وقد مرّ في الكلام على نشأته أنه كان مولعاً بملازمة الوراقين يستفيد من دفاترهم .

وفي رواية ابي نصر الجبلي عن مقتل أبي الطيب انه كان يحمل كتبه معه في اسفاره ويحرص عليها وكان قد احكمها قراءة وتصحيحاً [٢] .

وقد أعرب هو عن شغفه بالقراءة وأنسه بالكتب في قوله:

أعزّ مكان في الدُنا ظهر سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

---

(١) الصبح ص ٥٠ (٢) = ص ٩٨ .

الباب الثالث

مذاهبه وآراؤه

لو تجوزت في تفسير الفلسفة كما يتجوز الكتاب في وقتنا لجعلت عنوان هذا الباب « فلسفة أبي الطيب » ولكن الفلسفة في حقيقتها نظرات شاملة نافذة تنتج آراء في اصل العالم اوا لحياة او الاخلاق يقوم عليها نظام من الفكر متصل متماسك. فالآراء المنثورة التى تلقى القارئ في ثنايا شعر شاعر او نثر كاتب لا تسمى فلسفة.

ولابي الطيب آراء منها ما يُذكر في شعره مرة او مرتين كما يقع في شعر غيره ومنها ما يتكرر بصور شتى تلفت القارئ الى أن وراء هذه الصور المكررة فكرة غالبة ورأيا متمكنا في نفس الشاعر. وهذا هو الذي يعد رأيا للشاعر، وصورة من صور عقله او قلبه. وبه يمتاز شاعر عن شاعر ويقال مذهب فلان ومذهب فلان.

وسأعرض على القارئ في هذا الفصل جملة من آراء أبي الطيب ومذاهبه التقطتها من شعره ورتبتها :

١ — آراء أبي الطيب انسانية ترجع الى حياة الانسان ، واخلاقه وعواطفه ، وعلاقته بالجماعة التي يعيش فيها . فلما يتعرض شاعرنا لفلسفة العالم ومبدئه ومنتهاه كأبي العلاء المعري ولكن فكره يجد مضطرباً واسعاً في الناس بين الحياة والموت ، والقوة والضعف واللذة والالم والنيل والحرمان . . وهلمّ جرا .

٢ — يكثر كلام الشاعر عن فناء الحياة وتقلبها وزوال نعيمها وقد يغلبه الفكر في هذا فينطق به في اثناء المدح اوالغزل كما رأيتَ في الكلام على اخلاقه . يقول :

نَصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال

هَوّن على بصر ماشق منظرُه ... فانما يقظات العين كالحلم

لو فكّر الانسان في منتهى ... حسن الذي يسبيه لم يسبِهِ

لم يُر قرن الشمس في شرقه ... فشكّت الانفس في غربه

وما الدهر أهل أن يؤمل عنده ... حياة وأن يشتاق فيه الى النسل

مُشِبُّ الذي يبكي الشباب مُشيبُهُ

فكيف توقيه وبانيه هادمه

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بدّ من شربه

٣ — والحياة هي مسير الناس أفواجاً اثر افواج بين الوجود والفناء :

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة ... وميت ومولود وقالٍ ووامق

سُبقنا الى الدنيا فلو عاش اهلها ... مُنعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتي تملك سالب ... وفارقها الماضي فراق سليب

يدفّن بعضنا بعضاً ويمشي ... اواخرنا على هام الأوالي

٤ - وهذه الحياة على قصرها ، واضطرابها ، واوصابها وآلامها محبوبة يكلف كل انسان بها ويتقاتل الناس عليها :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبا

فحب الجبان النفس اورده التقى ... وحب الشجاع النفس اورده الحربا

ولذيذ الحياة أنفس فى النفس وأشهى من ان يمل وأحلى
واذا الشيخ قال اف فما مل حياة وانما الضعف ملا

٥ — وينبغي للانسان ألا يجزع من الموت فهو حادث طبيعي

الف هذا الهواء اوقع في النفس ان الحمام مر المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والاسى لا يكون بعد الفراق

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الارواح من جوه وهذه الاجسام من تربه

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

٦ — والعيش جهاد مستمر ، وغلاب بين الناس لا هوادة فيه ولا رحمة :

دون الحلاوة في الزمان مرارة لا تختطي إلا على اهواله

انما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا

من أطلق التماس شيءٍ غلاباً ... واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كلّ غاد لحاجة يتمنى ... ان يكون الغضنفر الرئبالا

والناس لا تكفيهم مصائب الزمان الطبيعية بل يزيدون عليها مصائب بأيديهم . لا يألون في التنازع والاحتراب ؛ وليس على الارض ما يستحق هذا التعادي والتقاتل ولكن الرجل الأبيّ لا بدّ له ان يدفع عن نفسه العدوان والهوان :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من امره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه ... وان سرّ بعضهم احيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ... ولكن تكدّر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر ... حتى اعانه من اعانا
كلما أنبت الزمان قناة ... ركّب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس اصغر من ان ... نتعادى فيه وان نتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا ... كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحيّ ... لعددنا اضلنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بدّ ... فمن العجز ان تكون جبانا

كل ما لم يكن، من الصعب في الانفس. سهل فيها اذا هو كانا

٧ — والناس ظالمون بطبعهم مخادعون، لا عهد لهم ولا خير فيهم فليسوا أهلا للرحمة :

اذا ما الناس جربهم لبيب فاني قد اكلتهم وذاقا
فلم ارَ ودهم الا خداعا ولم ارَ دينهم الا نفاقا

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت اشك فيمن اصطفيه لعلمي انه بعض الأنام

ولا تشك الى خلق فتشمته
شكوى الجريح الى العقبان والرخم

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

واما ذمه اهل زمانه خاصة فملء شعره في عهده الاول قبل مصاحبة سيف الدولة . وقد تقدم منه امثلة [1] .

(١) انظر صفحة ٨٧ و ٨٨ .

٨ — والانسان كريم ولئيم بخلقته . لايستطيع عنها حولا :

واذا الحلم لم يكن عن طباع   لم يحلّم تقدّم الميلاد

واسرع مفعول فعلت تغيراً   تكلف شيء في طباعك ضده

فقلما يلؤم في ثوبه   الاّ الذي يلؤم في غرسه

من وجد المذهب عن قدره   لم يجد المذهب عن نفسه

وتأبى الطباع على الناقل

٩— الحياة والعيش والناس في نظره كما وصف. فماذا يفعل الرجل اللبيب ؟ أيفرّ الى الزهد ، ويخلص من مصائب الحياة ، وآلام العيش ، ومكائد الناس بان يخلي الميدان، ويتجنب المعترك؟ أيتأسّى بابي العلاء المعري ام يتناسى الهموم والآلام باللهو والمرح وتسليط الخمر على العقل ويتخذ لنفسه قدوة من ابي نواس ويجعل هجيّراه رباعيات الخيام ؟ هنا تظهر نفس ابي الطيب قوية : يجب ان تلبس الحياة على علاتها، ويجب ان يأخذ كل حي نصيبه من العراك ، وحظه من الجهاد . فمن نكص فهو جبان ، ليس له الا الذلة والاستكانة والحرمان :

عجبت لمن له قدّ وحدّ ... وينبو نبوة القضم الكهام

ومن يجد السبيل الى المعالي ... فلا يذر المطيّ بلا سنام

ولم أر في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام

لا يدرك المجد الا سيد بطل ... لما يشق على السادات فعال

لا وارث جهلت يمناه ما كسبت ... ولا كسوب بغير السيف سأّل

ومن يك قلب كقلبي له ... يشق الى العز قلب التوى

ولا بدّ للقلب من آلة ... ورأي يصدّع صُمّ الصفا

ذريني انل ما لا ينال من العلى

فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل

تريدين لُقيانا المعالي رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وهذه الابيات من شعره في الكهولة . واما شعر الشباب فقد بلغ فيه حد التهور والطيش والثورة يريد الدنيا جهاداً وطعاناً وضراباً . وحسب القارئ ان يرجع الى القصيدة :

فؤاد ما تسليه المدام ... وعمر مثل ما يهب اللئام

والقصيدة :

لا افتخار الا لمن لا يضام   مدرك او محارب لا ينام

ليرى كيف تكون الدعوة الى عزة النفس وعلو الهمة ، والاقدام والمخاطرة :

١٠ — تمرين :

ذكر ابن القارح في رسالته الى المعري ابا الطيب وتحقيره اهل زمانه ، ونقل خرافة حبسه في بغداد بدعواه النبوة . وذكر قوله لسيف الدولة :

وتغضبون على من نال رفدكم   حتى ينغصه التكدير والمنن

ثم قال : « وهذا غير قادح في طلاوة شعره ، ورونق ديباجته ولكني اغتاظ على الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون ادخال الشبه والشكوك على المسلمين ويستعذبون القدح في نبوة النبيين الخ » .

فأجابه ابو العلاء في رسالة الغفران الى أن قال : « وقد دلت أشياء في ديوانه (ابي الطيب) انه كان متألها فمن ذلك قوله :

ولا قابلا الا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله ان يخزي بريته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

واذا رجع الى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان لان العالم مجبول على الكذب والنفاق . ويحتمل ان يظهر الرجل بالقول تديناً وانما يريد ان يصل به الى ثناء أو غرض واهله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفي الباطن ملحدون الخ.

ليت شعري أ كان قول ابن القارح عن ابي الطيب حديثاً شائعاً في زمانه ام هي دعوى النبوة صدّق بها الرجل فأدخل الشاعر في زمرة الزنادقة ؟ ان ما حكاه ابن القارح عن حبس ابي الطيب ببغداد وأنه كشف عن سلعة في بطنه وقال هذا طابع نبوتي وعلامة رسالتي الخ يدل على انه كان عامياً في تصديق ما ما يروى دون تثبت ولا نقد. وقد ظن كما ظن غيره ان ابا الطيب تنبأ. وحسب الرجل زندقة ان يتنبأ . وليتهم حين صدقوا قصة النبوة قالوا انها كانت عمل حدث في سن العشرين لا تقاس بها عقيدته طول عمره .

والخلاصة ان ابا الطيب لم يتهم بالحاد ولا زندقة اذا استثنينا

ما يحكى عن تنبئه . وقد علم القارئ رأيي فيه . وكان ابن القارح مولعاً بذكر الزنادقة في رسالته ليتبين عقيدة المعري .

وبعد فهل النظر في ديوان الشاعر يدل على زندقة او تدين ؟

في الديوان عبارات تنم عن الاستخفاف وقلة المبالاة بالدين . وقد ادرك الثعالبي بعضها من قبل فقال في تعديد عيوبه : « ومنها الايضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين » . ثم نقل ابياتاً منها قوله :

يترشفن من فمي قبلات هنّ فيه أحلى من التوحيد

وقوله في مدح طاهر العلوي :

وأبهر آيات التهاميّ انه ابوكم واحدى مالكم من مناقب

وقوله في مدح بدر بن عمار :

لو كان علمك بالاله مقسما في الناس ما بعث الاله رسولا

او كان لفظك فيهم ما انزل الفرآن والتوراة والانجيلا

هذا بعض ما اخذه الثعالبي عليه . ورواية البيت الاول : « هنّ فيه حلاوة التوحيد » . والبيت الثاني : « واجدى مالكم من مناقب » . لا تدفع الاعتراض .

وانا ازيد على ما ذكره الثعالبي قوله في مدح بدر ايضاً :

امسى الذي امسى بربك كافراً   من غيرنا معنا بفضلك مؤمنا

وقوله لسيف الدولة حينما اسقطت الريح خيمته .

فما اعتمد الله تقويضها   ولكن اشار بما تفعل
وعرّف انك من همه   وانك في نصره ترفل

وتفسير ابي الطيب الهم بالارادة لا يقوم بعذره .

مثل هذه الابيات تدل على الغلو في المدح ، وقلة المبالاة ، وتفسيرها بالغلطة والجرأة كالعبارات التي خاطب بها الممدوحين وآخذه عليها النقاد أولى من تفسيرها بالزندقة . فاستيعاب الديوان قراءة يبين ان الرجل كان شاعراً من شعراء المسلمين ينم كلامه عن المشاركة في العقائد الاسلامية في غير عناية بالنظر في الدين نظر ابي العلاء واشباهه . وانظر هذه الابيات المرتبة بالتاريخ . يقول وهو يصف مهراً له :

اى كبت كل حاسد منافق   انت لنا وكلنا للخالق

وقال لسيف الدولة :

ولولا قدرة الخلاق قلنا اعمداً كان خلقك ام وفاقا

فمن كان يرضي اللؤم والكفر ملكه

فهذا الذي يرضى المكارم والربا

خضعت لمنصلك المناصل عنوة واذل دينك سائر الاديان

وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة

والكفر مجتمع على الايمان. الخ

ومهذبٌ أمر المنايا فيهم فأطعنه في طاعة الرحمن

فهناك النصر معطيكه وارضاه سعيك في الآجل

الهى الممالك عن فخر قفلت به شرب المدامة والاوتار والنغم

مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بأمضى منها النعم

يُنفم لمهجتي ربي وسيفي اذا احتاج الوحيد الى الذمام

سبقت اليهم منايامُ ومنفعة الغوث قبل العطب

فخرّوا لخالقهم سجّدا ولو لم تغث سجدوا للصلُب

أرى المسلمين مع المشركين اما لعجز واما رهب

وانت مع الله في جانب قليلُ الرقاد كثير التعب

كأنك وحدك وحدته ودان البرية بابن وأب
مثلما احدث النبوة في العالم والبعث حين شاع فساده

فهذه الابيات وامثالها تحدث عن رجل مسلم اذا حدثت الابيات الاولى عن رجل مغال جريء على الدين.

١١ — هل كان ابو الطيب قرمطيا؟

يقول بلاشير في دائرة المعارف الاسلامية: لم يكن المتنبي قرمطيا ولكنه لقن آراء القرامطة التي اقيت بين الاعراب آذانا صاغية. وقد اشار في شعره الى قتل ابي طاهر القرمطي الحجاج في الحرم».

وقد سمعت ان المستشرق مسنيون القى في مؤتمر المستشرقين الاخير في رومية بحثاً ادعى فيه ان ابا الطيب كان قرمطياً. ورأيت بعض ادبائنا يميل الى هذا الرأي.

والابيات التي اشار اليها بلاشير والتي يحتج بها غيره هي قول الشاعر :

لاتركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم
بكل منصلت مازال منتظرى حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

وقد قدمت الكلام على هذه الابيات في صفحة ٤٩ .

وانا ابين فيما يلي مايدل عليه ديوان الشاعر من موقفه من القرامطة ثم من الشيعة العلويين .

فأما القرامطة فقد لقيت منهم الكوفة واهلها مصائب وأخذ الشاعر نصيبه منها . فما احسبه مال اليهم ولا سلك طريقتهم . واقل ما في الامر انه دعوى يعوزها الدليل . ثم مدحه سيف الدولة بقتل أبيه القرامطة لايدل على ان في نفسه ميلا اليهم . قال :

القائم الملك الهادي الذي شهدت قيامه وهداه العرب والعجم

ابن المعفّر في نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم

قال الواحدي : يعني حرب ابي الهيجاء القرامطة وولايته طريق مكة .

واما التشيع فربما يفهم من قصيدته التي مدح بها اباطاهر العلويّ في الرملة . قال فيها :

وابهر آيات التهاميّ انه ابوكم واجدى مالكم من مناقب

هو ابن رسول الله وابن وصيه　　　وشبههما. شبّهت بعد التجارب

فتسمية عليّ وصيا اتباع لآراء الشيعة.

واشار اليه طاهر العلوي بمسك في حضرة ابن طغج فقال:

الطيب مما غنيت عنه　　　كفى بقرب الامير طيبا

يبني به ربنا المعالى　　　كما بكم يغفر الذنوبا

ولكن ان لم يكن بد من الاحتجاج بما يجري على لسان الشاعر اثناء المدح فقد خالف الشيعة مخالفة صريحة اذ قال بعد البيت الاول:

اذا لم تكن نفس النسيب كأصله　　　فماذا الذي تغني كرام المناسب

وما قربت اشباه قوم أباعد　　　ولا بعدت أشباه قوم اقارب

فهو يقول ان النسب وحده لا يرفع انسانا اذا لم يرفعه فعله وهذا لا يسائر عقائد الشيعة في ذلك العصر.

وأبين من هذا قوله في مدح ابن العميد وهو وزير دولة شيعية:

فان يكن المهدّي من بان هديه فهذا والا فالهدى ذا فما المهدى
يعللنا هذا الزمان بذا الوعد ويخدع عما في يديه من النقد
هل الخير شيء ليس بالخير غائب ام الرشد شيء غائب ليس بالرشد

هل هذا قول يجيزه لنفسه رجل يرى رأى الشيعة في الامامة ؟

ثم مدح ابن حمدان بأنه سيف الدولة العباسية وتكراره هذا وتسميتها الدولة الهاشمية ودولة الخلافة وخيرة الدول وتسمية الخلفاء العباسيين أئمة قريش — كل هذا برهان على انه ما كان ينتحل الا نحلة جمهور المسلمين في عصره .

يقول في مدح ابن عمار :

حسام لابن رائق المفدى حسام المتقى ايام صالا

ويقول في سيف الدولة .

لقد سل سيف الدولة المجد معلما فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه

وشركت دولة هاشم في سيفها وشققت خيس الملك عن رئباله

لقد رأت كل عين منك مالئها   وجربت خير سيف خيرة الدول

ان الخليفة لم يسمك سيفه   حتى بلاك فكنت عين الصارم

امام للأئمة من قريش   الى من يتقون له شقاقا

لقد رفع الله من دولة   لها منك يا سيفها منصل

لامر أعدته الخلافة للعدى   وسمته دون العالم الصارم المضبا

١٢ — العصبية العربية :

أبو الطيب شاعر عربي النسب، عربي النشأة، عربي الروح فهو يمثل العربية تمثيلا صادقاً في خشونته ، ونفوره من الترف ؛ وترفعه عن الدنايا وابائه وطموحه وبعد همته وشجاعته واقدامه وصبره ودربته على السفر وبصره بالسبل والبلاد وهلم جرا . ولو ان عنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش ابو الطيب لأشبهوه في كثير من قوله وفعله .

ذلك تمثيله العربية في اخلاقه ونزعاته . واما تحدثه بالعصبية

العربية وعمله لها فسأجمل القول فيه بعد هذه المقدمة :

بعض الكتاب يحاولون ان يفسروا تاريخنا بنزعات العصر الحاضر وبما يحسون من عصبية . ولا بد لهم ان يتذكروا ان الامم الاسلامية في القرن الرابع كانت تعيش في اخوة الاسلام والتاريخ والادب وكانت عصبياتها لاتطغي على هذه الاخوة . وكانت الفوارق الوطنية والجنسية والسياسية تخالف ماتراه في عصرنا هذا . مثلا ابو الطيب حينما رحل من العراق الى الشام فمصر فالعراق ففارس فالعراق لم يسأل في طريقه عن موطنه ولم يكلف اظهار جواز السفر ولا تسجيل اسمه في سجلات الشرطة كلما فارق مملكة الى اخرى. وقد اقام في الشام سنين يمدح اناساً جلهم عرب، وغير العربي منهم كالعربي في آرائه ولغته ومعيشته. ورحل الى مصر فمدح رجلا اسود ولكنه مسلم يتكلم العربية ويعرف آدابها ولا يعرف لنفسه لغة اخرى ولا امة غير الامة العربية .

ولما رحل الى فارس لقي ابن العميد وهو علم من اعلام الادب العربي ثم سار الى عضد الدولة فاذا ملك عربي اللسان ينظم

الشعر العربي ويحب الادب العربي ويصل شعراء العربية ولا يبالي باللغة الفارسية وآدابها وشعرائها .

فاذا انتظرنا ان يكون ابو الطيب في هذه الجماعات ممثلا لعصبياتنا ونزعاتنا في العصر الحاضر فقد اردنا مخالفة السنن الاجتماعية . زعم بعض الكتاب ان ابا الطيب كان قد وافق سيف الدولة على خطة يزيلان بها حكم العجم عن البلاد العربية وذهب في هذا مذهباً مغرقاً في الوهم[1] . وقال كاتب آخر ان ابا الطيب كان في شعره داعية للاعاجم مشيدا بمجدهم وحضارتهم ، معظما رجالهم عدا مجه الخ[2] . واذ كان مرجع الرأي الخيال لا الحقيقة ودليله الوهم لا كلام الشاعر وتاريخه اختلف القائلان هذا الاختلاف في امر واحد بيّن .

ثم ننظر فيما يوحيه كلام الشاعر وتاريخه .

فاما مدحه الروزباري وابن طغج وكافور ودلير بن لشكروز وعضد الدولة فلا عار فيه ، ولا اخلال بعزة الشاعر العربية اذا

(١) مجلة المقتطف : عدد المتنبي (٢) مجلة المغرب الجديد : عدد المتنبي

تذكرنا المقدمة التي اسلفتها . فلم يبق الا النظر في كلام الشاعر لنتبين مافيه من عصبية او غيرها .

فاما أدلة العربية فثلاثة أضرب : الاول ذكر فيه العرب والعجم وأعرب عن عصبيتــه لقومه.والثاني لم يقس فيه العرب بغيرهم ولكنه دل فيه على اعتزاز بالعربية وافتخار بهـا . والثالث عطفه على القبائل العربية وحضه سيف الدولة على برّهم ورعاية الاخوة العربية فيما يشجر بينه وبينهم من خلاف .

فاما الاول فقوله :

أحق عاف بدمعك الهمم ... أحدثُ شيء عهدا بها القِدم
وانما الناس بالملوك وما ... تفلح عرب ملوكها عجم
لاادب عندهم ولاحسب ... ولاعهود لهم ولاذمم
بكل ارض وطئتها امم ... ترعى بعبد كأنهـا غنم
يستخشن الخز حين يلمسه ... وكان يبرى بظفره القلم

وقوله في ذم ابن كيغلغ موازنا بينه وبين ابى العشائر الحمدانى

أفعال من تلد الكرام كريمة ... وفعال من تلد الاعاجم أعجم

وقوله في رثاء يماك التركي احد جند سيف الدولة :

وان الذي امست نزار عبيده — غني عن استعباده لغريب

ومن ذلك استيحاشه في فارس من فقد اللغة العربية ، والوجه العربي واليد العربية وحنينه الى دمشق وضيافتها وحمص وخناصرة كما تقدم [1] .

وأما الثاني فيتجلى في مدائح سيف الدولة حيث يشيد بعربيته ، ويعدها من مفاخره كقوله :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد — فكيف اذا كانت نزارية عربا

تحير في سيف ربيعة اصله — وطابعه الرحمن والمجد صاقل

اذا العرب العرباء رازت نفوسها — فأنت فتاها والمليك الحلاحل

اطاعتك في ارواحها وتصرفت — بامرك والتفت عليك القبائل

رفعت بك العرب العماد وصيرت — قمم الملوك مواقد النيران

(١) انظر ص ٢٤٦ .

تشرف عدنان به لا ربيعة   وتفتخر الدنيا به لا العواصم

والثالث يتبين في قصيدتيه اللتين ذكر فيهما حرب سيف الدولة وقبائل العرب فاجتهد في عطف الامير عليهم وذكّره بعربيتهم وقرابتهم وقد تقدمت ادلة هذا في صفحة ١١٢ وما بعدها.

واما ما يخالف هذه العصبية او يتوهم انه يخالفها فبيانه فيما يلي :

١ — مدحه علي بن صالح الروزباري الكاتب بقوله :

فارسيٌّ له من المجد تاج   كان من جوهر على ابرواز

نفسه فوق كل اصل شريف   ولو اني له الى الشمس عاز

وبآبائك الكرام التأسي   والتسلي عما مضى والتعازي

تركوا الارض بعدما ذللوها   ومشت تحتهم بلا مهماز

وأطاعتهم الجيوش وهيبوا   فكلام الورى لهم كالنُحاز

واست ارى في هذا المدح اخلالاً بالعصبية العربية فمدح جماعة ليس تحقيراً أخرى لاسيما من شاعر له من وراء المدح مأرب. وكأن الشاعر ضاق عليه مجال القول في هذا الممدوح فملأه بشيء

من مجد الفرس القديم . ولو انه اراد تعظيم الفرس لاتسع له المجال في قصائد عضد الدولة وهو لم يذكر فيها كلمة عن الفرس وملوكهم وقد مدح ابو تمام والبحتري غير العرب وقال البحتري في القصيدة السينية التي وصف فيها ايوان كسرى :

ومساع لولا المحاباة مني ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس

ثم ذكر فضل الفرس على اليمن اذ أعانوا على اخراج الحبش .
ولم تعد مدائح ابي تمام وللبحتري مزرية بالعصبية العربية فيها .

٢ — وقال ابو الطيب في كافور :

ويغنيك عما ينسب الناس انه ... اليك تناهى المكرمات وتنسب
واي قبيل يستحقك قدره ... معد بن عدنان فداك ويعرب
أبلى الاجلة مهري عند غيركم ... وبدل العذر بالفسطاط والرسن
عند الهمام أبي المسك الذي غرقت ... في بحره مضر الحمراء واليمن

وفي البيتين الاولين موضع المؤاخذة لا يشفع فيه مقام المدح ومقتضى الصناعة اذا اشفعا في مثل قوله :

ومن قول سام لو رآك لنسله: فدى ابن اخي نسلي ونفسي وماليا

٣ — وقال في مدح ابن العميد :

أرأيت همة ناقتي في ناقة نقلت يداً سُرُحاً وخفاً مُجمَرا

تركت دخان الرمث في اوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا

مَن مُبلغ الاعراب اني بعدهم

لاقيت رسطاليس والاسكندرا

ولقيت بطليموس دارس كتبه متملكا متبدّياً متحضرا

والظاهر ان الشاعر يصف انتقاله من البداوة الى الحضارة فقد ذكر دخان الرمث وهو من شجر البادية وذكر الاعراب ثم قابل هذا بالعنبر وارسطاليس والاسكندر . فكلام الشاعر عن الاعراب لا العرب فليس فيه قياس امة بامة بل حال بحال : بداوة وجهالة بحضارة وعلم . ولكني مع هذا لا ابرّئ الشاعر من انه وقف نفسه موقف التهمة . وكان خيراً له ألاّ يقول هذا.

هذا ما يعرّ به القارئ اثناء قراءة الديوان من العصبية والخروج من العصبية .

ولست ارى هذه الاقوال المنثورة جديرة بالعناية . فانما كان ابو الطيب شاعر العرب بما مثّلهم في عيشه وخلقه وفعله وقوله كما قدمت في اول الفصل .

هذا ولأبي الطيب ، غير ما بينت ، آراء منثورة ترجع الى امور شتى لا تبين عن مذهب مكين في النفس ، ولا يستطاع تعدادها هنا .

الباب الخامس

ادب ابي الطيب

الفصل الاول

مكانته في الادب

كان شعر ابي الطيب في موضوعه واسلوبه يمتاز من شعر معاصريه . وكان ابو الطيب في انفته وكبريائه ، وتحدثه بالسؤدد والمجد فذا في الشعراء .

فهذا وذاك لفت الناس اليه منذ حداثته فما زال ذكره ينبه حتى فاق شعراء الشام . ثم اتصل بسيف الدولة فاتسع المجال لبيانه، وواتت الحال كبرياءه. فعلا قدره وسار شعره حتى كسف شعراء عصره جميعاً القريبين من سيف الدولة والبعيدين .

وكان الشاعر معجباً بنفسه مفتونا بشعره منذ نشأ . يقول في قصيدة الحسين بن علي الهمذاني :

يرومون شأوى في الكلام وانما ... يحاكي الفتى فيما خلا المنطق القِردُ

فهم في جموع لا يراها ابن دأية ... وهم في ضجيج لا يحسّ به الخلد

ومني استفاد الناس كل عجيبة ... فجازُوا بترك الذم ان لم يكن حمد

وفي قصيدة ابن طغج :

اذا صلت لم اترك مقالا لصائل ... وان قلت لم اترك مقالا لعالم

وفي قصيدة طاهر العلوي :

حملت اليه من لساني حديقة

سقاها الحجى سقي الرياض السحائب

ولما نبه ذكره عند بني حمدان اغتبط بادراك بعض آماله ،

وتحدث عن بعد صيته ، وسير شعره فقال :

أنا الذي نظر الاعمى الى ادبي ... واسمعت كلماتي من به صمم

انام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر القوم جرّاها ويختصم

وعندي لك الشرّد السائرات ... لا يختصصن من الارض دارا

قواف اذا سرن عن مِقولي ... وثبن الجبال وخضن البحارا

ولي فيك ما لم يقل قائل ... وما لم يسر قمر حيث سارا

وما انا الا سمهري حملته فزين معروضاً وراع مسدّدا

وما الدهر الاّ من رواة قصائدي

اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وسار به من لا يسير مشمّرا وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا

— ٢ —

وكان من نباهته أن تطلع الشعراء الى شعره منذ صباه. وقد ادعى بعضهم احدى قصائده : في النسخة (١٥٣٠) : حدثني ابو الحسن بن سعيد راوية المتنبي بحلب سنة اربع وخمسين ، وقد تناشدنا قصيدته الحائية التي اولها :

جللا كما بي فليك التبريح اغذاء ذا الرشأ الاغنّ الشيح؟

ان ابا الطيب حدّثه انه في بعض زوراته لآل القصيص كان عند رئيسهم فأنشده شاعر قدم عليه قصيدته الحائية التي قدّمنا ذكرها الى ان أتى على آخرها . فأخذ ابو الطيب الدواة وكتب لوقته قطعة لم يجز أن تروى عنه. وقد كتبناها في ديوانه هنا. »

وقد ألحقت القطعة بآخر النسخة واولها :

لمَ لا يغاث الشعر وهو يصيح وُيُرى منارُ الحق وهو يلوح
يا عصبة مخلوقة من ظلمة ضموا جوانبكم فاني يوح

وقد حكى ابو الحسين محمد بن احمد المغربي راوية ابي الطيب في كتاب الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي أن شاعراً عارض احدى قصائد ابي الطيب واستشهد بأبي سعيد السيرافي على ان قصيدته ابلغ، واخذ خطه بذلك. فانظر كيف كبرت على الشاعر معارضة ابي الطيب حتى استشهد بالسيرافي. وأنقل هنا للتفكّه قول المغربي في هذا: « وأما اعطاء ابي سعيد خطه فيوشك ان يكون من جنب ما حدثني به المعروف بابن الخزاز الوراق ببغداد، وابو بكر القنطري، وابو الحسين بن الخراساني، وهما ورّاقان ايضاً من جلة اهل هذه الصنعة، ان ابا سعيد اذا اراد بيع كتاب استكتبه بعض تلامذته، حرصاً على النفع منه، ونظراً في دق المعيشة، كتب في آخره وان لم ينظر في حرف منه: قال الحسن بن عبدالله. «قد قرئ هذا الكتاب عليّ وصح.» ليشتري بأكثر من ثمن مثله.»(١)

---

(١) ياقوت: السيرافي.

ولست اصدّق هذه الرواية عن ابي سعيد ولكن ساق اليها الحديث .

وحسبنا دليلا على منزلة الرجل ان شاعراً اديباً كابن دينار الذي رويت عنه كتب الزجاج وثعلب وابن الاعرابي وغيرهم يمدحه بقصيدة اولها :

رب القريض اليك الحل والرحل   ضاقت الى العلم الا نحوك السبل
تضاءل الشعراء اليوم عند فتى   صعاب كل قريض عنده ذلل[1]

وقد تخلل شعره الجماهير فحفظوه وتمثلوا به . اسلفت قصة الهاشمي الذي كتب وهو بمصر الى امرأته بحران متمثلا بمطلع القصيدة :

بم التعلل لا أهل ولا وطن   ولا نديم ولا كأس ولا سكن

فأجابته امرأته بل انت كما قال الشاعر في هذه القصيدة :

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم   ثم استمر مريري وارعوى الوسن

وقد حدث هذا الهاشمي ابا الطيب بالقصة وهو في مصر .

---

(١) ياقوت ج ٥ ، ص ٣٧٨ .

فالقصيدة التي قالها ابو الطيب في مصر سنة ٣٤٨ روتها نساء حران قبل خروجه من مصر [1].

— ٣ —

وكان من احسانه وتحليقه فوق شعراء زمانه ان اعجب به جماعة ، وحسدته اخرى . وكان من شذوذه وابتكاره في بعض المعاني والالفاظ ان كرهه قوم وألفى فيه آخرون مجالا للشرح والبحث .

فالشعراء واللغويون عند سيف الدولة اخذوا عليه مآخذ . والوزير المهلبي اغرى به شعراء بغداد ، وحرّض عليه الحاتمي فناظره او ادعى مناظرته ثم كتب كتابه « الموضحة في مساوي المتنبي » . وابن العميد انتقد بعض شعره وكأنه اراد ان يعلمه انه على سمو قدره لا يكبر على نقد ابن العميد . وسخط عليه الصاحب اذ دعاه اليه فاستكبر كما يقول الثعالبي فكتب رسالته « الكشف عن مساوئ المتنبي » . وكذلك ناقضه ابو اسحاق الفارسي [2].

---

(١) انظر ص ١٨١ . (٢) ياقوت : ابراهيم بن علي الفارسي .

فقد أصبح الشاعر مدار نقد وموضوع تأليف وهو حي .

— ٤ —

وشرح ابن جني ديوانه وكتب كتاباً آخر في تفسير معاني الديوان فتصدى للرد عليه عبدالله بن عبدالرحمن الاصفهاني وابن فورّجة وابو حيان التوحيدي ، ألف الاول « ايضاح المشكل من شعر المتنبي » . وألف ابن فورّجة كتابين « الفتح على ابي الفتح » و « التجني على ابن جني . » [1] وألف ابو حيان « الرد على ابن جني في شعر المتنبي » [2] .

وألف الشريف المرتضي من بعدُ كتاباً سماه تتبع ابيات المعاني للمتنبي التي تكلم عليها ابن جني .

وكتب بعض الادباء يزعم ان شعر ابي الطيب مسروق من ابي تمام والبحتري فكتب ابوالحسين محمد بن احمد المغربي راوية ابي الطيب كتاب « الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي » وجاء القاضي المنصف على بن عبد العزيز الجرجاني (ف ٣٩٢) يتوسط

(١،٢) ياقوت : ابن فورجة (بتشديد الراء) ، وابو حيان .

فكتب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه . فذاع الكتاب او كما قال ياقوت : سار مسير الرياح ، وطار في البلاد بغير جناح. وأقبل عليه المتأدبون حتى قال بعض اهل نيسابور :

أيا قاضياً قد دنت كتبه　　وان اصبحت داره شاحطه
كتاب الوساطة في حسنه　　لعقد معاليك كالواسطه

وكان مع هذا الجدل ذيوع شعره ، وا كباب الناس على قراءته ودرسه .

ومن امثلة هذا انه في سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة وقعت في نيسابور مناظرة بين بديع الزمان والخوارزمي فاقترح عليهما رئيس المجلس ان ينسجا على منوال المتنبي في قوله: ارق على ارق ومثلي يأرق. ثم قال لهما قولا على منوال المتنبي : اهلا بدار سباك اغيدها . وهاتان القصيدتان من قول الشاعر في صباه . فكيف بقصائد سيف الدولة وما بعدها .

— ٥ —

وازداد ذكر الشاعر نباهة على مرّ الزمان . يقول الثعالبي

(المتوفي سنة ٤٢٩) في كتاب اليتيمة ، فليس اليوم مجالس الدرس اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس ، ولا اقلام كتاب الرسائل اجرى به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد أُلفت الكتب في تفسيره وحلّ مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه . وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن ابكار كلامه وعونه . وتفرّقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه ، والنضح عنه والتعصب له وعليه .»

وكتب الثعالبي باباً مطوّلا جداً قال فيه ، « ويتميز هذا الباب به عن سائر ابواب الكتاب كتميزه عن اصحابها بعلوّ الشأن في شعر الزمان ، والقبول التام بين الخاص والعام ، »

وفي القرن الخامس شرح ابو العلاء المعري (ف ٤٤٩) الديوان وسمى شرحه معجز احمد .

وفي سنة ٤٦٢ أتم علي بن احمد الواحدي (المتوفي سنة ٤٦٧) شرح الديوان وقال في خاتمة الشرح ، « وانما دعاني الى تصنيف

هذا الـكتاب ، مع خمول الادب وانقراض زمانه ، اجتماع اهل العصر قاطبة على هذا الديوان وشغفهم بحفظه وروايته والوقوف على معانيه ، وانقطاعهم عن جمع اشعار العرب جاهليها واسلاميها الى هـذا الشعر ، واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومخاطباتهم حتى كأن الاشعار كلها فقدت الخ . »

ثم توالى الشراح : التبريزي والعكبري وغيرهم الى يومنا هذا.

وليس هذا مقام تعداد شروح الديوان التي تجاوزت الاربعين

واختم الـكلام باثبات قصة ان لم تـكن حقاً فهي مبينة عن الحق . روى صاحب الصبح : « ان رجلا من مدينة السلام كان يكره ابا الطيب المتنبي فآلى على نفسه الا يسكن بمدينة يذكر بها ابو الطيب وينشد كلامه . فهاجر من مدينة السلام . وكان كلما وصل بلداً سمع بها ذكره يرحل عنها حتى وصل الى اقصى بلاد الترك فسأل اهلها عن ابي الطيب فلم يعرفوه فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر اسماء الله الحسنى :

أساميا لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها [1]

فعاد الى دار السلام . » [2]

— ٦ —

وقد سار ذكر ابي الطيب في المغرب كما سار في المشرق . فأبو جعفر القزاز (المتوفي سنة ٤١٢ وقد قارب التسعين) كتب عن الشاعر كتابين : الاول « ابيات معان في شعر المتنبي » والثاني « ما اخذ عن المتنبي من اللحن والغلط » [3] . وابن رشيق (المتوفي سنة ٤٦٣) ذكره في كتاب العمدة مرات . وسماه خاتم الشعراء ، وقال : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس . »

وقد عرف ديوان الشاعر في الاندلس في حياته . نقله ابن الاشج (ف ٣٣٩) وابن العريف (ف ٣٩٠) [4] . وشرح الافليلي (ف ٤٤١) الديوان . ومن كتابه نسخة في دار الكتب المصرية . وكتب ابن سيدة (ف ٤٥٨) « المشكل من شعر المتنبي » وهو في دار الكتب ايضاً .

(١) البيت لابي الطيب (٢) ص ٩٠ (٣) ياقوت : القزاز (٤) مقال بلاشير في مجلة المغرب الجديد .

فأما شيوع شعره في أندية الاندلس منذ القرن الرابع فهنا قصتان : روى ابن خلكان ان المعتمد بن عباد انشد يوماً في مجلسه بيت المتنبي :

اذا ظفرت منك العيون بنظرة   أثاب بها مُعيي المطيّ ورازمه

وجعل يردده استحساناً له ، وفي مجلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الاندلسي فأنشد ارتجالا :

لئن جاد شعر ابن الحسين

فانما تُجيد العطايا . واللُّهى تفتح اللَهى

تنبأ عجباً بالقريض ولو درى   بانك تروى شعره لتألّها [1]

وفي الصبح المنبي [2] عن ذخيرة ابن بسام : « ان ابا عبدالله ابن شرف قال يوماً للمأمون بن ذي النون ايام خدمته اياه ، واستشفافه صُبابة عمره في ذَراه ، وقد اجروا ذكر ابي الطيب فذهبوا في وصفه كل مذهب : ان رأي المأمون — لا فارق العزّة والعلاء — ان يشير الى اي قصيدة شاء من شعر ابي الطيب

---

(١) ابن خلكان : المتنبي . (٢) ص ١٩٠ .

حتى اعارضه بقصيدة تنسي اسمه وتمحي رسمه . فتثاقل ابن ذي النون عن جوابه ، علماً بضيق جنابه ، واشفاقاً من فضيحته وانتشابه . وألح ابو عبد الله حتى أحرج ابن ذي النون واغراه . فقال له دونك قوله :

اعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي .

فخلا بها ابن شرف اياماً فوجد مركبها وعرا ، ومريرتها شذرا ، ولكنه أبلى عذرا ، وأرهق نفسه من امرها عسرا . فما قام ولا قعد ، ولا حل ولا عقد . وسأل ابن ذي النون بعدُ اي شيء أقصده الى تلك القصيدة ؟ فقال لأن ابا الطيب يقول فيها :

بلغت بسيف الدولة النور رتبة انرت بها ما بين غرب ومشرق
اذا شاء ان يلهو بلحية احمق اراه غباري ثم قال له الحق . »

وروى في الصبح عن ابن بسام ايضاً ان ابا علي بن رشيق حدث نفسه بمعارضة ابي الطيب في قصيدته :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء فلم يستطع .

— ٧ —

وفي المغرب الاقصى شاع ذكر ابي الطيب كذلك. واعجب الناس بشعره حتى كبار رجال الدين كالمهدي محمد بن تومرت .

واختصر شرح ابن جني في القرن السادس عيسى بن عبد العزيز الجزولي (المتوفي سنة ٦١٠) وألف عبد العزيز الفشتالى (المتوفي سنة ١٠٣١) كتاباً سماه : مقدمة لترتيب ديوان المتنبي. ويقال ان الشيخ عبد القادر الفاسي (المتوفي سنة ١٠٩٠) كان يحفظ ديوان ابي الطيب كله . وكذلك يقال عن ابي علي اليوسي (المتوفي سنة ١١٠٢) .[1]

— ٨ —

ولا ننسى كلف النحاة وعلماء البلاغة بشعر ابي الطيب . يجد الاولون في مشكله وعويصه مثاراً للجدل كما فعل ابن هشام في كتاب المغنى . ويجد الآخرون في محاسنه ومساوئه أمثلتهم كما فعل عبد القاهر الجرجاني وابو يعقوب السكاكي ومن اخذ عنهما من مؤلفي البلاغة .

---

(١) مقال بلاشير عن مجلة المغرب الجديد .

— ٩ —

ذلكم ابو الطيب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس كما قال ابن رشيق . قد اورث الاب العربي ثروة بشعره ولا سيما امثاله وحكمه . واورثه ثروة بما ثار حوله من نقد الادباء وجدالهم وبما كتب على ديوانه من شروح تجاوزت الاربعين .

لقد ادرك الشاعر الكبير في الادب المجد الذي فاته في السياسة . فان يكن المجد كما قال :

وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

فما زالت الدنيا مدوية باسمه ، والآفاق مرددة ذكره ، وما زال حتى اليوم مدار قيل وقال ، ومُثار مراء وجدال . ولم تزده مرّ الزمان الا نباهة ، ولا قدم العهد الا حداثة . وها هي البلاد العربية تحتفل اليوم بذكره بعد ألف عام من فاس الى مدينة السلام .

الفصل الثانى

قول النقاد فيه

اعرض في هذا الفصل طائفة من آراء الادباء في ابي الطيب منذ تكلم فيه النقاد الى القرن السابع .

وانما عنيت بآراء النقاد القدماء لانهم أقدر على نقد الشاعر ، وابصر بمواقع شعره في النفوس ، ومكانته من ادب عصره .

ذلكم بان ألفاظ اللغة ، على اطراد استعمالها ، ووضوح مدلولاتها ، تتضمن الى معانيها البينة دقائق لا تستطيع تفسيرها معاجم اللغة ، ومرامى تختلف باختلاف الزمان والمكان . فقد يدرك معاصر ابي الطيب متانة في عبارة او ركالة لا تظهر لنا . ويرى في جملة سوء ادب لا نراه . ومن اجل هذا كانت النكات لا تقع عند الناس مواقع واحدة. فرب كلمة تذهب بجماعة مذاهب فى الضحك والعجب ، ويمرّ بها آخرون لا يرون فيها ما يضحك . لان فى النكات، الى المعنى المشترك بين الجماعات، دقائق او توريات تختلف فى ادراكها البيئات .

ثم معرفة الاشخاص وشهود الوقائع التي قيل فيها الشعر تجعلان للعارف والشاهد ميزة على غيره فى تقدير المعاني ووزن الكلام ، والحكم على القائل . فالقصيدة التي تنظم اليوم فى واقعة تقع فى مصر تتضمن من الدقائق ما لا يقدره غير المصريين وان اشترك العرب والمتأدبون بالادب العربي جميعاً فى فهم معانيها . وكذلك القصيدة التي انشئت فى القرن الرابع هي اقرب الى اهل القرن الرابع . وهلم جرا .

ثم فى عرض آراء النقاد من السلف فائدتان اخريان : الاستعانة بنظرهم وكانوا اكثرمنا فراغاً للادب ، واختصاصاً به والثانية ان معرفة آراء النقاد فى شاعر ّما تدخل فى تاريخ ادب هذا الشاعر .

وترتيب الآراء هنا على ترتيب التاريخ .

١ — قال ابو الفتح بن جني : « وان كان في بعض الفاظه تعسف عن القصد في صناعة الاعراب ، من التمسك بأهداب شاذ أو حمل على نادر فمن غير جهل كان منه ، ولا قصور عن اختيار

الوجه الاعرف له . ومن هنا تشبث قوم لادربة لهم بعلم العربية باشياء من ظاهر لفظه اذ لم يكن لهم خبرة بدخلة أمره . وحقا أقول لقد شاهدته على خلق قلما تكامل الا لعالم موفق .

وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها ، واستيفاؤه اياها فما لا يدفعه الا ضد ولا يستحسن معاندته الا ند . وما أحسبني رأيت أحدا (غضّ من) هذا الرجل وقتاً من الزمان الا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد الى تفضيله ... وما لهذا الرجل الفاضل عيب عند هؤلاء السقطة الجهال وذوي النذالة والسفال الا انه متأخر محدث . وهل هذا لو عقلوا الا فضيلة له ، ومنبهة عليه . لانه جاء في زمان يُعقم الخواطر ، ويصدئ الاذهان ، فلم يزل فيه وحده بلا مضاه يساميه ، ولا نظير يعاليه . فكان كالقارح الجواد يتمطر في المهامه الشداد لا يواضح الا نفسه ، ولا يتوجس فيها الاجرسه »

٢ — وقال الصاحب بن عباد (المتوفي سنة ٣٨٥) في مقدمة رسالته : الكشف عن مساوئ شعر المتنبي : « وكنت ذاكرت بعض من يتوسم بالادب ، الاشعار وقائليها والمجودين فيها . فسألني

عن المتنبي فقلت انه بعيد المرمى في شعره كثير الاصابة في نظمه الا انه ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء. فرأيته قد هاج وانزعج، وحمى وتأجج، وادعى أن شعره مستمر النظام متناسب الاقسام. ولم يرض حتى تحداني فقال ان كان الامر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره، وقيد بالخط ما تذكره لتتصفحه العيون وتسبكه العقول. ففعلت وان لم يكن تطلب العثرات من شيمتي، ولا تتبع الزلات من طريقتي. وقد قيل أي عالم لا يهفو وأي صارم لا ينبو، واي جواد لا يكبو ؟. »

ثم عدّ الصاحب عيوبا أخذها على الشاعر واستشهد بأبيات.

وترى ان الصاحب فى المقدمة لم يطعن في مقدرة الشاعر، ولاحط من قدره، ولا أخره عن رتبته بل أراد ان يثبت أن الرجل هفوات ولكن ساق الكلام في صورة توهم أن سيئاته قرينة حسناته لاترجح الاولى على الاخرى . وكفى هذا خزيا لشاعر . وليس يعنينا أن يكون حقاً أو باطلا ما رواه الثعالبي من أن الصاحب دعا ابا الطيب الى مدحه فاستكبر فانتقم منه بالطعن فيه . فقد

حاول الصاحب أن يأتي بالبينة على دعواه فنصرته حينا وخذلته حينا . وعمدتنا هذه البينة لانية الناقد .

٣— وقال أبو القاسم الاصفهاني في كتابه ايضاح المشكل من شعر المتنبي [1] : «وأما الحكم عليه وعلى شعره فهو سريع الهجوم على المعاني . ونعتُ الخيل والحرب من خصائصه . وما كان يرادّ طبعه في شيء مما يسمح به . يقبل الساقط الرديء كما يقبل النادر البدع . وفي متن شعره وهي . وفي الفاظه تعقيد وتعويص»

وخلاصة هذا الرأي انه كان قليل التثبت فأحسن وأساء ولم يسلم من الضعف والتعقيد . وذلك قريب من رأي الصاحب

٤ — وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (المتوفى سنة ٣٦٦) في كتاب الوساطة : «وما زلت أرى أهل الادب منذ الحقتني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بيني وبينهم ، في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلمه . يتلقى مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ويعجب

---

(١) الخزانة ج ١ ص ٣٨٩

ويعيد ويكرر ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل . فان عثر على بيت مختل النظام أو نبّه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله مايزيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام المنتصر — وعائب يروم ازالته عن رتبته فلايسلم له فضيلة ، ويحاول حطه عن منزلة بوّأه اياها أدبه . فهو يجتهد في اخفاء فضائله ، واظهار معايبه وتتبع سقطاته واذاعة غفلاته . وكلا الفريقين اما ظالم له او للأدب فيه — الى ان يقول — : وللفضل آثار ظاهرة ، وللتقدم شواهد صادقة . فمتى وجدت تلك الآثار وشوهدت هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم فان عثر له بعد ذلك على زلة ، ووجدت له بعقب الاحسان هفوة انتحل له عذر صادق ، أو رخصة سائغة . فان أعوز قيل زلة عالم ، وقلّ من خلا منها . وأيّ الرجال المهذب ؟ »

ثم قال عمن لا يرون للمحدثين من الشعراء فضلا : « فاذا نزلت به الى ابي تمام وأضرابه نفض يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتاً قط ولم يقعوا من الشعر الا بالبعد . ومن هذا رأيه

ومذهبه ، وهذه دعواه ونحلته فقد أعطاك ما أردت من وجه وان ما نعك سواه ، وسمح لك بما التمست وان التوى عليك في غيره . لان الذي انتصبت له ، وشغلت عنايتك به الحق ابى الطيب بهذه الطبقة واضافته الى هذه الجملة . وقد بذل ذلك وقرّب مطلبه عليك . فان تكن الجماعة منسلخة من الشعر موسومة بالنقص مستحقة للنفي فصاحبك أولهم . وان تكن قد علقت منه بسبب وحظيت منه بطائل وكان لها فيه قدم ومنه حظ وموقع فهو كأحدهم . - الى ان قال - فانك لا تدعى لابى الطيب طريقة بشار وابى نواس ، ولا منهاج أشجع والخزيمي . ولو ادعيته انما كنت تخادع نفسك أو تباهت عقلك . وانما انت احد رجلين اما ان تدعي له الصنعة المحضة فتلحقه بابي تمام وتجعله من حزبه او تدعي له فيها شركا وفي الطبع حظا . فان ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جنبة مسلم . وان وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو البحتري . وانا ارى لك اذا كنت متوخياً للعدل مؤثراً للانصاف ان تقسم شعره فتجعله في الصدر الاول

تابعاً لأبي تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم . »

ثم تكلم القاضي المتوسط على ما في شعر ابي نواس وابي تمام والبحتري من التفاوت وانتقل الى بيان السخيف والجيد من شعر ابي الطيب . ثم تكلم على ما أُدعي فيه على الشاعر السرقة ، وما ادعي فيه الغلط في اللغة والنحو والوزن منتصراً للشاعر بالحق حيناً معترفا عليه بالزلل حينا . وقد قال في مقدمة الكلام عما اخذ على الشاعر من الخطأ في اللغة واللحن :

« وقد قدّمنا لك في صدر هذه الرسالة من شعر ابي نواس وابي تمام وغيرهما ما مهدنا به الطريق الى هذا القول ، وأقمناه علماً يرجع اليه في هذا الحكم . واعلمناك انه ليس بغيتنا الشهادة لابي الطيب بالعصمة ، ولا مرادنا ان نبرئه من مقارفه زلة ، وان غايتنا فيما قصدناه ان نلحقه بأهل طبقته ، ولا نقصر به عن رتبته ، وان نجعله رجلا من فحول الشعراء ونمنعك من احباط حسناته بسيئاته ، ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الاكثر بتقصيره في الاقلّ ، والغض من علم تبريزه بخاص تعذيره . »

فقد تبين بما نقلت رأي القاضي وهو تشريف ابي الطيب بالحاقه بابي تمام والبحتري في احسانهما والاعتراف بأن له سيئات مثلهما .

٥ — وقال ابو منصور الثعالبي في اليتيمة : « وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن ابكار كلامه وعونه ، وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه والنضح عنه والتعصب له وعليه . وذلك اول دليل على وفور فضله ، وتقدم قدمه ، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي ، ورق المعاني . فالكامل من عدت سقطاته ، والسعيد من أحصيت هفواته وما زالت الأملاك تهجى وتمدح .

وانا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائقه ، وتفصيل الكلام في نقد شعره ، والتنبيه على عيونه وعيوبه ، والاشارة الى غرره وعرره ، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه . »

رأي الثعالبي قريب من رأي الجرجاني ، وقد نقل عنه كثيراً

من نقده ولكن الثعالبي اطلق القول ولم يقف بأبي الطيب عند ابي تمام والبحتري ، ولا قال ان قصاراه ان يلحق بهما كما قال صاحب الوساطة . وسأبين من بعد ما حكاه الثعالبي مما اخذ على الشاعر في الفاظه ومعانيه .

هؤلاء الخمسة : ابن جني والصاحب والاصفهاني والجرجاني والثعالبي من ادباء القرن الرابع المعاصرين للشاعر او الملحقين بالمعاصرين .

ومن المعاصرين أبو هلال العسكري . (ف ٣٩٥) لم يحفل بأبي الطيب ولم يسمه في كتاب الصناعتين ولكن كنى عنه مرات عند التمثيل بالمستهجن من شعره . ثم صرح باسمه مرات في ديوان المعاني

٦ — وقال الشريف الرضي : « أما ابو تمام فخطيب منبر . واما البحتري فواصف جؤذر . واما ابو الطيب المتنبي فقائد عسكر . » (١)

٧ — المعري والشريف المرتضى :

---

(١) الصبح ص ١٠٣ . (٢) ج ١ ، ص ١٦٩ .

وكان ابو العلاء المعري معجباً بابي الطيب . شرح ديوانه شرحين احدهما اللامع العزيزي والثاني معجز احمد . وقد روى ياقوت ما وقع بين المعري والشريف المرتضي ببغداد من اجل ابي الطيب فقال : « وكان ابو العلاء يتعصب للمتنبي ويزعم انه اشعر المحدثين ، ويفضله على بشار ومن بعده مثل ابي نواس وابي تمام . وكان المرتضي يبغض المتنبي ويتعصب عليه . الخ . »[٢]

وفي الشرح المنسوب الى ابي العلاء المعري ما يُبين عن شدة تعصب ابي العلاء للشاعر . فقد رُوي فيه ان ابن جني اعترض على قول ابي الطيب .

قد شرف الله ارضاً انت ساكنها

وشرف الناس إذ سواك انسانا

وقال لو وضع كلمة مكان سوّاك لكان احسن . فرد عليه العروضي قوله الى ان قال : « وعند ابي الفتح انه يقدر على تبديل ألفاظ هذا الشعر بما هو خير منه ؟ وقرأت على ابي العلاء المعري ، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا ادب ، فقلت له يوماً في

كلمة : ما ضرّ ابا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة اخرى أو ردُّها . فأبان لي عوار الكلمة التي ظننتها . ثم قال لي : لا تظن انك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها . فجرّب ان كنت مرتابا . وها أنا أجرب ذلك منذ العهد فلم اعثر بكلمة لو ابدلتها بأخرى كانت أليق بمكانها، وليجرب من لم يصدق يجد الامر على ما أقول . »

وهـذا القول عجيب من مثل المعري . فإن كان الراوي قد وهم فنسبة هـذا الى المعري تؤيد ما عرف به من التعصب لأبي الطيب .

٨ — وقال ابو سعيد محمد ابن احمد العميدي (المتوفي سنة ٤٤٣) في كتابه : الابانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى .

« ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الابيات التي يفتخر بها اصحابه ، وتعتبر فيها آدابه من اشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم مسلوخة الخ . »

ويرى القارئ انه رأى متعصب أخذ عليه البغض مسالك الصواب .

٩ — وقال ابن شرف القيرواني (المتوفي سنة ٤٦٠) في مقامته عن الشعراء :

« وأما المتنبي فقد شغلت به الالسن . وسهرت في أشعاره الاعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والآخذ لذكره . والغائص في بحره ، والمفتش في قعره عن جُمانه ودُرّه . وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف . وله شيعة تغلو في مدحه . وعليه خوارج تتعايا في جرحه . والذي أقول ان له حسنات وسيئات . وحسناته اكثر عدداً وأقوى مدداً . وغرائبه طائرة ، وأمثاله سائرة . وعلمه فسيح ، ومميزه صحيح ، يروم فيقدر ، ويدرى مايورد ويصدر »

١٠ — وقال ابن رشيق القيرواني (المتوفي ٤٦٣) في كتاب العمدة :

« وليس في المولدين أشهر اسما من الحسن ابي نواس ثم

حبيب والبحترى ويقال انهما أخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد. ثم يتبعهما فى الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن فى المولدين وامرئ القيس فى القدماء. فان هؤلاء الثلاثة لايكاد أن يجهلهم أحد من الناس.

ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس.»

وقال: «وقدكان ابو الطيب كثير البديهة والارتجال الا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جداً. ، وهو لعمرى فى سعة من العذر»

«فاذا صرت الى ابي الطيب صرت الى أكثر الناس غلوا وأبعدهم فيه همة حتى لو قدر ماأخلى منه بيتاً واحداً»

وفى موضع آخر سماه خاتم الشعراء(١)

١١ — ونقل ابن رشيق رأيا لاحد النقاد جديراً بأن ينقل هنا: «وقال بعض من نظر بين ابي تمام وأبي الطيب: انما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة ، او كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ويتحرج خوفاً على دينه. وابو الطيب كالملك الجبار يأخذ ماحوله

---

(١) العمدة ج ١ ص ٦٤ ، ١٢٨ ، ٥١ ، ١٦٣ .

قهراً وعنوة او كالشجاع الجري، يهجم على مايريده لايبالي مالقى ولا حيث وقع[1] . »

١٢ - وقال علي بن أحمد الواحدي شارح الديوان (المتوفى سنة ٤٦٨) : « وان الناس منذ عصر قديم قد ولوا جميع الاشعار صفحة الاعراض مقتصرين منها على شعر ابي الطيب المتنبي عما يروى لسواه وان فاقه وجاز في الاحسان مداه . وليس ذلك الا لبخت اتفق له فعلا وبلغ المدى . قال :

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

على أنه كان صاحب معان مخترعة بديعة ، ولطائف ابكار لم يسبق اليها دقيقة . ولقد صدق من قال :

مارأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يرى لبكر الزمان
هو في شعره تنبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

ولهذا خفيت معانيه على اكثر من روى شعره من اكابر الفضلاء والأئمة والعلماء حتى الفحول منهم والنجباء كالقاضي

(١) العمدة ج ١ ص ٨٧

ابي الحسين علي بن عبد العزيز الجرجاني ، صاحب كتاب الوساطة وابي الفتح عثمان بن جني النحوي وابي العلاء المعري وابى علي بن فورّجه البروجردي الخ ».

وقال بعد شرح ابيات ابى الطيب التى وصف بها كتاب ابى الفتح بن العميد :

بكتب الانام كتاب ورد   فدت يد كاتبه كل يد الخ :

« ولو خرس المتنبي ولم يصف كتاب ابن العميد بما وصف لكان خيراً له فكأنه لم يسمع قط وصف كلام الخ »

وقال بعد شرح الأبيات التي نظمها يوم نثر الورد عند عضد الدولة :

« وهذه قطعة في وصف الورد غير مليحة . وليس المتنبي من أهل هذه الاوصاف . وهي كالقطعة التى وصف فيها كلام ابن العميد » وقد روى العكبري كلمة الواحدي بهذه العبارة :

« وليس المتنبي من اهل الاوصاف »

ونتنقل الى رأي اديب من ادباء القرن السادس والسابع .

١٣ — قال ابو البقاء العكبري شارح الديوان (المتوفي سنة ٦١٦) بعد شرح البيت :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي　　وأنثني وبياض الصبح يغري بي

« وقد أجمع الحذاق بمعرفة الشعر والنقاد أن لابي الطيب نوادر لم تأت في شعر غيره . وهي مما تخرق العقول . منها هذا البيت ومنها الخ » أورد الشارح أكثر من مائة بيت من مختار شعر ابي الطيب . ثم قال « فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله . وانما ذكرناه مجملا ليسهل أخذه وحفظه ، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولدين والمحدثين لم تجد لاحد منهم بعض هذا الا نادرا ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . يؤت الحكمة من يشاء . »

وقال ، بعد أن نقل قول الواحدي أن المتنبي ليس من أهل الاوصاف : قلت انما المتنبي ممن يحسن الاوصاف فى كل فن . وانما هذا الذي يأتى له في البديهة والارتجال أو فى وقت

يكون على شراب أو غيره فلا يعتد به . ولو كان ابو الفتح (يعني ابن جني) عمل صوابا لكان اسقطه من شعره ، ولولا ان من تقدمني شرح هذه المقطعات وأثبتها لما ذكرتها في كتابي هذا »

١٤ — واختم كلام النقاد بقول ابرعهم واتقدمهم ابن الاثير الجزري صاحب المثل السائر (المتوفي سنة ٦٣٧) . قال في المثل السائر :

« ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع. فألفيته بحراً لايوقف على ساحله . وكيف ينتهي الى احصاء قول لم تُحص اسماء قائله ؟. فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده، وتتشعب مقاصده، ولم اكن ممن اخذ بالتقليد والتسليم في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم . اذ المراد من الشعر انما هو ايداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف . فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . وقد اكتفيت في هذا بشعر ابي تمام حبيب بن اوس وابي عبادة الوليد ، وابي الطيب المتنبي . وهؤلاء الثلاثة هم لات

الشعر وعزّاه ومناته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته. وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الامثال وحكمة الحكماء . »

ووصف ابا تمام والبحتري ثم قال في وصف ابي الطيب :

« وأما ابو الطيب المتنبي فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه لكنه حظي في شعره بالحكم والامثال ، واختص بالابداع في وصف مواقف القتال . وانا اقول قولا لست فيه متأثماً ولا منه متلثماً . وذلك انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من أبطالها. وقامت اقواله للسامع مقام افعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا . فطريقه في ذلك يضل بسالكه ، ويقوم بعذر تاركه . ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ما ادى اليه عيانه.

ومع هذا فاني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن الوسط فأما مفرّط في وصفه واما مفرِط . وهو وان انفرد بطريق صار

ابا عذره فان سعادة الرجل كانت اكبر من شعره وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء.

ولقد صدق في قوله من ابيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته ... ان الكرام بأسخاهم يداً خُتموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أُحمِد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى . وجدته اقساماً خمسة : خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يُعبأ بها، وعدمها خير من وجودها . ولو لم يقلها ابو الطيب لوقاه الله شرّها . فانها هي التي ألبسته لباس الملام . وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام . »

خلاصة هذه الآراء :

اذا استثنينا العميدي ، وينبغي ان يخرج من بين هؤلاء النقاد ، فالاجماع على ان ابا الطيب من فحول الشعراء وفرسان

البيان المتصرفين في فنون القول المخترعين دقائق المعاني .

وجلّ هؤلاء النقاد يزون له الى حسناته سيئات. ثم يختلفون في النظر الى سيئاته : يحاول بعضهم تفخيمها والمبالغة فيها . وهم الصاحب بن عباد والشريف المرتضي ويلحق بهم ابو القاسم الاصبهاني . على ان الصاحب قد اعترف بفضل الشاعر في رسالته التي جمع فيها أمثاله كما سيأتي : ومنهم من يحاول الاغضاء عنها او دفعها والاعتذار لها وهم ابن جني والمعري والعكبري .

ومنهم من يقدرها قدرها لا يبغي التسميع بها ولا تهوينها وهم الاكثرون : الجرجاني والثعالبي وابن شرف وابن رشيق والواحدي.

واذا قيس ابو الطيب الى الشعراء فالمعري والعكبري يرفعانه فوقهم جميعاً . والجرجاني يلحقه بابي تمام والبحتري ، ويقف به دون ابي نواس وبشار . وابن الاثير يقول انه اراد ان يقفو أثر ابي تمام فقصرت به خطاه ولكنه فاته وغيره من كبار الشعراء في الامثال والحكم ووصف القتال . وبذّ الشعراء جميعاً في قسم من شعره. وجارى كبارهم في قسم . وتوسط في آخر ثم جاء سكيتاً فيما دون ذلك .

الفصل الثالث

مساوئه ومحاسنه في رأى القدماء

عدّ الصاحب بن عباد في رسالته بعض مساوئ ابي الطيب. وجمع الثعالبي الى مآخذ الصاحب عيوباً اخرى . واقتفى المؤلفون من بعدُ آثارهما . والفصل الذي كتبه الثعالبي في اليتيمة عن الشاعر يشتمل على تسعة عشر عيباً ، وواحد وعشرين مزية . وقد رأيت ان ألقي نظرة شاملة عاجلة على هذه المساوئ والمحاسن في هذا الفصل لافرغ للابانة عن خصائص الشاعر ومزاياه في الفصل الآتي :

— ١ —

بدأ الثعالبي بالكلام على سرقات الشاعر ثم قال : والآن حين اذكر ما يُنعى على ابي الطيب من معايب شعره ومقابحه :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

ثم أقفّى على آثارها بمحاسنه وسياق بدائعه :

فحسن دراري الكواكب ان ترى

طوالع في داج من الليل غيهب . »

ثم شرع يعدد هذه المعايب . وانا أسردها هنا موجزاً مخالفاً ترتيب الثعالبي لاجمع الأشباه معاً واردها الى اصولها فأقسمها اقساماً اربعة :

ما يرجع الى اللفظ ، وما يرجع الى المعنى ، وما يرجع الى آداب القصائد او الخطاب المتواضع عليها في ذلك العصر ، وغير هذا .

فأما ما عُدّ من سرقات الشاعر فلا أُعني به . فلست ارى اتفاق شاعرين او أخذ واحد عن الآخر أمراً ذا بال في تقديرهما . والذي اراه ان الشاعر اذا امده طبع دراك وعلم واسع فبلغ مكانة يخترع فيها المعاني او يصور ما عرف منها تصويراً يُرى فيه طابعه ، وكان لا يعجزه ان يقول غير متطلع الى ما سُبق به فهو ينطق بما نفسه غير آبه لابتداع او اتباع ، ويصور ما يدرك ادراكاً يشبه الاختراع ، ولا يعوزه النظر في كلام غيره قبل ان يقول — اذا كان الشاعر كذلك فعبث ان يعد عليه

ما وافق به فلاناً او يوصم بانه سرق من فلان. وآية هذا ان ترى الشاعر فيما يستبد به مساوياً او اعلى منه فيما يشارك فيه . وكل ما سموه سرقات ابي الطيب ليس غرراً في دهمة ، ولا نجوماً في في ظلمة ولكنه كلام يلائم ما لم يدع فيه السرقة ويشبهه حتى ليدرك الناظر فيهما انهما نتاج طبع واحد . وان يكن بعضه اعلى من بعض فالعلو في جانب ما اخترعه ولم يتهم فيه بأخذ . وحسبي هذه الجملة الدالة على ما بعدها .

ثم أُجمل ما ذكره الثعالبي على التقسيم الذى أسلفته مؤثرا الفاظ الثعالبي مكتفياً بمثال يبين ما عناه الناقد .

القسم الاول :

١ — استعمال الغريب والوحشي كقوله :

ولا أرضى لمقلتــه بحــلم اذا انتبهت توهمــه ابتشا كا

والابتشاك الكذب ولم اسمع فيه شعراً قديماً ولا حديثاً سوى هذا البيت .

٢ — عسف اللغة والاعراب كقوله :

فدًى من على الغبراء اولهم انا   لهذا الأبي الجائد الماجد القرم

ولم يحك عن العرب الجائد .

٣ — تكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين كقوله:

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله   ويجهل علمي انه بي جاهل

٤ — الاستكثار من قول ذا كقوله :

ابا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً

اليه وذا اليوم الذي كنت راجيا

أفي كل يوم ذا الدُمستُق مقدم   قفاه على الاقدام للوجه لائم

اريد من زمني ذا ان يبلغني   ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

٥ — الركاكة والسفسفة بالفاظ العامة ومعانيهم كقوله :

لسريّ لباسه خشن القطن   ومرويّ مرو لبس القرود

٦ — امتثال ألفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة

(ومعانيهم المغلقة) كقوله في وصف الفرس :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة   سبوح لها منها عليها شواهد

اذا ما الكأس ارعشت اليدين   صحوت فلم تحل بيني وبيني

٧ – استكراه اللفظ (وتعقيد المعنى) كقوله :

اذا عذلوا فيها اجبت بأنّة   حبيبتا قلبي فؤادي هيا جمل

لساني وعيني والفؤاد وهمتي
اوُدّ اللواتي ذا اسمها منك والشطر

٨ – الخروج على الوزن :

تفكّره علم ومنطقه حكم   وباطنه دين وظاهر ظرف

وقد خرج فيه عن الوزن لانه لم يجي عن العرب مفاعيلن في عروض الطويل غير مصرّع وانما جاء مفاعلن .

هذا ما جمعه الثعالبي من المآخذ اللفظية . وقد ساق لكل مأخذ امثلة عدة . وفي الديوان امثلة غير التي ذكرها . والمقصد هنا التمثيل لا الحصر .

ولست انكر ان قارئ الديوان يعثر بمثل هذه الابيات . ومرجعها الى امور : قلة المبالاة باللفظ اذا لمع الشاعر وراءه المعنى الذي يريده فلا يعنيه ان يكون غريباً او عامياً او مكرّراً . وقد يجمد

الشاعر ان يتحرر من رق الالفاظ وقد يقتضي المقام الاسفاف الى كلمة مبتذلة لا يسد غيرها مسدها. وفي قلة المبالاة شبه باخلاق الشاعر الذي خرج عن المألوف في كثير من اموره.

ثم مع قلة المبالاة ميل الى الاغراب يظهر في شعر الصبي والشباب اذ كان الرجل معجباً بنفسه يود ان يلفت الناس اليه فيتوعر احياناً ويتكلف ويؤثر تفكير العقل على احساس الطبع . ولا سيما في مطالع القصائد كأنه لا يرضى ان يبتدئ بكلام يسير مألوف .

والى هذين معرفة واسعة باللغة مستعملها وغريبها وشاذها، وصحبة للأعراب وإلف لكلامهم والأخذ عنهم . وهذا كله جعله يأنس بالنافر من اللغة انساً يقربه اليه كما يُستأنس الوحش . ولعله اراد احياناً أن يدل على بصره باللغة وعلمه بغريبها . ولا ننسى أن الشاعر كان كوفياً يميل الى آراء الكوفيين. وكثير مما أنكر عليه له مساغ عندهم . ومن قرأ املاءه على الابيات الشاذة من شعره ، ورأى كيف يحتج لها ويسوق الشاهد بعد الشاهد

عرف ان الرجل لم يؤتَ من جهل باللغة بل من سعة علم بها .
وقد قدمت قول ابن جني في هذا وقد قرأ عليه ديوانه وجادله في
هذه الشواذ وعرف احتجاجه لها ، وشواهده عليها .

وبعد فهذه العيوب ليست صفات ملازمة أو اسلوباً مطرداً في
شعر الرجل ولكن تقع نادراً ولا سيما في شعره الاول . وقد
تقرأ في الديوان عشر قصائد متتابعة لا تجد فيها مأخذاً مما ذكر .

ويبقى بعد هذا كله أنها عيوب أخذت عليه . لامراء في
هـذا .

وأما الخروج على الوزن فأمر ذو بال عجيب ان يؤخذ على
مثل ابى الطيب . وقد قال صاحب الوساطة في هذا بعد ذكر
البيت الذي اتى به الثعالبي :

«قالوا خرج عن الوزن لأنه لم يجئ عن العرب مفاعيلن في
عروض الطويل غير مصرع . قال المحتج انما جاء البحر على مفاعيلن
وليس يحظر على الشاعر اجراؤه على الاصل . وقد روى
العروضيون فيه ، وان يكن مصنوعاً، بيتاً . وقد جاء عن العرب

مفاعيلن في المصرّع . وما خرج عن الوزن لم يحتمله المصرّع ولا غيره .

قال امرؤ القيس :

الا انعم صباحاً أيها الطلل البالي

وهل ينعمن من كان في العصُر الخالي

فجاء بالعروض على مفاعيلن لما صرّع . قالوا وقد جاء في شعر المحدثين ما اجروا فيه غير المصرّع مجرى المصرّع . قال شاعرهم :

فالوجه مثل الصبح مبيضّ والشعر مثل الليل مسودّ

وابو الطيب اعذر من هذا لانه جرى على اصل البحر في الدائرة . وقد جرى ابو تمام الى ما هو اقبح من الامرين فصرّع المصراع في قوله :

يقول فيُسمعُ ويمشي فيسرع ويضرب في ذات الا له فيوجع

وعلى مثل هذا الطريق يعاب ابو الطيب بقوله :

انما بدر بن عمار سحاب هطل فيه ثواب وعقاب

لانه اخرج الرمل على فاعلان في العروض فأجرى على ذلك جميع القصيدة في الابيات غير المصرّعة . وانما جاء الشعر فيه على فاعلن لكن اصله في الدائرة فاعلاتن وان كان غير محفوظ عن العرب . » اهـ

البيت الاول اخذه ابن جني على الشاعر من قبل . وقال فيه الواحدي : « أقرب ما يصرف اليه انه ردّ مفاعلن الى اصلها وهو مفاعيلن لضرورة الشعر . »

هذا مبلغ ما اخذ عليه في الوزن . وهو امر تختلف فيه الانظار . ولو غربلت دواوين الشعراء الآخرين على هذه الشاكلة ما سلموا من مثل هذا .

ثم هذه الابيات من شعر الشباب . وابيات بدر بن عمار التي من الرمل قالها ارتجالا في مجلس شراب . وهي تسعة ابيات .

القسم الثاني :

عدّ الثعالبي مما يرجع الى المعنى المساوئ الآتية :

١ — الافراط في المبالغة ، والخروج فيها الى حدّ الاحالة

كقوله :

وضاقت الارض حتى صار هاربهم   اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

فبعدها والى ذا اليوم لو ركضت   بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هوناً   وصاد الوحش نملهم دبيبا

ولو قلم أُلقيتُ في شق رأسه   من السقم ما غيّرت من خط كاتب

٢ — ابعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها . كقوله :

مسرّة في قلوب الطيب مفرقها   وحسرة في قلوب البيض واليلب

الاّ يشبْ فقد شابت له كبد   شيباً اذا خضبته سلوة نصلا

٣ — تعقيد المعنى كقوله :

أنّى يكون ابو البرايا آدم   وأبوك ، والثقلان انت ، محمد

٤ — الغلط بوضع الكلام في غير موضعه كقوله :

وغرّ الدمستق قول الوشاة   ان علياً ثقيل وصب

جعل الامراء يوشي بهم . وانما الوشاية السعاية ونحوها .

وكقوله في وصف الفرس :

وزاد في الاذن على الخرانق

واذن الفرس يستحب فيها الدقة والانتصاب. واذن الارنب على الضد من هذا الوصف .

٥ — الخروج عن طريق الشعراء الى طريق الفلسفة. كقوله:

وجلت حتى كدت تبخل حائلا للمنتهى . ومن السرور بكاء
إلف هذا الهواء اوقع في النفس ان الحمام مرّ المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والاسى لا يكون بعد الفراق

فأما الثلاثة الاولى فلا تُنكر في شعره . وفي الديوان غير ما ذكر الثعالبي امثلة اخرى كقوله في الغلوّ :

لنوره في سماء الفخر مخترق لو صاعدالفكر فيها الدهر ماانزلا
متى ما يشر نحو السماء بوجهه تخر له الشعرى وينخسف البدر
رجل طينه من العنبر الورد وطين العباد من صلصال
فبقيّات طينه لاقت الماء فصارت عذوبة في الزلال
وبقايا وقاره عافت الناس فصارت ركانة في الجبال

ومن التعقيد قوله في شعر سيف الدولة :

واشقى بلادالله ما الروم اهلها بهذا وما فيها لمجدك جاحد

وفي شعر عضد الدولة :

اذا اشتبهت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى
أذمّت مكرمات ابي شجاع لعيني من نواي على اولاكا

وهذا يقع في شعره الاول ، ويقل على مرّ الزمان حتى يندر جداً بعد اتصاله بسيف الدولة . ولا يستطيع ناقد ان يأتي بعشرة امثلة منه في السيفيات وما بعدها .

واما الغلط فأنكره . وهو دعوى بغير دليل . وما ذكره الثعالبي لا يقوم بدعواه . ففي البيت .

وغر الدمستق قول الوشاة الخ . رويت المداة مكان الوشاة فسقط الاحتجاج به . وقوله ، « وزاد في الاذن على الخرانق » لا عيب فيه . فالخرانق صغار الارانب وآذانها لطيفة صغيرة ولم يرد الشاعر غير هذا . وليس الثعالبي ممن يعلّم ابا الطيب وصف الخيل .

واما الخروج الى طريق الفلسفة فهو من حسنات الشاعر . وحسب الناقد سقوط حجة ان يعيب مثل قوله : الف هذا

الهواء الخ . ان الشعر في حاجة الى من يسمو به الى مستوى الفلسفة ، والنظر البعيد الشامل ويصور به المسائل العويصة .

وليست الفلسفة منافية للشعر . كل قضايا الفلسفة وكل حقيقة في هذا العالم تدخل في الشعر اذا صبغها الانسان بعاطفته فأبان بها عن حزن او الم او تعجب او حيرة الخ . وانظر قول المعري :

فالهلال المنيف والبدر والفرقد والصبح والثرى والماء
والثريا والنار والنثرة والا رض والضحي والسماء
هذه كلها لربك ما عابك في قول ذلك الحكماء

لم ينفر الشعر من هذه الحقائق حين اعرب بها الشاعر عن احساسه الديني . وادخل من هذا في الطبيعة قوله :

وارى الاربع الغرائز فينا وهي في جثة الفتى خصماء
ان توافقن صح اولا فما ينفك فيه الاسقام والاعياء

وقوله :

الخلق من اربع مجمعة ماء ونار وتربة وهوا الخ

فقد صار هذا شعراً حين عبّر به الشاعر عن سخطه على

الحياة او جعله مقدمة لهـذا التعبير، ومن الذي يُخرج من الشعر قول الشاعر :

أشاب الصغير وافنى الكبير   كرّ الغداة ومرّ العشيّ
اذا ليلة هرّمت يومها   أتى بعد ذلك يوم فتيّ
تروح ونغدو لحاجاتنا   وحاجة من عاش لا تنقضي

وقوله زهير :

وأعلمُ علم اليوم والامس قبله   ولكنني عن علم ما في غد عمي

كل هـذا من الشعر لانه يترجم عن عاطفة من عواطف الانسان يوقظها النظر في هذا العالم. وهذا مجال واسع لو اتسع المقام

القسم الثالث :

عدّ الثعالبي عيوباً جمعتُها تحت هذا القسم ، وأدمجت بعضها في بعض فهي ضربان :

١ — قبح المطلع والمقطع واستكراه التخلص . كقوله في المطالع :

هذه برزت لنا فهجت رسيسا   ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

أحادٌ أم سُداس في أحادِ ليليتنا المنوطة بالتناد

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه

بأن تسعدا ، والدمع اشفاه ساجمه

وقوله في المقاطع :

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو

عقمت بمولد نسلها حواء

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوّقه شيءٌ عن الدوران

والمطالع والمقاطع كغيرها من الابيات في تقدير الحسن والقبح . وتميزُها بالعناية يعود الى فن المدح ، وهو لا يعنينا كثيراً . والتعقيد في مطالع ابي الطيب ومقاطعه يرجع الى ولوعه بأن يبتديءُ بشيءٍ عجيب . والى هذا الولوع بالاغراب ترجع كثير من العيوب التي تقدم الكلام فيها . وهذا أيضاً ضرب يندر فيما بعد شعر الشباب .

٢ — والضرب الثاني سماه الثعالبي ، اساءة الادب بالادب كقوله :

فغدا أسيراً قد بللت ثيابه بدم وبلّ ببوله الأفخاذا

وقوله في رثاء ام سيف الدولة :

بعيشك هل سلوت فان قلبي وان جاورت ارضك غير سالي

وفي رثاء اخته :

وهل سمعت سلاماً لي ألمّ بها فقد اطلت وما سلمت عن كثب

قال الثعالبي وما باله يسلم على حرم الملوك ويذكر منهن ما يذكره المتغزّل في قوله :

يعلمن حين تحيّا حسن مبسمها وليس يعلم الاّ الله بالشنب

وكان ابو بكر الخوارزمي يقول لو عزّاني انسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها وضربت عنقه على قبرها . »

ويمكن ان يزاد على هذا امثلة اخرى كقوله في مدح محمد ابن سيار :

قبافا لاسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع ان يذوبا

وقوله في مدح بدر بن عمار :

أُشفق عند اتقاد فكرته عليه منها اخاف يشتعل

وقد جاء مثل هـذا في قوله لسيف الدولة مشيراً الى تركه وقصد كافور :

ومن ركب الثور بعد الجواد انكر اظلافـه والغبب

وهذا في رأيي يرجع الى شيء من الغلظة في طبع الشاعر ، والى جرأة وكبرياء يهونان عليه خطاب الناس دون احتراز ، وتسوية نفسه بمن يمدحه .

بقي من المساوئ التي عدها الثعالبي اثنتان :

١ — التفاوت في شعره او كما قال الثعالبي تبعاً للصاحب : إتباع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء ، والافصاح بذلك في شعره عن كثرة التفاوت وقلة التناسب وتنافر الاطراف وتخالف الابيات . »

وليس هذا عيباً منفرداً . فالمساوئ التي تقدم الكلام فيها اذا وقعت في شعر شاعر مجيد فانما تقع بعد الفقَر الغراء . أ كان يحسن عند الناقد ان يتقدم الشاعر بشعر ركيك يقبح شيئاً فشيئاً حتى ينتهي الى هذه الكلمات العوراء .

٢ — الايضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين .

وهـذا لا يتعلق بالشعر . وقد ادرك الثعالبي ذلك فقال :
« على ان الديانة ليست عياراً على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر . »

وقد بينت آنفاً رأيي في دين ابي الطيب .

— ب —

وأما المحاسن التي عدها الثعالبي ، وهي إحدى وعشرون ، فلا أعنى بها هنا . فكل شاعر عظيم ينبغي ان يكون شعره كله محاسن الا ما يقع بين الحين والحين من هفوة او تقصير . واذا كانت مساويء الشاعر العظيم معدودة فمحاسنه ينبغي أن تأبى على العدّ . ولكنى أعدّد هنا ما ذكره الثعالبي من المحاسن لفائدتين : ان يقف القاريء على رأي الثعالبي وامثاله في مناقب الشاعر بعد ان عرف رأيهم في مثالبه ، وان انبّه الى ماهو جدير بالعناية منها وهو ما يحسب من خصائص الشاعر واسلوبه البدع تمهيداً للكلام عن مزاياه وخصائصه في الفصل الآتي :

وأخالف ترتيب الثعالبي، واجمع الأشباه معاً ايثاراً للايجاز:

١ — حسن المطلع والتخلص والمقطع .

وهذا يقابل ما اخذ عليه من القبح في هذه الثلاثة. والاحسان فيها أصل والاساءة استثناء .

٢ — حسن التقسيم وحسن سياقة الاعداء .

وقد مثل للاول بأمثلة منها :

ضاق الزمان ووجه الارض عن ملك

ملء الزمان وملء السهل والجبل

فنحن في جذل والروم في وجل والبر في شغل والبحر في خجل

ومن امثلة الثاني :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

٣ — الابداع في سائر مدائحه ، وحسن التصرف في مدح سيف الدولة بجنس السيفية ، والمدح الموجه ، والايجاع في الهجاء وحسن التصرف في الغزل ، وافتضاض ابكار المعاني في

المراثي والتعازي .

٤ — حسن التشبيه بغير اداة التشبيه ، والابداع في سائر التشبيهات والتمثيلات .

٥ — التمثيل بما هو من جنس صناعته .

يريد الثعالبي بهذا ذكر الشاعر الحروف الهجائية واصطلاحات النحو الخ . في مثل قوله :

نتاج رأيك في وقت على عجل   كلفظ حرف وعاه سامع فهم

وقوله :

حولي بكل مكان منهم خلق   تخطي اذا جئت في استفهامها بمن

٦ — النسيب بالاعرابيات .

٧ — مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الاحسان والابداع .

٨ — استعمال ألفاظ الغزل والنسيب في اوصاف الحرب .

٩ — ارسال المثل في انصاف الابيات ، وارسال المثلين في مصراعي البيت الواحد .

١٠ — إرسال المثل والموعظة وشكوى الدهر والدنيا والناس وما يجري مجراها .

هذا اجمال ماعدّه الثعالبي ويهمنا منها النوع الخامس فمابعده الى العاشر وستأتي اثناء الفصل الآتي . ويرى القاريء أنّ الثعالبي لمح درراً منثورة لم ينظمها في سلكها ، وزهرات متفرقة لم يرجع بها الى روضها . ومع هذه المحاسن غيرها لم يذكره النقاد ، ووراء هذه وهذه مزايا أنتجتها ، وخصائص في طبع الشاعر أدت اليها . وهذا موضوع الفصل الآتي .

الفصل الرابع

شاعريته وخصائصه

أُبيّنُ في هذا الفصل الصفات التي جعلت ابا الطيب من كبار الشعراء وأنظر في الخصائص التي تميز بها لارى الى اي حد ترفعه عن مستوى الشعراء الآخرين :

وأقدم امام البحث هذه المقدمة :

البيان كله يقوم على عمادين : الادراك والابانة .

أ — فأما الادراك فهو معرفة الانسان ما يراه في هذا العالم وما ينقل اليه بالحديث او الكتابة ، وما يهتدي اليه هو او غيره من الحقائق المجردة التي تتضمنها مظاهر هذا العالم .

والناس في هذا الادراك مختلفون جداً . واقتصر الكلام على ما يتعلق بالادب من ادراكات . واضرب مثلا حمّالا هرماً ضريراً رأيته في بعض المدن . هذا الحمال يراه انسان فلا يرى فيه الا حمالا هرماً ضريراً . ويراه آخر فينفذ الى ما وراء هذا المرأى من ضرورات اضطرت هذا الشيخ الضرير الى الحمل وما يعتلج في نفسه من آلام حين يفكر في موقفه بين ضرورات قاهرة وشيخوخة وضرارة جديرتين بالراحة . وينفذ الى ما وراء هذا من قسوة الناس وظلم القوانين ، وهلمّ جرا . ومثل آخر : زهرة ناضرة مشرفة على جدول لا يرى فيها البستاني الا زهرة قريبة من الماء . ويرى فيها راء آخر نضرة الحياة والشباب ثم يتصل الفكر فيرى ذبولها وفناءها . ويرى في صورتها التي يبديها الماء

ويخفيها صورَ الآمال الكاذبة والخيالات الذاهبة في هذا العيش. ويستطيع ان يكتب مقالاعنوانه : « زهرة على جدول » او ينظم ابياتاً يقول فيها :

يا زهرة في ضفاف الماء ناضرة يهتزّ فيها شباب جدّ مفتون
وللنسيم على اوراقها عبث ينشّر الحسن فيه كل مكنون
تطالع الماء تبغي فيه صورتها تردّها الريح عنه ردّ مغبون
وينفذ الدهر فيها حكمه فاذا شتّى الوريقات بين الماء والطين
اين الشباب الذي راقت نضارته ورفرفت فوقه احلام مجنون
أنضرة الزهر لم تثبت لناظرها أم صورة الماء بين الحين والحين

وهكذا يستطيع الانسان ان يذهب مع الامثلة الى غير نهاية ليبين ان الادب هو تفسير كل انسان هذا العالم بنظراته وآرائه واحياء مواته بنفخ روحه فيه .

وتفاوتُ الكتاب والشعراء في هذا الادراك لا يحد . والشاعر النابغة يبين عما لم يدركه غيره او يزيد ما ادركه غيره بياناً .

*
* *

ثم هذا الادراك اما ان يكشف عن حقائق ليس للانسان فيها الا تبيينها واما ان يخترع لها صوراً خيالية يعرضها فيها . فمن الاول قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يُستغن عنه ويُذمم

وقول عنترة :

واذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقول ابي الطيب :

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

وقول بشار :

فراحوا فريق في الاسار ومثله غريق ومثل لاذ بالبحر هاربه

وانظر قول ابن المقفع : ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك . واضنن بدينك وعرضك عن كل احد .

ثم انظر هذه القصة ، دخل ابو العيناء على ابي الصقر فقال ما أخرك عنا ؟ قال سرق حماري . قال وكيف سرق ؟ قال لم اكن مع اللص فاخبرك . قال فلمَ لمْ تأتنا على غيره ؟ قال ، قعد بي عن الشراء قلة يساري وكرهت ذلة المكاري ، ومنّة العواري .

فاذا تأملت هذه الامثلة لم تجد فيها الا اموراً كشفها القائل إخباراً او طلباً . وهي مع هذا بيان جيد ، ذو أثر في النفس لأن الانسان طلعة يود الكشف عن كل خفي ، ولان في البيان القوي حجة يقرّ لها الفكر ولا يماري فيها ، ولان التذكير بالعاطفة يوقظها .

وادراك الصور اكثر في الكلام لان الادباء قلما يبينون عن حقائق غير ملوّنة بالوانهم ، مصورة بافكارهم خذ قول ابي الطيب :

وقد تمنوا غداة الدرب في لجب ... ان يبصروك فلما ابصروك عموا

صدمتهم بخميس انت غرته ... وسمهريته في وجهه غمم

فكان أثبت ما فيهم جسومهم ... يسقطن حولك والارواح تنهزم

فالبيت الثاني عماده التصوير . جعل سيف الدولة غرة الجيش

والرماح كالشعر الذي يعطي الجبهة. وهاتان الصورتان قصد الشاعر في البيت. وفي البيت الثالث حقيقة مصورة بالخيل ليست هي دون الصورة في اهتمام الشاعر. الحقيقة سقوط اجسام القتلى، وذهاب الارواح. صورها الشاعر فجعل سقوط الجسم ثباتاً وخروج الروح هزيمة.

وقصارى القول ان ادراك الحقائق المجردة كادراك الصور او الحقائق المصورة موضوع الادب ومجال الكاتب والشاعر. وفي هذا الادراك اختلاف البليغ والعيّ، والمحسن والمسيء.

وقد عدّ جماعة ادراك الصور عملا لفظيا فقالوا البلاغة في اللفظ لافي المعنى. ومنهم ابن خلدون. وهو قول ينقصه التحقيق

*
* *

ثم موضوعات البيان مختلفة. منها انساني يدور حول آلام الانسان وآماله، وحبه وبغضه. واستحسانه واستقباحه الخ. يصف الاديب ما يحسه من ذلك في نفسه او يدركه في نفس غيره. ومنها مايتعلق بغير الانسان كالجبال والانهار والطير والشجر.

ولست ازعم ان الانسان حينما يصف نهراً او جبلا يتجرد من عواطفه . فالوصف ممزوج بالعاطفة الانسانية لا محالة ، ولكني افرق بين ما ينشأ في النفس وما ينشأ في الخارج وينتهي اليها .

وتأثير البيان يختلف باختلاف الموضوع . فالموضوع الانساني اكثر تأثيراً في النفس . وتأثيره يسنو كثيراً من ضعف الابانة والتصوير . فالانسان اذا عبّر عن ألم انساني بعبارة بليغة او ركيكة ترك اثراً في السامع على قدر التعبير. بل قد يؤثر الانسان في الانسان بآهة حزينة او نظرة كسيرة ، او جلسة بائسة .

انظر قول كثيّر :

خليلي ! هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

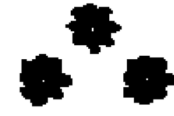
وقول مجنون ليلى :

واخرج من بين الجلوس لعلني احدث عنك النفس ياليل خاليا
واني لاستغفي وما بي غفوة لعل خيالا منك يلقي خياليا

تجد اثر هذه الابيات في النفس قوياً . وما زاد كثير على ان قال لصاحبيه : هذه دار عزة فقفا لتبكي كما يقول كل انسان بلغ

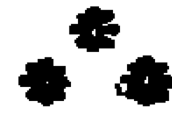
مكاناً يريده يا صاحبي هـذه غايتنا فقف هنـا الشع . وكذلك بيتا المجنون ابانا عما يفعله كل انسان يود ان يفكر في امر يعنيه أو يحلم بحبيب يشوقه. ولكن الابيات ابانت عن ألم دخيل وحب مكين ودلت على ما رواه القول الساذج من ضرام وآلام . فأثارت في نفس السامع من هذا المعنى مقداراً .

وليس الامر كذلك في الابانة عن الامور المنفصلة عن الانسان بل مدار التأثير فيها على شمول البيان ووضوحه ، وقدرة المبين . فالذي يصف فرساً او ناقة او نهراً او شجرة لا يعجب السامع الا بالافتنان في الكشف عن المعاني والتصوير. واخضاعه القلب والعقل معاً. واحسب الامر اوضح من ان يحتاج الى ايضاح.



ثم الموضوعات النفسية والآفاقية تختلف انواعها في نظر الانسان بين الجميل والقبيح ، والجليل والسفساف ، والشريف والوضيع . فالنفس تأذن الى من يحدثها عن الجمال والجلال والمجد والشرف اكثر مما تأذن لمن يحدثها عن الامور التافهة ، اريد

معظم النفوس الانسانية السليمة غير منكر ان من النفوس ما يخلد الى الارض، ويحب الاسفاف اكثر مما يحب التحليق. الحديث الجليل يسمو بالنفس، وينفخ فيها من الطموح والهمة والعفة والتنزه عن الدنايا. وناهيك بهذا اثراً محموداً واذا تركنا الاخلاق جانباً فليس سواءً من يصف السماء والغابات والجبال والبحار واسراب الطير، ومن يصف بقعة صغيرة او وادياً او خيمة او يصف الجرذان والضفادع والهوام. قد يجيد واصف الاشياء التافهة ولكن اجادته قد تغيب في حقارة موضوعة بينما يبرز واصف الاشياء الجليلة باليسير من الاجادة.



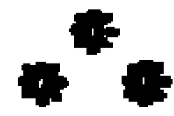
والانسان لا ينظر في الادب الى الابانة والمهارة فحسب بل يريد مع هذا الموضوعَ الذي يسمو بنفسه، وينبّه فيه مشاعر الجمال والجلال والموعظة والحكمة واشباهها. فاذا أجاد شاعر او كاتب في موضوع لا يهم الانسان فهو كالنحّات الماهر ينحت قطعاً من الحجر مسوّاة مهندسة ولكنها لا تصلح لبناء او تمثال.

فلا مناص ان يقدَّر الشاعر بطموحه وجلال موضوعه وجماله كما يقدر بادراكه وابانته .

يفضل الشاعر الشاعر بالموضوع كما يفضل الصانع الصانع بنوع الصنعة . ويفضل الشاعر الشاعر بمقدار الادراك في الموضوع الواحد ثم يفضله بتصوير الادراك الواحد والابانة عنه .

ب — وأما الابانة فهي الافصاح عن المعنى بلفظ مبين عنه ملائم له مساير لمقاييس اللغة ، وللذوق الادبي .

ولا حاجة الى ان ادخل في بحث فصاحة الكلام وبلاغته فهذا له موضع آخر ، وحسبي معرفة القارئ .



ننظر في شعر ابي الطيب بعد هذه المقدمة لنرى موضوعاته ثم ادراكه للموضوع فتصويره فابانته :

— ١ —

لا ريب ان ابا الطيب يمتاز عن الشعراء بموضوعات اكثر الكلام فيها ، واقتن في تصوير معانيها حتى عدت من موضوعات

شعره على حين يلمّ بها الشعراء الآخرون إلماماً لا يستوعبون استيعابه، ولا يكلفون كلفه، ولا يتعمقون تعمقه هذه الموضوعات ترجع الى الاباء والترفع عن الدنايا والطموح الى المعالي والاقدام، ويجمعها « عظم النفس » ، والى الحكمة الاخلاقية والاجتماعية .

أولع بهذه الموضوعات فكررها في قصائد المدح ، وخصّ بها قصائد منها :

كم قتيل كما قتلت شهيد   لبياض الطُلى وورد الخدود

قفا تريا ودْقي فهاتا المخايل   ولا تخشيا خُلفا لما انا قائل

ضيف ألمّ برأسي غير محتشم   السيف احسن فعلا منه باللمم

عذيري من عذارى من امور   سكنّ جوانحي بدل الخدور

ألا لا ارى الاحداث مدحاً ولا ذما

فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

اذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

بِمَ التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من امره ما عنانا

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

ألا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيذبى

حتام نحن نساري النجم في الظلم وما سراه على خف ولا قدم

هذه اثنتا عشرة قصيدة لم يمدح بها ولكن نظمها لنفث ما في صدره، والاعراب عن عواطفه وآرائه. وقد ضمنت من سمو النفس، وعلو الهمة، والحكمة ما لا أعرفه لشاعر في الجاهلية والاسلام. على ان قصائد المدح تضمنت من هذا كثيراً وحسب الباحث ان يقرأ القصائد:

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما يهب اللئام

لا افتخار الا لمن لا يضام مدرك او محارب لا ينام

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر

وحيداً. وما قولي كذا ومعي الصبر

أقلّ فعالي بله اكثره مجد وذا الجدّ فيه نلت ام لم انل جد

ليس لابي الطيب ضريب في هذا الضرب من الشعر. واني اسأل من يرتاب في هذا : إذا أردت أن تربي الشباب العربي على الاخلاق التي تمكنهم من الثبات على زلازل هذا العصر واجتهدت ان تروّيهم شعر شاعر يتخذونه أسوة فهل تجد بين امرئ القيس وأحمد شوقي من يسامي ابا الطيب في هذا الشأن ؟

هذا أمر يقضي لابي الطيب بالسموّ على الشعراء الآخرين وسننظر ما ذا له من المزايا الاخرى .

— ٢ —

وأبو الطيب يعجز الشعراء في كل مايتصل بهذه الموضوعات — كل ما هو بسبب من العظمة والقوة والغلبة والاقدام والخشونة والصبر .

يشاركه الشعراء في وصف الحرب وعُددها كالفرس والسيف والرمح، ووصف السفر والبادية الخ. ولكنه أقدر على البيان في هذه الموضوعات . وقصائده في وصف الحرب ، وهي

كثيرة ، وارجوزته في وصف مهره :

ما المروج الخضر والحدائق   يشكو خلاها كثرة العوائق

والابيات الاخرى في وصف الخيل ، والابيات التي وصف بها السيف في اول القصيدة :

كفرندي فرند سيفي الجراز   لذّة العين عـدّة للبراز

وفي قصيدة ابن العميد الدالية :

جاء نيروزنا وأنت مراده   وورت بالذي اراد زناده

ووصف الأسد في قصيدة ابن عمار :

في الخد أن عزم الخليط رحيلا   مطر تزيد به الخدود محولا

ووصف السفر في القصائد المصرية وغيرها — كل هذا حجة على أن الشاعر لا يجاري في إبانته في هذه الموضوعات .

وقد تقدم قول ابن الأثير في قدرة الشاعر على وصف القتال وقدّمت في صفحة ١١١ ان هذا المقدار من الشعر الحماسي في قصائد ابي الطيب في كثرته وجودته لا يعرف لشاعر عربي ولا فارسي . وما أحسبه عرف لشاعر في اللغات الاخرى .

أيعوز القارئ امثلة ؟ ليقرأ القصائد :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

طوال قنا تطاعنها، قصار ... وفيضك في ندى ووغى بحار

عقبي اليمين على عقبي الوغى ندم ... ماذا يزيدك في إقدامك القسم

وهذه ابيات من هذه القصائد تدل على ما وراءها . يقول في حرب بين سيف الدولة والروم :

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم

بضرب أتى الهامات والنصر غائب ... وصار الى اللبات والنصر قادم

حقرت الردينيات حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم

ومن طلب الفتح الجليل فانما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

نثرتهم فوق الأحيدب كله ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

تدوس بك الخيل الوكور على الذرى

وقد كثرت حول الوكور المطاعم

تظنّ فراخ الفتخ أنك زرتها   بأمّاتها وهي العتاق الصلادم
إذا زلقت مشيّتها يبطونها   كما تتمشى في الصعيد الأراقم الخ.

وهذه الابيات ليست اجود ما في القصيدة .

ويقول في حرب بني كعب :

فأقبلها المروج مسوّمات   ضوامر لا هزال ولا شيار
تثير على سلمية مسبطرّاً   تناكر تحته لولا الشعار
عجاجاً تعثر العقبان فيه   كأن الجوّ وعث أو خبار
وظلّ الطعن في الخيلين خلساً   كأنّ الموت بينهم اختصار
فلزّهم الطراد الى قتال   أحدّ سلاحهم فيه الفرار
مضوا متسابقي الاعضاء فيه   لأرؤسهم بأرجلهم عثار
يشلّهم بكلّ أقبّ نهد   لفارسه على الخيل الخيار
وكلّ أصمّ يعسل جانباه   على الكعبين منه دم ممار
يغادر كلّ ملتفت اليه   ولبته لثعلبه وجار
اذا صرف النهار الضوء عنهم   دجا ليلان ليل والغبار
وان جنح الظلام انجاب عنهم   اضاء المشرفية والنهار

***

وفي حرب الروم :

فلم يتم سروج فتح ناظرها ألا وجيشك في جفنيه مزدحم

والنقع يأخذ حرّانا وبقعتها والشمس تسفر احيانا وتلتثم

سحب تمرّ بحصن الران ممسكة وما بها البخل لولا انها نقم

جيش كأنك في ارض تطاوله فالارض لاأمم والجيش لاأمم

اذا مضى علم منها بدا علم وان مضى علم منه بدا علم

وشزّب أحمت الشعرى شكائمها ووسّمتها على آنافها الحكم

حتى وردن بسمنين بحيرتها تنش بالماء فى اشداقها اللجم

واصبحت بقرى هزيط جائلة

ترعى الظبي فى خصيب نبته القمم

فما تركن بها خلداً له بصر تحت التراب ولا بازاله قدم

ولا هزبراً له من درعه لبد ولا مهاة لها من شبهها حشم

ترمي على شفرات الباترات بهم مكامن الارض والغيطان والاكم

وجاوزوا ارسناساً معصمين به وكيف يعصمهم ما ليس ينعصم

وما يصدّك عن بحر لهم سعة   وما يردّك عن طود لهم شمم

ضربته بصدور الخيل حاملة
قوماً إذا تلفوا قدماً فقد سلموا

تجفّل الموج عن لبات خيلهم   كما تجفل تحت الغارة النَعم

عبرت تقدمهم فيه وفى بلد   سكانها رمم مسكونها حُمم

وفى اكفهم النار التي عبدت
قبل المجوس الى ذا اليوم تضطرم

هندية ان تصغر معشراً صغروا
بحدّها او تعظم معشراً عظموا

وقد تمنّوا غداة الدرب فى لجب   ان يبصروك فلما ابصروك عموا

صدمتهم بخميس انت غرّته   وسمهريته فى وجهه غَمم

فكان أثبت ما فيهم جسومهم   يسقطن حولك والارواح تنهزم

والاعوجية ملء الطرق خلفهم   والمشرفية ملء اليوم فوقهم

اذا توافقت الضربات صاعدة   توافقت قلل فى الجو تصطدم

* * *

٣ – الشاعر لاعتداده بنفسه ، واقتداره على البيان صاغ كثيراً من أقواله صيغة عامة وأجراه مجرى الامثال فكثر في شعره المثل وما يشبهه من القواعد الخلقية والاجتماعية كقوله :

مصائب قوم عند قوم فوائد — وربما صحت الاجسام بالعلل
وخير جليس في الزمان كتاب — وتأبى الطباع على الناقل
ولكن طبع النفس للنفس قائد — اذا عظم المطلوب قل المساعد
أنا الغريق فما خوفي من البلل — ليس التكحل في العينين كالكحل

وقوله :

وكل امرئ يولي الجميل محبب — وكل مكان ينبت العز طيب
من يهن يسهل الهوان عليه — ما لجرح بميت ايلام

وقوله :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم

ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا الخ

وقد ألّف الصاحب بن عباد رسالة لفخر الدولة بن بويه جمع فيها من شعر أبي الطيب زهاء ٣٧٠ بيتا تجري مجرى الامثال. وقال في مقدمتها : « وهذا الشاعر مع تميزه وبراعته وتبريزه في صناعته له في الامثال خصوصاً مذهب يسبق به امثاله . »

ما اقتصر ابو الطيب على ان ينطق بالحكمة بل صاغها أمثالا فشاعت وصارت ثروة في الادب .

وبهذا الادراك والتصوير فاق الشعراء أجمعين . فكما امتاز بالموضوع فيما تقدم امتاز هنا بسمة الادراك وعمقه ، وتصوّره .

وهذه ميزة أخرى للشاعر العظيم

٤

شارك ابو الطيب سلفه من الشعراء في فنون الشعر المعروفة المدح والغزل والهجاء والرثاء والوصف الخ . ولست ازعم أنه يفوق الشعراء في هذه الفنون ولكن أعدّه أحد المجيدين فيها

ولا أنكر أن يسبقه فيه غير محاشا الوصف فهو مُجلّ فيه لا يسبق . وسيأتي برهان هذا .

وآخذ الغزل، وهو الفنّ البعيد عن طبع الشاعر ، دليلا على قدرته واحسانه اذا اراد أن يجول ولو في غير ميدانه :

تجنب الشاعر الغزل في مطالع القصائد أحياناً ، ولام المتغزلين في قصيدة مدح بها سيف الدولة مطلعها :

اذا كان مدح فالنسيب المقدّم　　　أكل فصيح قال شعرا متيم

وقال في القصيدة

مُنى كنّ لى أن البياض خضاب　　　فيخفي بتبييض القرون شباب:

وما العشق الا غرة وطماعة　　　يعرّض قلب نفسه فيصاب

وغير فؤادى للغواني رميّة　　　وغير بناني للزجاج ركاب

تركنا لاطراف القنا كل شهوة　　　فليس لنا الا بهنّ لعاب

وفي القصيدة :

بم التعالل لا اهل ولا وطن　　　ولا نديم ولا كأس ولا سكن:

مما اضر بأهل العشق أنهم
هووا وماعرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً وانفسهم   في اثر كل قبيح وجهه حسن
تحملوا حملتكم كل ناجية   فكل بين علي اليوم مؤتمن
مافي هوادجكم من مقاتي عوض   ان مت شوقاً ولا فيها لها ثمن

هو في هذه الابيات يعني بني حمدان ولكنه اعرب عن ذات صدره ودخيلة نفسه ، ونزعة طبعه .

وقال في القصيدة

كدعواك كل يدعي صحة العقل   ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل:
محبٌ كني بالبيض عن مرهفاته   وبالحسن في اجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير انني   جناها احبائي واطرافها رسلي
عدمت فؤادا لم تبت فيه فضله   لغير الثنايا الغر والحدق النجل
فما حرمت حسناء بالهجر غبطة   ولا بلغتها من شكا الهجر بالوصل

* * *

فليس الشاعر في غريزته من أهل الغزل ولكنه حينما اراد

ان يتغزل تأسيا بالشعراء استطاع بنزعة الحب الضعيفة التي لا يخلو منها انسان ، وبصناعة البيان القوية التى فى طبعه ان يجيد في الغزل وهذه امثلة من غزله تشهد بما أدعي:

لعبت بعشيته الشمول وغادرت صنما من الاصنام لولا الروح
ما باله لاحظته فتضرجت وجناته وفؤادي المجروح
ورمى ومارمت يداه فصابني سهم يعذب والسهام تريح
قرب المزار ولا مزار وانما يغدو الفؤاء فتلتقى ويروح
وفشت سرائرنا اليك وشفنا تعريضنا فبدالك التصريح
لما تقطعت الحمول تقطعت نفسي اسى وكأنهن طلوح
وجلا الوداع من الحبيب محاسنا حسن العزاء وقد جلين قبيح
فيد مسلمة وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح
يجد الحمام ولو كوجدي لانبرى شجر الاراك مع الحمام ينوح

ومن قصيدة مدح بها الحسين الهمذاني

أسر بتجديد الهوى ذكر مامضى وان كان لا يبقى له الحجر الصلد
سهاد أتانا منك في العين عندنا رقاد . وقلام رعى سربكم ورد

ممثلة حتى كأن لم تفارقي

وحتى كان اليأس من وصلك الوعد

وحتى تكادي تمسحين مدامعي ويعبق في ثوبي من ريحك الند

ومن غزله في العهد الحمداني :

بليت بلى الاطلال ان لم اقف بها

وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

كئيباتوقاني العواذل في الهوى كما يتوقى ريض الخيل حازمه

قفي تغرم الاولى من اللحظ مهجتي

بثانية . والمتلف الشيء غارمه

سقاك وحيانا بك الله . انما على العيس نور والخدور كمائمه

وقوله :

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وماكنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق

وبين الرضى والسخط والقرب والنوى

مجال لدمع المقلة المترقرق

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه

وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

وقوله :

لا تعذل المشتاق في اشواقه حتى تكون حشاك في احشائه

ان القتيل مضرجا بدموعه مثل القتيل مضرجا بدمائه

والعشق كالمعشوق يعذب قربه للمبتلى وينال من حوبائه

لو قلت للدنف الحزين فديته مما به لاغرته بفدائه

وقوله :

أيدري الربع اي دم أراقا واي قلوب هذا الركب شاقا

لنا ولاهله ابدا قلوب تلاقي في جسوم ما تلاقى

وما عفت الرياح له محلا عفاه من حدا بهم وساقا

فليت هوى الاحبة كان عدلا فحمّل كل قلب ما اطاقا

نظرت اليهم والعين شكرى فصارت كلها للدمع ماقا

وقد أخذ التمام البدر فيهم وأعطاني من السقم المحاقا

وبين الفرع والقدمين نور يقود بلا ازمتها النياقا

وطرف ان سقى العشاق كأساً　　بها نقص سقانيها دهاقا

وخصر تثبت الابصار فيها　　كأن عليه من حدق نطاقا

ثم لا ننسى غزله بالاعرابيات في مواضع من شعره واعرابه بذلك عن الميل الى الصراحة والجمال الطبيعي كما تقدم

يتبين بهذا ان الرجل مجيد في الغزل، متصرف فيه. ولولا عقل درّاك، وبيان قادر ما أحسن هذا الاحسان في موضوع لم تمدّه له غرائزه.

* * *

وفي غزل ابي الطيب أمران جديران بالاثبات هنا:

الأول ان الغزل لا ينسيه الكلف بذكر الحرب فهو يصف مَنعة الحبيبة ومادونها من شدائد وأهوال. يقول في قصيدة ابن طغج:

ديار اللواتي دارهن عزيزة　　بطولى القنا يحفظن لا بالتمائم

وفي بعض القصائد السيفية:

حبيب كأن الحسن كان يحبه فآثره أو جار في الحسن قاسمه
تحول رماح الخط دون سبائه وتسبى له من كل حي كرائمه
ويضحى غبار الخيل أدنى ستوره
وآخرها نشر الكباء الملازمه

وما شرقي بالماء الا تذكرا لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه فليس لظمآن اليه وصول

متى تزر قوم من تهوى مودتها لا يتحفوك بغير البيض والأسل

وفي قصيدة كافورية:

سوائر ربما سارت هوادجها منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدي المطي بها على نجيع من الفرسان مصبوب

والثاني أن الشاعر الهمام كلف بالحرب حتى تغزل بها. وقد تقدم قوله:

محبّ كنى بالبيض عن مرهفاته
وبالحسن في اجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير انها جناها أحبائي وأطرافها رسلي

ويقول :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل   والطعن عند محبيهن كالقبل

والطعن شزر والارض واجفة   كأنما في فؤادها وهل

قد صبغت خدها الدماء كما   يصبغ خد الخريدة الخجل

— ٥ —

الوصف

وصف المحسوسات من أعضل موضوعات البيان . لأن الموصوف معروف محدود ، والواصف ملزم ان يبين عنه ولا يتعداه. فليس طليقاً يجري مع هواه ويتجنب وعر الكلام الى سهله

وفي الوصف تتفاوت القدر — تتفاوت في ادراك دقائق الموصوف وفي الابانة عنه باللفظ السلس المبين . وهو يحتاج الى حس دقيق ، وفكر مرتب ، وبيان قوي . وقد عرف الأعراب باجادتهم الوصف لدقة احساسهم ، وسلامة فطرهم ، واحتياجهم اليه في تعريف الديار والطرق والمياه والمراعي . روى ابو هلال العسكرى في ديوان المعاني أن هشام بن عبد الملك قال لأعرابي

لايقرأ : انظر كم على هذا الميل من عدد الأميال فنظر ثم عاد فقال: « رأيت شيئاً كرأس المحجن متصلا بحلقة صغيرة تتبعها ثلاث كأطباء الكلبة يفضي الى هنة كأنها قطاة بلامنقار. » ففهم هشام أنها « خمسة ». وفي كتب الأدب من أوصاف الاعراب المعجب المطرب

وأبو الطيب ، وهو يكاد يكون اعرابياً ، من أدق الشعراء ادراكا للموصوف واقدرهم ابانة عنه . وتبتُ هذا فى اوصافه الكثيرة : وصف بحيرة طبرية فى القصيدة :

أحق عاف بدمعك الهمم　　　أحدث شيء عهدا بها القدم

ووصف الأسد فى قصيدة بدر بن عمار :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا　　　مطر تزيد به الخدود محولا

ووصف السيف فى قصيدة الروزباري :

كفرندي فرند سيفي الجراز　　　لذة العين عدة للبراز

وقصيدة ابن العميد الدالية ، ووصف الصيد في طرديات ابى علي الاوراجي وابن طغج وعضد الدولة .

ووصف خيمة سيف الدولة في القصيدة :

وفؤكما كالربع اشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

ولا أتعرض لوصف الجيوش والحرب فأمره فيها بيّن

قال يصف السيف :

كفرندي فرند سيفي الجراز لذة العين عدة للبراز

تحسب الماء خط في لهب النار أدق الخطوط في الأحراز

كلما رمت لونه منع الناظر موج كأنه منك هازي

ودقيق قذى الهباء أنيق متوال في مستو هزهاز

ورد الماء فالجوانب قدراً شربت والتي تليها جواز

حملته حمائل الدهر حتى هي محتاجة الى خرّاز

فاقرن هذه القطعة بقطعة البحتري :

قد جدت بالطرف الجواد فثنّه لأخيك من أدد ابيك بمنصل

يتناول الروح البعيد مناله عفواً ويفتح في القضاء المقفل الخ

أو بقطعة ابن الرومي :

خير ما استعصمت به الكف عضب ذكر حده أنيث المهز

ما تأملته بعينيك الا ارعشت صفحتاه من غير هز الخ

تجد لأبي الطيب فضلا عليها

وقال في وصف الصيد :

ومنزل ليس لنا بمنزل ولا لغير الغاديات الهطّل
ندى الخزامي أذفر القرنفل محلّل ملوحش ، لم يحلّل
عنّ لنا فيه مُراعى مغزِل محيّن النفس بعيد الموئل
اغناه حسن الجيد عن لبس الحلى وعادة العرى عن التفضل
كأنه مضمّخ بصندل معترضا بمثل قرن الأيل
يحول بين الكلب والتأمل فحلّ كلاّبي وثاق الأحبُل
عن أشدق مسوجر مسلسل اقبّ ساط شرس شمردل
منها اذا يثغ له لايغزَل مؤجّد الفقرة رخو المفصل
له اذا أدبر لحظ المقبل كأنه ينظر من سجنجل
يعدو اذا احزن عدو المسهل اذا تلا جاء المدى وقد تُلى
يُقعي جلوس البدوىّ المصطلي بأربع مجدولة لم تجدَل
فُتل الايادي ربذات الأرجل آثارها امثالها في الجندل

يكاد في الوثب من التفتّل   يجمع بين متنه والكلكل
وبين أعلاه وبين الأسفل   شبيه وسميّ الحضار بالولى
كأنه مضبرّ من جرول   موثّق على رماح ذبّل
ذي ذنب أجرد غير أعزل   يخط في الأرض حساب الجمّل
كأنه من جسمه بمعزل   لوكان يُبلى السوط تحريك بلى
نَيل المنى وحكم نفس المرسل   وعُقلة الظبي وحتف التتفل
فانبريا فذّين تحت القسطل   قد ضمن الآخر قتل الأول
في هبوة كلا هما لم يذهل   لا يأتلي في ترك الا يأتلي
مقتحماً على المكان الأهول   يخال طول البحر عرض الجدول الخ

وكذلك طردية عضد الدولة من ابلغ ما قيل في وصف الصيد . فليرجع اليها القاريء في الديوان .

— ٦ —

ومن دقّته في الادراك ميله الى التشبيهات الدقيقة المأخوذة من حروف الهجاء واشباهها كقوله :

وانثني عنّي الرديني حتى   دار دور الحروف في هوّاز

اول حرف من اسمه كتبت سنابك الخيل فى الجلاميد

ورب جواب عن كتاب بعثته وعنوانه للناظرين قتام
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة جواد ورمح ذابل وحسام

تاج رايك فى وقت على عجل كلفظ حرف وعاه سامع فهم

قشير وبلعجلان فيها خفية كراءين في الفاظ الثغ ناطق
وكل فتى للحرب فوق جبينه من الضرب سطر بالاسنة معجم

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب ادقهما وضم الشاكل الخ

— ٧ —

وضح مما قدمت سمو ابى الطيب في موضوعاته وقدرته على الادراك والتصوير . وهنا تبين قدرته على الابانة والتعبير . كل ما قدمت من أمثلة برهان على بصره بالابانة ، وتمكنه في فنون المنطق ولكن أريد هنا أن أدل على أمر فوق تأدية المعنى في لفظ واضح وأسلوب فصيح . أريد أن أدل على مهارته، وحذقه في تصوير المعنى الكثير في لفظ قليل مبين لا تعقيد فيه ولا

اضطراب ، وهي ميزة واضحة في شعره تقف بقاريء الديوان في مواضع كثيرة للاعجاب :

أراد أن يقول ان الليالي تكلفني سفراً متصلاً أقطع به مهامه واسعة صابراً على السير ومصاعبه حتى تشك ناقتي أصدري أوسع بها أم البيداء . فانظر كيف وضع هذا المعنى الطويل في عشر كلمات :

شِيَمَ الليالي أن تشكّك ناقتي   صدري بها أفضى أم البيداء

وأراد ان يقول في مدح أبي علي الاوراجي : ان ابا عليّ كالجبال عظما ووقاراً وان لى فيه رجاء عظيما كالجبال وبيني وبينه جبال شاهخة لابد لى من قطعها . فانظر كيف أدّى هذا في ثماني كلمات :

بيني وبين أبي عليّ مثلُه   شمُّ الجبال ، ومثلهن رجاء

وأراد ان يقول ان ممدوحه حسن ولكنه في عيون اعدائه قبيح وكذلك ضيفه قبيح في عيون ابله لانها تعرف في قدوم الضيف نحرها . فأتى بهذه العبارة :

حسن . في عيون اعدائه أقبحُ من ضيفه رأته السوام

وان يكن في هذا البيت شيء من الغموض فبما حمّله من المعنى الكثير في لفظ قليل.

وأراد أن يبين أنه يطرد عن عينه النوم في مسيره الى رجل جواد يبلغ معروفه الناس في ديارهم وهم نائمون . فقال :

سرى النوم عنيّ في سراى الى الذي
صنائعه تسري الى كل نائم

وأراد أن يصف نساء بالجمال وسعة الاعين و بأنهن يبكين بكاء شديداً يذهب بجمال أعينهن فأدى هذا المعنى في هذا الشطر:

دموع تذيب الحسن في الأعين النُجل

وأراد أن يبين أن سيف الدولة هزَم الروم وقتلهم فمنهم من اختفى في المطامير والسراديب وتحت الاطلال كالخُلد الذي يختفي في الأرض، ومنهم من فرّ مسرعاً كالبازي. فما سلم هؤلاء ولا هؤلاء من القتل فقال :

فما تركن بها خلداً له بصر   تحت التراب ولا بازاً له قدم

وأراد أن يمدح سيف الدولة بأنه قتل في الحرب نفوساً كثيرة لو حواها لخلد وأن حياته سرور لهذه الدنيا . فقال :

نهبتَ من الأعمار مالو حويته لهُنّئَتِ الدنيا بأنك خالد

وهذا الذي يُسمى المدحَ الموجّه أي ذا الوجهين كالثوب الذي له وجهان كلاهما حسن .

ومثل هذا في شعره كثير :

عمر العدوّ اذا لاقاه في رهج أقل من عمر مايحوى اذا وهبا

تُشرق أعراضهم وأوجههم كأنها في نفوسهم شيم

الى كم تردّ الرسل عما أتوا له كأنهم فيما وهبتَ ملام

كأن ألسنهم في النطق قد جعلت على رماحهم في الطعن خُرصانا

فهذا فن يشهد بالقدرة على الابانة ، والبصر بابراز المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة . وكم قائل يعد للمعنى اشطانا من الألفاظ ثم يكون كما قيل : تجيء بحمأة وقليل ماء .

خاتمة

قصصت على القارئ سيرة أبي الطيب من مهده الى لحده ، وبينت أخلاقه ونزعاته. وأوضحت مذاهبه وآراءه . فتجلى رجلا عصامياً هماماً طموحاً مقداماً صبوراً يتميز بأخلاقه عن شعراء زمانه ، ويسمو بها الى منزلة كبار الرجال على غرابة في طباعه .

ثم أبنت عن علمه باللغة ومكانته في الأدب وآراء النقاد فيه وكشفت عن جوانب النبوغ والتفوق في شعره على قدر ما اتسع الوقت ، وأذنت المشاغل. فتجلى شاعراً عظيماً يفوق كبار الشعراء احياناً ويجاريهم احياناً على شذوذ يقع في معانيه والفاظه .

فلا مراء ان الرجل من كبار رجالنا على علاته ولا ريب انه أعظم شعرائنا على هفواته .

وان الشذوذ ليدل على قوة الحياة احياناً، وعلى الثقة بالنفس، والاعتداد بالرأي .

وبعد فلا يجادل خصوم ابي الطيب انه اذا عد عشرون من كبار

شعرائنا فهو منهم، ولا يمتري غير الخصوم انه اذا عدّ عشرة من أفذاذ شعرائنا كان احدهم . ولا ارتاب أنا انه اذا لم يكن بدٌ من تمييز شاعر وتفضيله على الشعراء جميعاً فهو :

ابو الطيب احمد بن الحسين

* * *

يسّر الله الفراغ من كتابته ضحى يوم الجمعة لتسع بقين من شهر ربيع الثاني سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة (عاشر شهر تموز سنة ست وثلاثين وتسعمائة والف من الميلاد)

في مدينة السلام حرسها الله.

والله أعلم

وله الحمد في الأولى وفي الآخرة

اهـ

الفهرست

المقدمة

المدخل :

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
١٧	٢	مراجعة	مراجعه
٢٥	٩	كلا	كلها
٢٨	٧	ابن الحسن	ابي الحسن
٣٠	الاخير	له الأقدار	به الأقدار
٣٧	٧	الشروان	الشرواني
٣٨	١٢	كما نما	كأنما
«	٣	أرى	أرمى
٥٧	٣	وأقرب ما يطمح	وأقرب الى ما يطمح
«	٨	في الشام	إلى الشام
٦٤	٥	اشتهر عليه	أشهد عليه
«	١١	قبائل	قبائل العرب
٦٧	الاخير	كان في ايفاء	كاف في النماء
٧٧	١	٣٥٤	٣٢٤
٨٦	٣	خوض	خوص

ص	س	خطأ	صواب
٨٦	١١	أوان	أوانا
٩٠	٤	ويعود	يعود
٩٣	٥	من حيك	مدحيك
٩٤	١٢	متحدث	فتحدث
١١٥	١	دنانش	دنانير
«	٧	الغراب	الغرب
١١٩	٩	ولا تطمئنّ	ولا تطمئنْ
١٢١	٦	أسقمت	أسقمت
١٤٨	١١	الوقوف	القيام
١٥٦	١١	ويحمد	ويحمده
١٥٨	٥	بتسليمم	بتسليمهم
١٦٦	٤	المجر	المجبر
١٧٢	١١	مقصور	مقصود
١٨٣	٥	تعسى	أتعسى
١٩١	١٢	أحدها	أحدها

ص	س	خطأ	صواب
١٩٢	الاخير	ندامة	مُذامّة
٢١٦	«	الاقناع	الاقذاع
٢٢٩	٧	بمدد	بمدُ
٢٥٩	١٢	أبي الطيب	أبا الطيب
٢٨٢	الاخير	الحواجب	الحواجيب
٣٣٣	١	كريم ولئيم	كريم أو لئيم
٣٣٨	١٠	الفوت	الغوث
٣٤٢	١	الخامس	الرابع
٣٥٢	١٠	٩٣٣	٣٩٣
٣٥٦	٢	الأب	الأدب
٣٥٨	٢	للمعارف	للطارف
٣٨٨	٤	وجلات	وجُلدت

يطلب في العراق من محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية في بغداد .

وفي مصر من لجنة التأليف والترجمة والنشر

الثمن ٢٠٠ فلس

